# عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم

رسالة دكتوراه

إعداد

د. عبدالرحمن بن محمد البرادعي

قسم الدراسات القرآنية في جامعة أم القرى ـ كلية المعلمين سابقاً

المجلد الثاني

دار طيبة الخضراء

مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

دار طيبة الخضراء

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٥٥٨٩٠٢٧ - فاكس: ٥٥٨٩٧٨٠ - ص.ب: ٦٩٥٨

## الباب الثالث:

## أنواع القلوب وأوصافها في القرآن الكريم.

## ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: القلوب الصحيحة.

الفصل الثاني: القلوب الميتة.

الفصل الثالث: القلوب المريضة.

## الفصل الأول:

## القلوب الصحيحة

### ويشتمل على سبعة مباحث:

المبحث الأول: القلوب السليمة.

المبحث الثاني: القلوب المطمئنة.

المبحث الثالث: القلوب الوجلة.

المبحث الرابع: القلوب المخبتة.

المبحث الخامس: القلوب المنيبة.

المبحث السادس: القلوب اللينة.

المبحث السابع: القلوب المربوط عليها.

## المبحث الأول

## القلوب السليمة

لفظ السلامة يعني البراءة من العيوب، والتعرّي من الآفات، وهو بهذا المعنى مرادف للفظ الصحة والعافية.[1]

**وقد ورد وصف القلب بالسلامة في آيتين كريمتين:**

**الأولى**: تتضمن ثناء على نبي الله إبراهيم عليه السلام، إذ وصفه الله جل وعلا بسلامة القلب فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣ - ٨٤].

**والثانية**: على لسان إبراهيم عليه السلام، يدعو ربه جل وعلا: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩].

**وللمفسرين في المراد بسلامة القلب أقوال[2]، يمكن عودها إلى قولين رئيسين:**

**القول الأول**: أن المراد سلامة القلب من الكفر والشرك، وخلوصه من الشكوك المؤثرة في جناب التوحيد وقضايا الإيمان.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٦٥)، المفردات: (ص: ٢٤٥)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٢٥٢).

(٢) انظر: زاد المسير: (٦/ ٤٢).

وذلك باعتبار أن المعاصي والذنوب لا يكاد ينجو منها أحد.[1]

عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: (شهادة أن لا إله إلا الله).[2]

وعن قتادة قال: (سليم من الشرك)[3]، وبمثله عن الحسن ومجاهد والسدي.[4]

وعن مجاهد قال: (ليس فيه شك).[5]

وعن ابن زيد قال: (سليم من الشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد).[6]

وعن ابن سيرين[7] أنه سئل: ما القلب السليم؟ فقال: (أن يعلم أن الله

---

(١) انظر: تفسير السمعاني: (٤/ ٥٥)، تفسير البغوي: (٣/ ٣٩٠)، تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٨٣)، الدر المنثور: (٦/ ٣٠٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٩، ٤/ ١٢)، فتح القدير: (٤/ ١٠٩)، الزهد: (ص: ٢٦).

(٣) تفسير الطبري: (١٩/ ٨٧-٢٣/ ٧٠)، تفسير الصنعاني: (٣/ ٧٤، ١٥٠)، الدر المنثور: (٦/ ٣٠٨ -٧/ ١٠٠)، تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٧٠)، تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٨٣)، الدر المنثور: (٦/ ٣٠٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٩، ٤/ ١٢).

(٥) تفسير الطبري: (١٩/ ٨٧، ٢٣/ ٧٠)، تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٨٣، ١٠/ ٣٢١٩)، الدر المنثور: (٧/ ١٠٠).

(٦) تفسير الطبري: (١٩/ ٨٧)، تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٨٣)، وانظر: تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨).

(٧) هو محمد بن سيرين، أبو بكر الأنصاري البصري، مولى أنس بن مالك ﷺ، تابعي ثقة، إمام في التفسير والحديث والفقه وتعبير الرؤيا، معروف بالزهد والورع، توفي سنة عشر ومائة. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ١٥٢ - ١٥٤)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٤٤٩ - ٣٤٥٣).



حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور).[1]

وهذا القول أيضًا هو قول جماعة من المفسرين منهم ابن جرير[2]، وابن قتيبة[3]، والواحدي[4]، والسمعاني[5]، والبغوي[6]، ونسبه القرطبي والسمعاني إلى أكثر المفسرين.[7]

**القول الثاني**: أن المراد سلامة القلب من آفات الكفر وأدناس المعصية.

وهو قول الزمخشري[8]، وابن عطية[9]، وابن العربي[10]، والرازي[11]، والبيضاوي[12]، وابن الجوزي[13]، وأبي حيان[14]، وابن القيم[15]، وغيرهم.[16]

---

(١) تفسير الطبري: (١٩/ ٨٧)، تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٨٣)، الدر المنثور: (٦/ ٣٠٨)، تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٩، ٤/ ١٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٩/ ٨٧، ٢٣/ ٦٩).

(٣) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٣١٨).

(٤) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٧٩١، ٩١١).

(٥) انظر: تفسير السمعاني: (٤/ ٤٠٣).

(٦) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٣٩٠، ٤/ ٣٠).

(٧) تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨)، تفسير السمعاني: (٤/ ٥٥)، وانظر: تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٩).

(٨) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ٣٢٦، ٤/ ٥٠).

(٩) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ٢٣٥، ٤/ ٤٧٨).

(١٠) انظر: أحكام القرآن: (٣/ ١٤٣٧).

(١١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٥١).

(١٢) انظر: تفسير البيضاوي: (٢/ ١٥٨ - ١٥٩).

(١٣) انظر: زاد المسير: (٦/ ٣٠٠).

(١٤) انظر: تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢٧، ٧/ ٣٦٥).

(١٥) انظر: إغاثة اللهفان: (١/ ٤١ - ٤٣).

(١٦) انظر: تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨)، نظم الدرر: (٥/ ٣٧١)، تفسير أبي السعود: (٧/ ١٩٧)،=

والفرق بين القولين أن الأول يتّجه إلى الخصوص، بينما يتجه القول الثاني إلى العموم.

وهذا القول الذي يعتمد التعميم هو الذي يترجّح ـ والعلم عند الله تعالى ـ إذ أن وصف القلب بالسلامة في الآيتين مطلق لا قيد فيه، فيبقى على إطلاقه، ليشمل البراءة من أمراض القلب المتعلقة بالشكوك الكفرية، والآفات الشركية، كما يشمل الطهارة مما دون ذلك من الأمراض والنقائص التي تعتري القلب، كالكبر والحسد وشهوة المعصية والفجور.

ولذا قال الزمخشري: (ولا معنى للتخصيص، لأنه مطلق، فليس بعض الآفات أولى من بعض، فيتناولها كلها)[1]، وكذا قال أبو حيان.[2]

ونقل القرطبي قول الضحاك في تفسير القلب السليم بالخالص[3] ثم قال: (وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه، وهو حسن، أي الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتصف بالأوصاف الجميلة، والله أعلم).[4]

---

= روح المعاني: (٢٣/ ١٠٠)، الشفا: (٢/ ٤٦٨)، شجرة المعارف والأحوال: (ص: ٨٠)، وانظر: قول عروة بن الزبير في تأويل الآية في تفسير الطبري: (٢٣/ ٧٠)، تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٨٤)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٤٧٨)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٦٢)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٢).

(١) تفسير الزمخشري: (٤ / ٥٠).

(٢) تفسير البحر المحيط: (٧/ ٣٦٥)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ١٤٦).

(٣) روى ابن جرير عن الضحاك في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: هو الخالص. تفسير الطبري: (١٩/ ٨٧).

(٤) تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨).



ومع أن سلامة القلب من الكفر والشرك تأتي في المقام الأول، وهي الأعظم والأهمّ، لكن لفظ (القلب السليم) في معناه العام يراد به السالم الذي ثبتت له صفة السلامة[1]، ويقابله القلب المريض الذي أصابه السقم واجتاحته العلل، وتلك دائرة واسعة تحتمل الكفر، كما تحتمل ما دون ذلك من العلل والأدواء.

ولذا قال ابن العربي تعليقًا على القول بالتخصيص: (والذي عندي أنه لا يكون القلب سليمًا إذا كان حقودًا حسودًا معجبًا متكبرًا).[2]

يقول ابن القيم: (اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله ﷺ)[3] ثم قال في نهاية كلامه: (وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص، وهوى يعارض الاتباع، فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة).[4]

هذا القول بالتعميم في معنى القلب السليم غير متعارض مع المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان: (١/ ٤١).

(٢) أحكام القرآن: (٣/ ١٤٣٧).

(٣) إغاثة اللهفان: (١/ ٤١)، وانظر: مدارج السالكين: (٢/ ٦٠، ٣/ ٣٨١).

(٤) إغاثة اللهفان: (١/ ٤٣)، وانظر: الروح: (ص: ٣٠٢).

بـ (شهادة أن لا إله إلا الله)، إذ أن القلب حين يتألّه الله جل شأنه، ويعبده ويتوجه إليه وحده لا شريك له، فإن ذلك يستلزم سلامته من إرادة ما يبغضه سبحانه من سائر الآثام والذنوب.

ولذا قال ابن تيمية في معنى القلب السليم: (هو سلامة القلب من الاعتقادات الفاسدة، والإرادات الفاسدة، وما يتبع ذلك).[1]

ولشدّة حاجة المؤمن إلى سلامة القلب كان من دعاء رسول الله ﷺ الذي علمه أصحابه رضوان الله عليهم سؤال الله جل وعلا: [قلبًا سليمًا ولسانًا صادقًا].[2]

قال ابن رجب في بيان المقصود من سلامة القلب في الحديث: (القلب السليم هو السالم من الآفات والمكروهات كلها، وهو القلب الذي ليس فيه سوى محبة الله وما يحبه الله، وخشية الله، وخشية ما يباعد منه).[3]

وقال المناوي: (أي خاليًا من العقائد الفاسدة والميل إلى اللذات والشهوات العاجلة، ويتبع ذلك الأعمال الصالحة، إذ من علامة سلامة

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٣٣٧).

(٢) رواه الترمذي من حديث شداد بن أوس ﷺ في كتاب الدعوات، باب ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام: (٥/ ٤٧٦)، والنسائي ـ واللفظ له ـ في كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر: (٣/ ٥٤)، وأحمد في المسند: (٤/ ١٢٣)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٦٨٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٤٨١).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١١).



القلب تأثيرها في الجوارح).[1]

وقال الشوكاني: (أي غير عليل بكدر المعصية، ولا مريض بالاشتمال على الغل، والانطواء على الإحن[2]).[3]

وكلام هؤلاء الأئمة في تفسير القلب السليم هنا يعمّ الوجهين المذكورين في تفسير القلب السليم في الآيتين الكريمتين، أي صفاء القلب من الشرك، ونقاؤه مما دون ذلك مما يبغضه الله ولا يرضاه جل شأنه.

وقد وصف رسول الله ﷺ قلب المؤمن بأنه: [قلب أجرد] وهو وصف قريب الصلة بوصف السلامة.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه مثل السراج يزهر] وفيه: [فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراجه فيه نوره].[4]

(١) فيض القدير: (٢/ ١٣١).

(٢) الإحن: بكسر الهمزة وفتح الحاء: الأحقاد، جمع إحنة بكسر الهمزة وسكون الحاء. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٧).

(٣) نيل الأوطار: (٢/ ٣٣٣).

(٤) رواه أحمد في المسند: (٣/ ١٧)، قال ابن كثير في تفسيره: (١/ ٥٧) (هذا إسناد جيد حسن)، وانظر: (٣/ ٢٩٣)، وجوّد السيوطي إسناده كذلك في الدر المنثور: (١/ ٢١٥)، ورواه الطبراني كما في مجمع الزوائد: (١/ ٢٣١)، قال الهيثمي: (وفي إسناده ليث بن أبي سُليم) قال العراقي: (مختلف فيه)، المغني: الإحياء: (١/ ١٧٣)، وضعفه الألباني مرفوعًا، إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨) (الهامش)، وصححه من حديث حذيفة ﷺ بنحوه موقوفًا عليه، وحديث حذيفة رواه ابن جرير في تفسيره: (١/ ٤٠٦)، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٢٠٥)، وأبو نعيم في الحلية: (١/ ٢٧٦)، وغيرهم. انظر: الدر المنثور: (١/ ٢١٤)، وصححه ابن القيم في إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨).

قال ابن الأثير: (أي ليس فيه غل ولا غش، فهو على أصل الفطرة، فنور الإيمان فيه يزهر).[1]

**ففي الحديث الشريف دلالة على أمرين متعلقين بقلب المؤمن:**

**أولهما**: التجرد، وهذا اللفظ في أصله اللغوي يدل على تخلية[2]، لكنها في الاتجاه الإيجابي الممدوح، إذ هي تخلية عن الشر، وتجرد عن الباطل، والمقصود سلامة القلب من الشبهات المضللة، والشهوات المفسدة.

**وثانيهما**: الإزهار، وهو لفظ يدل أصله في اللغة على الحسن والضياء والصفاء[3]، كما أن لفظ السراج يتضمن أيضًا معنى الحسن والضياء والزينة والجمال[4]، والمراد استنارة القلب بما يستقر فيه من قوة الإيمان وصدق اليقين، وهو المعبّر عنه في الحديث بالسراج.[5]

يقول ابن القيم: (قوله [قلب أجرد] أي متجرد عما سوى الله ورسوله، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق، [فيه سراج يزهر] وهو مصباح الإيمان: فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي، وبحصول

(١) النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٥٦).

(٢) قال أهل اللغة: ارض جرداء أي لا نبات فيها ولا يسترها شيء، وتجرد عن الثياب: تعرّى عنها. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٦٥)، ترتيب القاموس: (١/ ٤٧٠).

(٣) انظر: مقاييس اللغة: (٤٤١).

(٤) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٩٣).

(٥) انظر: نوادر الأصول: (١/ ٢٧٦).



السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان).[1]

هذا القلب المتّسم بالسلامة والتجرد والنقاء يؤهل صاحبه لشرف المنزلة وعلو المكانة والمرتبة.

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: [قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: [كل مخموم القلب، صدوق اللسان] قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: [هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد].[2]

وتفسير رسول الله ﷺ للقلب المخموم[3] واضح بيّن، يقرر معنى القلب الأجرد ويؤكده ويزيده كشفًا وبيانًا.

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨).

(٢) رواه ابن ماجة في كتاب الزهد، باب الورع والتقوى: (٢/ ١٤٠٩ – ١٤١٠)، وأبو نعيم في الحلية: (١/ ١٨٣)، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب: (٣/ ٥٥١)، والألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٣٧).

(٣) أصل الخمّ التنقية، والمخموم الذي حصل له ذلك، ولذا يقال خمّ البيت: أي كنسه. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٢٨٧)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ١١١)، غريب الحديث لابن قتيبة: (٣/ ٧٣٠)، شرح السيوطي على ابن ماجة: (١/ ٣١١).

## المبحث الثاني

## القلوب المطمئنة

الطمأنينة والاطمئنان مصدران للفعل: اطمأن.

يقال: اطمأن الرجل أي سكن، وطمأنته: أي سكّنته، واطمأنت الأرض: أي انخفضت.(١)

قال الراغب: (الطمأنينة والاطمئنان: السكون بعد الانزعاج).(٢)

ومن ثَمّ فإن اطمئنان القلوب يعني سكونها، وسلامتها من الاضطراب.

قال ابن القيم: (الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه).(٣)

**وقد أسند الاطمئنان إلى القلوب في عدة مواضع من كتاب الله العزيز.**

١. يقول الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

تقرر الآية الكريمة أن الطمأنينة تحصل للمؤمنين بسبب ذكر الله

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٥٩٩)، لسان العرب: (٤/ ٢٧٠٧).

(٢) المفردات: (ص: ٣١٠)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٥١٦).

(٣) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٤)، وانظر: الآداب الشرعية: (٣/ ١١٣).

سبحانه، فتسكن قلوبهم وترضى، وتستأنس وتسرّ، بما يستقر فيها من الإيمان، ويثبت من اليقين، وفي المقابل ينتفي عنها القلق، ويزول الاضطراب.[1]

عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: (سكنت إلى ذكر الله واستأنست به).[2]

يقول الألوسي: (إن سبب الطمأنينة نور يفيضه الله تعالى على قلوب المؤمنين بسبب ذكره، فيذهب ما فيها من القلق والوحشة ونحو ذلك).[3]

ولا ريب أن المؤمن كلما كان متصلًا بذكر الله تعالى، متعلقًا بكلامه جل وعلا، متأثرًا بما يتضمنه من الهدى، فإنه يصل في منزلة الطمأنينة إلى مرتبة عالية[4]، يجد فيها قلبه راحة وسكونًا، وأنسًا وسرورًا، إذ القلوب مفطورة على (أنه ليس في محبوباتها ومرادها ما تطمئن إليه إلا الله وحده).[5]

**وفي المراد بذكر الله في الآية عبارات للمفسرين مرجعها إلى قولين[6]:**

(١) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٢٢٦)، تفسير السمعاني: (٣/ ٩٢)، تفسير البغوي: (٣/ ١٧)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣١١)، تفسير النسفي: (٢/ ١٤٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥١٢).

(٢) تفسير الطبري: (١٣/ ١٤٥)، الدر المنثور: (٤/ ٦٤٢).

(٣) روح المعاني: (١٣/ ١٥٠).

(٤) انظر درجات الطمأنينة في مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٧ – ٤١١).

(٥) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٢)، وانظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ٦١)، الروح: (ص: ٢٧٥ – ٢٧٨).

(٦) ذكرهما ابن الجوزي في زاد المسير: (٤/ ٢٤١)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٢/ ٤٩٧)، تفسير القرطبي: (٩/ ٢٠٧)، روح المعاني: (١٣/ ١٤٩).



**الأول**: أن المراد ذكر الله مطلقًا.[1]

**الثاني**: أن المراد بالذكر هنا القرآن.[2]

والقول الأول يشمل الثاني ويتضمنه، إذ القرآن أفضل الذكر وأعلاه.

لكن ابن القيم اختار القول الثاني فقال: (وفي ذكر الله ها هنا قولان:

**أحدهما**: أنه ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله.

**والقول الثاني**: أن ذكر الله ههنا القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله، وبه طمأنينة قلوب المؤمنين، فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به، وهذا القول هو المختار).[3]

وقد تكرر الفعل (تطمئن) مسندًا إلى القلوب في الآية الكريمة ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ تأكيدًا لمضمونها، وحضًا على الإيمان،

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٣/ ١٤٥)، تفسير الواحدي: (١/ ٥٧٢)، تفسير السمعاني: (٣/ ٩٢)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣١١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥١٢).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ١٧)، تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٠)، روح المعاني: (١٣/ ١٤٩)، تفسير ابن عاشور: (١٣/ ١٣٧).

(٣) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٥) مختصرًا.

وحثًا على ذكر الله تعالى.

قال ابن عاشور: (واختير المضارع في ﴿تَطْمَئِنُّ﴾ مرتين للدلالة على تجدد الاطمئنان واستمراره، وأنه لا يتخلله شك ولا تردد).[1]

٢. يقول الله جل وعلا:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

٣. ويقول تبارك وتعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

والآيتان الكريمتان في قصة بدر[2]، حين أمدّ الله تعالى رسوله ﷺ بجند من الملائكة عليهم السلام.

والضمير في قوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ يعود إلى ذلك الإمداد الإلهي.[3]

---

(١) تفسير ابن عاشور: (١٣/ ١٣٨)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٠)، روح المعاني: (١٣/ ١٤٩)، تفسير القاسمي: (٩/ ٣٦٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٤/ ٧٦)، زاد المسير: (٢/ ٢٤)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٠١)، دلائل النبوة: (٣/ ٧٩ - ٨١)، السيرة النبوية لابن هشام: (٢/ ٢٠٧).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٣)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ١٣٤)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٣٤)، تفسير الزمخشري: (١/ ٤٤٠، ٢/ ١٩٢)، تفسير الفخر الرازي: (٨/ ٢٣٠)، زاد المسير: (٢/ ٢٦)، نظم الدرر: (٢/ ١٥٠).



**والمراد أن الله تبارك وتعالى جعل إمداد عباده المؤمنين بالملائكة لأجل أمرين:**

**أولهما**: البشارة للمؤمنين بنصر الله جل شأنه.

**والثاني**: تحقيق الطمأنينة في قلوب المؤمنين، فتستقر وتقوى، وتطيب وتسكن إلى وعد الله سبحانه، وتوقن به فتثبت، وينتفي عنها الجزع والفزع من عدوها وعدده وعدّته.[1]

وكما طمأن الله قلوب المؤمنين، فقد ألقى جل شأنه الرعب في قلوب أعدائهم من المشركين واليهود.

يقول الله سبحانه:

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

والآيتان في المشركين، الأولى منهما في شأنهم يوم بدر.[2]

والثانية في حالهم بعد غزوة أحد.[3]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٤/ ٨٤، ٩/ ١٩٢ - ١٩٣)، تفسير السمرقندي: (١/ ٢٦٩، ٢/ ١٠)، تفسير السمعاني: (٢/ ٢٥١)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥٠٥)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٠٢)، نظم الدرر: (٣/ ١٩١)، إملاء ما منّ به الرحمن: (١/ ١٤٩)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٨٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٩٧ - ١٩٨)، زاد المسير: (٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤)، دلائل النبوة: (٣/ ٨٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٤/ ١٢٤)، زاد المسير: (٢/ ٣٩)، فتح القدير: (١/ ٣٩٣)، دلائل النبوة: (٣/ ٣١٢ - ٣١٧)، أسباب النزول: (ص: ١٠٦ - ١٠٧).

ويقول عز وجل:

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢].

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وهاتان الآيتان في شأن اليهود، الأولى منهما في يهود بني النضير[1]، والثانية في يهود بني قريظة.[2]

والرعب هو شدة الخوف.[3]

قال الراغب: (الرعب: الانقطاع من امتلاء الخوف).[4]

والمراد أن الله تعالى ملأ قلوبهم فرقًا وفزعًا.

وقد عبرت بعض هذه الآيات بإلقاء الرعب، وبعضها الآخر بقذف

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٨/ ٢٧ - ٢٩)، زاد المسير: (٧/ ٣٣١ - ٣٣٢)، فتح القدير: (٥/ ٢٠١-٢٠٢)، دلائل النبوة: (٣/ ٣٥٤ - ٣٥٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢١/ ١٥٠ - ١٥٤)، زاد المسير: (٦/ ١٩٣ - ١٩٤)، فتح القدير: (٤/ ٢٧٤-٢٧٥)، دلائل النبوة: (٤/ ٩ - ١٥).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٣٣)، لسان العرب: (٣/ ١٦٦٧)، تفسير الطبري: (٤/ ١٢٤).

(٤) المفردات: (ص: ٣٠٢)، وانظر: مقاييس اللغة: (ص: ٣٨٩ - ٣٩٠)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٨٦).



الرعب، والمعنى متقارب، والمقصود إثبات الخوف في القلوب.[1]

٤. يقول الله جل وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

والآية الكريمة تذكر أن نبي الله إبراهيم ﷺ طلب من ربه ﷻ تمكينه من رؤية كيفية إحياء الموتى، وأنه عليه السلام علل ذلك الطلب بتحقيق الاطمئنان القلبي.

فهل كان إبراهيم عليه السلام في حال شك حتى يبحث عن اليقين المستلزم للاطمئنان؟

والجواب بلا ريب أن الخليل عليه السلام لم يكن شاكًا، بل كان موقنًا بقدرة الله سبحانه على كل شيء، ومن ذلك إحياء الموتى.

لكنه ﷺ كان يرغب في زيادة الإيمان واليقين وسكون القلب، وذلك بالرؤية المباشرة، فينتقل من علم اليقين بالخبر والاستدلال، إلى عين اليقين[2] بالمعاينة والشهود، والنفوس تتطلع ـ عادة ـ إلى مشاهدة ما يرِدُها عن طريق

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٩٨، ٢١/ ١٥٤)، زاد المسير: (٢/ ٣٩)، نظم الدرر: (٧/ ٥١٢)، فتح القدير: (٥/ ٢٠٢).

(٢) انظر في علم اليقين وعين اليقين: التعريفات للمناوي: (ص: ٢٠١، ٢٠٦)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ٦٤٥-٦٤٦)، مدارج السالكين: (١/ ٣٥٩).

الخبر والسماع[1]، وحينئذ يكون تصور المخبر به أقوى، والتصديق به أعظم وأكمل.[2]

عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: (لأزداد إيمانا مع إيماني).[3]

---

(١) انظر: تفسير السمعاني: (١/ ٢٦٦)، تفسير ابن عطية: (١/ ٣٥٢)، الشفا: (٢/ ٤٥٩ - ٤٦٠)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣١٥)، نظم الدرر: (١/ ٥١٣)، تفسير المنار: (٣/ ٥٣ - ٥٤)، تفسير القاسمي: (٣/ ٣٣١)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٨٤)، شرح سنن ابن ماجة: (١/ ٢٩١).

وقد رجح ابن جرير أن سؤال إبراهيم عليه السلام مبني على شك سببه عارض شيطاني لم يستقر ولم يؤثر في ثبات الإيمان، فسأل رؤية كيفية الإحياء لإزالة ذلك الإلقاء الشيطاني.

انظر: تفسير الطبري: (٣/ ٤٩ - ٥٠).

وقد ردّ عليه ابن عطية بقوله: (وما ترجم به الطبري عندي مردود، وما أدخل تحت الترجمة متأوّل) وأثناء تفصيل الرد قال: (فالشك يبعد على من تثبت قدمه في الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة والخلّة، والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعًا) انظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٣٥٢ - ٣٥٣).

ونقل القرطبي رد ابن عطية ثم قال: (هذا ما ذكره ابن عطية، وهو بالغ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث، وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل..) انظر: تفسير القرطبي: (١٩٣ - ١٩٥)، تفسير القاسمي: (٣/ ٣٣٢ - ٣٣٤).

(٢) انظر: الإيمان: (ص: ٢٢١ - ٢٢٢)، شرح الطحاوية: (ص: ٣١٢ - ٣١٣).

(٣) تفسير الطبري: (٣/ ٥١)، شعب الإيمان: (١/ ٧٩)، الدر المنثور: (٢/ ٣٤)، فتح الباري: (١/ ٩٦).



وعن قتادة قال: (أراد نبي الله إبراهيم: ليزداد يقينا إلى يقينه).[1]

ونحو ذلك عن الربيع بن أنس والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم.[2]

وعن الحسن قال: (إن كان إبراهيم لموقنًا أن الله يحي الموتى، ولكن لا يكون الخبر كالعيان).[3]

قال ابن قتيبة: (تأويل قول إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي يطمئن بيقين النظر، واليقين جنسان: أحدهما يقين السمع، والآخر يقين البصر، ويقين البصر أعلى اليقينين، فأراد إبراهيم عليه السلام أن يطمئن قلبه بالنظر الذي هو أعلى اليقينين).[4]

قال البغوي: (﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي ليسكن قلبي إلى المعاينة والمشاهدة).[5]

وقال ابن حجر: (أي ليزيد سكونًا بالمشاهدة المنضمة إلى اعتقاد القلب، لأن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب، وكأنه قال: أنا مصدق، ولكن

---

(١) تفسير الطبري: (٣/ ٥٠)، تفسير الصنعاني: (١/ ١٠٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ٥٠ - ٥١)، تفسير ابن أبي حاتم: (٢/ ٥٠٩ - ٥١٠)، شعب الإيمان: (١/ ٧٩)، تفسير السمعاني: (١/ ٢٦٦)، تفسير القرطبي: (٣/ ١٩٣، ١٩٥)، فتح الباري: (١/ ٩٦).

(٣) الدر المنثور: (٢/ ٣٦)، وانظر: تاريخ دمشق: (٦/ ٢٣٢).

(٤) تأويل مختلف الحديث: (ص: ٩٧ - ٩٨) (مع حذف يسير).

(٥) تفسير البغوي: (١/ ٢٤٧)، وانظر: (١/ ٢٤٨).

للعيان لطيف معنى).[1]

وقال القرطبي: (إنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها، وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين).[2]

وقال ابن القيم: (طلب إبراهيم عليه السلام أن يكون اليقين عيانًا، والمعلوم مشاهدًا).[3]

وفي الآية الكريمة ما يدلّ على أن طلبه عليه الصلاة والسلام لم يصدر عن شك.

من ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فإن السؤال لم يكن عن ذات الإحياء، وإنما عن كيفيته.[4]

قال ابن عطية: (وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكًا، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول، وكيف في هذه الآية إنما هو استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر).[5]

---

(١) فتح الباري: (١٣/ ١٥٩).

(٢) تفسير القرطبي: (٣/ ١٩٥).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٣٥٨)، وانظر: الداء والدواء: (ص: ١٠٨ – ١٠٩).

(٤) انظر: زاد المسير: (١/ ٢٧٣)، نظم الدرر: (١/ ٥٠٩).

(٥) تفسير ابن عطية: (١/ ٣٥٣) (مع حذف يسير)، وانظر: (فتح الباري: (١٣/ ١٥٩).



وأيضًا فإن الاستفهام التقريري في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ينفي الشك عن إبراهيم عليه السلام، والمعنى: لم تسأل والحال أنك مؤمن بالله تعالى، مصدق بقدرته على الإحياء.

قال البغوي: (معناه قد آمنت فلم تسأل، شهد له بالإيمان).[1]

والمقصود تقرير أن طلب الخليل عليه السلام من ربه سبحانه رؤية كيفية إحياء الموتى لا يقتضي أن يسبق ذلك منه نقص في الاطمئنان أو ضعف في اليقين.[2]

وأما حديث رسول الله ﷺ: [نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾][3]، فإنه لا يثبت الشك لإبراهيم عليه السلام، بل ينفيه عنه.[4]

قال ابن قتيبة: (قال رسول الله ﷺ: أنا أحق بالشك من أبي إبراهيم عليه السلام تواضعًا منه، وتقديمًا لإبراهيم على نفسه، يريد أنا لم نشك ونحن دونه، فكيف يشك هو).[5]

---

(١) تفسير البغوي: (١/ ٢٤٨)، وانظر: تفسير السمعاني: (١/ ٢٦٥)، تفسير القرطبي: (١٣/ ١٩٥)، فتح الباري: (١٣/ ١٥٩).

(٢) انظر: اختلاف المفسرين: (ص: ٣٠٠ – ٣٠١).

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب التفسير. باب ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: (٤/ ١٦٥٠)، ومسلم في كتاب الإيمان. باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة: (١/ ١٣٣).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٢٤٨)، تفسير ابن عطية: (١/ ٣٥٢)، الشفا: (٢/ ٤٦٠)، نظم الدرر: (١/ ٥١٣ – ٥١٤).

(٥) تأويل مختلف الحديث: (ص: ٩٧).

وقال النووي: (اختلف العلماء في معنى [نحن أحق بالشك من إبراهيم] على أقوال كثيرة، أحسنها وأصحها ما قاله أبو إبراهيم المزني[1] صاحب الشافعي وجماعات من العلماء: معناه أن الشك مستحيل في حق إبراهيم، فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقًا إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به من إبراهيم، وقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أن إبراهيم عليه السلام لم يشك).[2]

(١) هو إسماعيل بن يحي بن إسماعيل، أبو إبراهيم المزني، بضم الميم وفتح الزاي، نسبة إلى قبيلة مزينة، من أهل مصر، إمام علامة، قوي الحجة، صاحب ورع وتعبّد وزهد، رأس في الفقه، ثقة في الحديث، تلميذ الإمام الشافعي وناشر مذهبه، من مصنفاته: المختصر، والجامع الكبير، توفي سنة أربع وستين ومائتين.
انظر: وفيات الأعيان: (١/ ٢١٧ – ٢١٩)، سير أعلام النبلاء: (١/ ١١٣٣ – ١١٣٤).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٨٣) قال: (وإنما خصّ إبراهيم عليه السلام لكون الآية قد يسبق إلى بعض الأذهان الفاسدة منها احتمال الشك، وإنما رجّح إبراهيم على نفسه عليه السلام تواضعًا وأدبًا، أو قبل أن يعلم عليه السلام أنه خير ولد آدم) وانظر: فتح الباري: (١٣/ ١٥٨ – ١٥٩)، عمدة القاري: (١٨/ ١٢٨ – ١٢٩)، مدارج السالكين: (١/ ٣٥٨)، وقد أورد النووي قولًا آخر في معنى الحديث: (أن هذا الذي تظنونه شكًا أنا أولى به، فإنه ليس بشك وإنما هو طلب لمزيد اليقين).
شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٨٣)، وانظر: فتح الباري: (١٣/ ١٥)، عمدة القاري: (١٥/ ٢٦٧).
قال ابن كثير: (ليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف) تفسير ابن كثير: (١/ ٣١٥).
واعتبر بعض أهل العلم أن لفظ الشك الوارد في الحديث لا يراد به المعنى المعروف القادح في اليقين، وإنما عُبّر بالشك عما هو دون مرتبة العيان والمشاهدة. انظر: مدارج السالكين: (١/ ٣٥٨).
قال ابن القيم: (طلب ـ أي إبراهيم عليه السلام ـ الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى إلى رؤية تحقيقه عيانًا، فطلب ـ بعد حصول العلم الذهني ـ تحقيق الوجود الخارجي، فإن رؤية ذلك أبلغ في طمأنينة القلب، ولما كان بين العلم والعيان منزلة أخرى، قال النبي عليه السلام: [نحن أحق بالشك من إبراهيم] إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وإبراهيم لم يشك عليه السلام، ورسول الله عليه السلام لم يشك، ولكن أوقع اسم الشك على المرتبة العلمية باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مرتبة العيان في الخارج). مدارج السالكين: (٣/ ٢٩٧)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٥/ ١٧٨، ٢٣/ ١١).



٥. يقول الله عز وجل:

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة: ١١٣].

والآية في سياق خبر نبي الله عيسى عليه السلام، حين طلب منه الحواريون[1] أن يسأل الله جل شأنه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، ولما عاتبهم عليه السلام على هذا المطلب أجابوه مبينين له مقاصدهم منه، وهو ما تضمنته هذه الآية الكريمة، ومن ذلك اطمئنان القلوب ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾.

والظاهر ـ كما ذكر كثير من المفسرين ـ أن سؤالهم هذا لم يكن على سبيل التعنت في طلب الآيات، ولا إنكارًا منهم لقدرة الله تبارك وتعالى، أو شكا في نبوة عيسى عليه السلام، بل كانوا مؤمنين بالله سبحانه وبرسوله عليه السلام.[2]

قال البغوي: (لم يكونوا شاكين بقدرة الله عز وجل).[3]

(١) هم أنصار عيسى عليه السلام، جمع حواري، وهو لفظ يطلق على الصديق والناصر. انظر: المفردات: (ص: ١٤٢)، المشوف المعلم: (١/ ٢٢١)، الصحاح: (٢/ ٦٣٩)، قال السجستاني: (الحواريون صفوة الأنبياء عليهم السلام الذين خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم ونصرتهم). غريب القرآن: (ص: ١٨٥)، وانظر: تفسير المنار: (٧/ ٢٤٨ – ٢٤٩).

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٢٠ – ٢٢١)، تفسير الواحدي: (١/ ٣٤١ – ٣٤٢)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٥٩ – ٢٦٠)، زاد المسير: (٢/ ٣٣٨ – ٣٤٠)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٥٣)، تفسير القاسمي: (٦/ ٤٢٨ – ٤٢٩)، تفسير المنار: (٧/ ٢٥٠ – ٢٥٢)، تفسير السعدي: (١/ ٥٢٩ – ٥٣٠).

(٣) تفسير البغوي: (٢/ ٧٧)، وانظر: فتح الرحمن: (ص: ٩٠ـ ٩١)، تفسير ابن عاشور: (٦/ ١٠٥).

وعلى هذا فالمراد باطمئنان القلوب الذي قصدوا إليه هو زيادة إيمانها، وقوة يقينها، المستتبع لزيادة سكونها وثباتها وطمأنينتها.[1]

قال أبو السعود في تفسير الآية: (﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بكمال قدرته تعالى، وإن كنا مؤمنين به قبل، فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالي مما يوجب ازدياد الطمأنينة، وقوة اليقين).[2]

وذكر القاسمي: (أن الحواريين كانوا مؤمنين عارفين بالله ﷻ، معترفين بكمال قدرته، وسؤالهم ليس لإزاحة شك، بل ليحصل لهم مزيد الطمأنينة، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ولا شك أن مشاهدة هذه الآية العظيمة تورث مزيد الطمأنينة في القلب، ولهذا السبب قالوا: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾).[3]

٦. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠٦].

(١) انظر: تفسير الواحدي: (١/ ٣٤٢)، تفسير السمعاني: (٢/ ٨٠)، تفسير البغوي: (٢/ ٧٨)، تفسير النسفي: (١/ ٤٤٩).

(٢) تفسير أبي السعود: (٣/ ٩٧)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٦٠)، التسهيل: (١/ ١٩٤)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٥٥)، تفسير البيضاوي: (١/ ٢٨٩)، تفسير المنار: (٧/ ٢٥٢).

(٣) تفسير القاسمي: (٦/ ٤٢٩)، وانظر: تفسير السعدي: (١/ ٥٣٠).



تتضمن الآية الكريمة الوعيد الشديد لمن اختار الكفر بعد الإيمان، فارتد عن دين الله تعالى، وتستثني من ذلك من نطق بالكفر مكرها، دون إرادة منه أو اختيار.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية الكريمة قال: (أخبر الله سبحانه أنه من كفر من بعد إيمانه، فعليه غضب من الله، وله عذاب عظيم، فأما من أكره فتكلم به لسانه، وخالفه قلبه بالإيمان، لينجو بذلك من عدوه، فلا حرج عليه، لأن الله سبحانه إنما يأخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم).[1]

يقول ابن العربي: (الكافر المرتد هو الذي جرى بالكفر لسانه، مخبرًا عما انشرح به من الكفر صدره، فعليه من الله الغضب، وله العذاب الأليم، إلا من أكره، فمن تكلم بالكفر لسانه عن إكراه، ولم يعقد على ذلك قلبه، فإنه خارج عن هذا الحكم، معذور في الدنيا، مغفور له في الأخرى).[2]

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه.[3]

(١) تفسير الطبري: (١٤/ ١٨٢)، السنن الكبرى للبيهقي: (٨/ ٢٠٨)، الدر المنثور: (٥/ ١٧١).

(٢) أحكام القرآن: (٣/ ١١٧٧) (مع حذف يسير)، وانظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٨٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٨٧)، فتح الباري: (٢٦/ ١٥٠).

والاسم الموصول في أول الآية ﴿ مَن ﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، والاستثناء على هذا مقدّم. انظر: إملاء ما من به الرحمن: (ص: ٨٦)، تفسير الطبري: (١٤/ ١٨٠ - ١٨١)، روح المعاني: (١٤/ ٢٣٥)، تفسير ابن عاشور: (١٤/ ٨٩٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٨١ - ١٨٢)، تفسير السمعاني: (٣/ ٢٠٤)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٢٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٨٧)، نظم الدرر: (٤/ ٣١٤)، الدر المنثور: (٥/ ١٦٩ - ١٧١)، لباب النقول: (ص: ١٣٤).

قال أبو جعفر النحاس: (أهل التفسير على أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر ﷺ).[1]

وذلك حين أخذه المشركون: (فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، ثم تركوه، فلما أتى رسول الله ﷺ قال: [ما وراءك؟] قال: شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. قال: [كيف تجد قلبك] قال: مطمئنًا بالإيمان. قال: [إن عادوا فعد].[2]

هذه الآية الكريمة وإن نزلت في سبب خاص لكن لفظها يعمّ.[3]

يقول ابن العربي: (أما الكفر بالله فذلك جائز له ـ أي للمكره ـ بغير خلاف، على شرط أن يلفظ بلسانه وقلبه منشرح بالإيمان، فإن ساعد قلبه

(١) معاني القرآن: (٤/ ١٠٧)، وبمثله قال ابن عبد البر في الاستيعاب: (٣/ ١١٣٦)، وابن حجر في الإصابة: (٤/ ٤٧٤)، وانظر: تفسير القرطبي: (١٠/ ١١٨ – ١١٩)، فتح الباري: (٢٦/ ١٥٠).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى: (٨/ ٢٠٨)، من رواية أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه، والحاكم في المستدرك: (٢/ ٣٨٩) وصححه، ووافقه الذهبي.

قال ابن حجر: (إسناده صحيح إن كان محمد بن عمار سمعه من أبيه) الدراية في تخريج أحاديث الهداية: (٢/ ١٩٧)، وقال في الفتح: (٢٦/ ١٥٠) (هو مرسل ورجاله ثقات) وبعد أن ذكر عدة روايات قال: (وهذه المراسيل تقوى بعضها ببعض)، وانظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٨٢)، تفسير الصنعاني: (٢/ ٣٦٠)، طبقات ابن سعد: (٣/ ٢٤٩ – ٢٥٠)، حلية الأولياء: (١/ ١٤٠).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٢٢).



في الكفر لسانه كان آثمًا كافرًا، لأن الإكراه لا سلطان له في الباطن، وإنما سلطته على الظاهر).[1]

والمراد باطمئنان القلب في الآية الكريمة سكونه إلى الإيمان، وثباته عليه، ورضاه به.[2]

قال الألوسي: (والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته، وأصل معنى الاطمئنان سكون بعد انزعاج، والمراد هنا السكون والثبات على ما كان عليه بعد إزعاج الإكراه).[3]

**ومن الألفاظ المقاربة للطمأنينة لفظ السكينة.**

والسكينة في الأصل من السكون، وهو الثبوت بعد الحركة، وكل ما قَرّ وهدأ فقد سكن، ومنه السكينة بمعنى الوقار.

والسكينة: الطمأنينة التي تسكن بها القلوب وتستقر.[4]

يقول ابن القيم في بيان معنى السكينة: (أصل السكينة: هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة

(١) أحكام القرآن: (٣/ ١١٧٨)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٨٦) تفسير القرطبي: (١٠/ ١١٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٨٢)، زاد المسير: (٤/ ٣٦٢)، تفسير النسفي: (٢/ ٢٢٨)، تفسير أبي السعود: (٥/ ١٤٣).

(٣) روح المعاني: (١٤/ ٢٣٦)، وانظر: التعاريف للمناوي: (ص: ٣٨٥).

(٤) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٦٤)، المفردات: (ص: ٢٤٢)، الفائق: (١/ ٥٦)، لسان العرب: (٣/ ٢٠٥٢ – ٢٠٥٣)، التعريفات: (ص: ١٥٩).

المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات).[1]

فالسكينة والطمأنينة متقاربان ومتلازمان من حيث المعنى، وإن كانت الطمأنينة أعم.

قال ابن القيم: (الطمأنينة موجب السكينة، وأثر من آثارها، وكأنها نهاية السكينة).[2]

(وكل منهما يستلزم الآخر ويقارنه، فالطمأنينة تستلزم السكينة ولا تفارقها، وكذلك بالعكس، لكن استلزام الطمأنينة للسكينة أقوى من استلزام السكينة للطمأنينة).[3]

**وقد ذكر صاحب المنازل[4] وصاحب المدارج عددًا من الفوارق بين الطمأنينة والسكينة[5]، ومن ذلك:**

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٩٧)، وانظر: (٢/ ٤٠٠ – ٤٠١)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٢٣٧ – ٢٣٨).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٦)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (١٦/ ٢٢).

(٣) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٧)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٥١٧).

(٤) هو عبد الله بن محمد بن علي، أبو إسماعيل الأنصاري الهروي، إمام قدوة حافظ، شيخ الإسلام، من ذرية أبي أيوب الأنصاري ﷺ، بارع في اللغة، آية في الوعظ، متمكن في التفسير، ناصر للسنة، من مصنفاته: منازل السائرين، توفي سنة إحدى وثمانين وأربع مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٥٠٧– ٢٥١١)، البداية والنهاية: (١٢/ ١٦٦).

(٥) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٦ – ٤٠٧).



أ – أن السكينة ثبات للقلب في أحوال الخوف والاضطراب، بسكونه وزوال قلقه، أما الطمأنينة فليست مرتبطة بحال الخوف فقط.

ب – أن الطمأنينة مقام دائم، أما السكينة فيمكن أن تكون كذلك، ويمكن أن تكون في وقت دون وقت.

ج – أن السكينة سكون للقلب من الانزعاج، يأمن فيه من الخوف، أما الطمأنينة فهي منزلة أعلى يحصل فيها الأنس بالإضافة إلى الأمن، ففيها قدر زائد على مجرد الأمن.

ومن هذه الفوارق يتضح أن الطمأنينة أعم والعلم عند الله تعالى.

وقد امتن الله تبارك وتعالى على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم فقال ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤].

والآية الكريمة في شأن يوم الحديبية[1]، لما صدّ المشركون رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين عن دخول مكة معتمرين، وما تبع ذلك من الصلح المشتمل على بنود كان في ظاهرها هضم لحق المسلمين.

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: (ص: ٤٨١) وما بعدها، والحديبية بضم الحاء وفتح الدال، وبتخفيف الياء وتشديدها، وجهان عند أهل اللغة والحديث. وهي قرية سميت ببئر هناك، بين مكة وجدة، أقرب إلى مكة من جهة الشمال الغربي. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ١١٠ – ١١١).

يخبر الله سبحانه في هذه الآية أنه جل وعلا أنزل السكينة في قلوب المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فثبتت بعد اضطراب، وسكنت بعد انزعاج، واستقرت بعد قلق.

وعامة المفسرين[1] على أن السكينة في الآية بمعنى الطمأنينة والسكون إلى أمر الله ورسوله، فثبت بها الصحابة ﷺ على الإيمان بالله، وسلّموا لقضائه، وانقادوا لحكم رسول الله ﷺ، وهدأت نفوسهم إلى الحق معه عليه الصلاة والسلام.

وكانت ثمرة تلك السكينة زيادة في إيمانهم، ونماء في يقينهم ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

قال الشوكاني: (أي ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيمانًا منضمًا إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل).[2]

يقول السعدي في تفسير الآية: (يخبر تعالى عن منته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٤١٢)، تفسير الطبري: (٢٦/ ٧١)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٢٩٦)، تفسير البغوي: (٤ / ١٨٩)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٣٦)، التسهيل: (٤/ ٥١)، زاد المسير: (٧/ ١٦٢)، تفسير القرطبي: (١٦ / ١٧٥)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٠٧)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٩٠).

(٢) فتح القدير: (٥/ ٤٧)، وانظر: تفسير النسفي: (٣/ ٣٧٦)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٨٤)، تفسير أبي السعود: (٨/ ١٠٥)، روح المعاني: (٢٦/ ٩٢)، تفسير القاسمي: (١٥/ ٦٧).



المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال، أن يثبته، ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات، بقلب ثابت، ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه ويتم إيقانه.

فالصحابة ﷺ لما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين من تلك الشروط، التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها، ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيمانًا مع إيمانهم).[1]

(١) تفسير السعدي: (٥/ ٤٤)، وانظر: نظم الدرر: (٧/ ١٨٨)، في ظلال القرآن: (٦/ ٣٣١٨ - ٣٣١٩).

# المبحث الثالث

## القلوب الوجلة

الوَجَل مصدر للفعل وَجِل، يَوْجَل. ووجل القلوب ما يعتريها من مشاعر الخوف والفزع والفرق.(١)

قال الراغب: (الوجل استشعار الخوف).(٢)

وقد أُسند الوجل إلى القلوب ووصفت به في ثلاث آيات من كتاب الله سبحانه.

آيتان منهما تقرر أن القلوب المؤمنة يصيبها الوجل عند ذكر الله جل وعلا:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[الحج: ٣٤ - ٣٥].

قال المفسرون: أي خافت وفرِقت وفزعت.(٣)

وقد روي هذا التفسير عن عدد من الصحابة والتابعين، كابن عباس رضي الله عنهم، ومجاهد، وقتادة.(٤)

---

(١) انظر: المشوف المعلم: (٢/ ٨١٧)، لسان العرب: (٦/ ٤٧٧٣).

(٢) المفردات: (ص: ٥٢٨)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٤٨)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٨٩).

(٣) انظر: غريب القرآن لليزيدي: (ص: ١٥٧)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٠)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ١٢٩)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٣١)، تفسير الزمخشري: (٢/ ١٨٥)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٥٥).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٧٩)، تفسير ابن أبي حاتم: (٥/ ١٦٥٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٨٥).

وعن السدي قال: (هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهمّ بمعصية، فيقال له: اتق الله، فيجل قلبه).[1]

وكلام السدي هنا في تفسير الآية الكريمة يتضمن أن وجل القلب يكف صاحبه عن الظلم أو المعصية، ومن ثَمّ فإن عبارته تتجه إلى بيان بعض أنواع ذكر الله التي يجل لها القلب، كما أنها تحديد لصورة من صور الأثر العملي لوجل القلب من الرب تبارك وتعالى.

قال القرطبي: (﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت وحذرت مخالفته، فوصفهم بالخوف والوجل عند ذكره، وذلك لقوة يقينهم، ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه).[2]

وقال ابن كثير: (هذه صفة المؤمن، حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي خاف منه، ففعل أوامره وترك زواجره).[3]

وهذا التعريف للوجل بالخوف ـ كما يذكر بعض أهل العلم ـ هو من باب التقارب القوي في المعنى بينهما، وليس من باب الترادف المطلق.

إذ حال الوجل أقوى رتبة، وأعلى درجة، من حال الخوف، ولذا فالوجل أخصّ من الخوف.[4]

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: (٥/ ١٦٥٥)، وانظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٧٩)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٨٥)، الدر المنثور: (٤/ ١٢)، فتح القدير: (٢/ ٢٨٤).

(٢) تفسير القرطبي: (١٢/ ٤٠)، وانظر: (٧/ ٢٣٢)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٢).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٨٥).

(٤) انظر: بصائر ذوي التمييز: (٥/ ١٦٥)، نظم الدرر: (٣/ ١٨٤، ٥/ ١٥٢، ٢٠٩)، تفسير المنار: (٩/ ٥٨٩)، ولذا يرى أبو هلال العسكري أن الوجل يتضمن معنى القلق والاضطراب. انظر: الفروق في اللغة: (ص: ٢٣٨).



ذلك أن الخوف (توقع حلول مكروه أو فوات محبوب)[1] يصاحبه حركة واضطراب في القلب، بينما الوجل (رجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته).[2]

يقول ابن القيم: (الوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة).[3]

ومن ثَمّ فإن القلب الوَجِل هو الذي ينبعث في جوانبه شعور بالخوف من الله جل وعلا يصاحبه نوع ألم وقشعريرة وخفقان.

ولذا روي عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم تشبيه الوجل في قلب المؤمن باحتراق السعفة[4] الذي يصاحبه صوت كالنشيش.[5]

يقول سيد قطب: (إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يُذكَّر بالله في أمر أو نهي، فيغشاه جلاله، وتنتفض فيه مخافته، ويتمثل

---

(١) التعريفات للجرجاني: (ص: ١٣٧)، وانظر: المفردات: (ص: ١٦٦).

(٢) انظر: مدارج السالكين: (١/ ٣٨٨ – ٣٨٩)، بصائر ذوي التمييز: (٥/ ١٦٥).

(٣) شفاء العليل: (ص: ٢٢٦).

(٤) روي ذلك عن أم المؤمنين عائشة وأبي الدرداء وأم الدرداء رضي الله عنهم. انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٧٩)، نوادر الأصول: (١/ ٣٧٩)، شعب الإيمان: (٢/ ٥١)، صفة الصفوة: (٤/ ٢٩٨)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٢٥٠)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٨٥)، الدر المنثور: (٤/ ١١)، فتح القدير: (٢/ ٢٨٣ – ٢٨٤)، روح المعاني: (٩/ ١٦٥).

والسعفة بفتح العين: غصن النخلة إذا يبس. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٥٨)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٦٨).

(٥) انظر: تفسير المنار: (٩/ ٥٨٩)، والنشيش: صوت الماء وغيره عند غليانه. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩٦٢)

عظمة الله ومهابته، إلى جانب تقصيره هو وذنبه، فينبعث إلى العمل والطاعة).[1]

وقد تضمنت الآيتان الكريمتان أن الوجل يصيب قلوب المؤمنين عند ذكر الله جل شأنه.

**وللمفسرين في المراد بذكر الله هنا عبارات متعدّدة.**

فمنهم من ذكر أن المراد التلفظ باسم الله تعالى أو بصفة من صفاته، فيجل القلب تهيبًا وإجلالًا، واستشعارًا لعظمته وكبريائه جل وعلا، وملكه وعزه وسلطانه تبارك وتعالى.[2]

ومنهم من ذكر أن المراد هنا يشمل ذكر القلب لعظمة الله تعالى وجلاله، أو لوعده ووعيده، سواء كان مصحوبًا بذكر اللسان أم لا.[3]

ومنهم من ذكر أن المراد ذكر قدرة الله تعالى وعذابه لمن عصاه وخالف أمره، ويكون المعنى على تقدير مضاف: إذا ذكر عقاب الله، فيجل القلب من أن تناله العقوبة الإلهية.[4]

وهذه الأقوال كلها محتملة في تفسير ذكر الله تعالى في الآيتين

(١) في ظلال القرآن: (٣/ ١٤٧٥).

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٥٧)، تفسير أبي السعود: (٤/ ٤)، تفسير النسفي: (١/ ٦٠١).

(٣) انظر: تفسير المنار: (٩/ ٥٨٩ – ٥٩٠).

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٠)، تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١١٨)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٥٧).



الكريمتين، فالأولى أن تجتمع، والعلم عند الله تعالى.[1]

قال ابن عاشور: (وقد أجملت الآية ذكر الله إجمالًا بديعًا ليناسب معنى الوجل، فذكر الله يكون: بذكر اسمه، وبذكر عقابه وعظمته، وبذكر ثوابه ورحمته، وكل ذلك يحصل معه الوجل في قلوب كمل المؤمنين).[2]

أما الآية الثالثة التي ورد فيها وصف القلوب بالوجل فهي قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[المؤمنون: ٦٠].

والآية الكريمة تتضمن ثناء على المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويفعلون الخيرات، ومع ذلك فقلوبهم وجلة، تخاف عدم القبول.

عن عائشة ﵂ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: [لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات].[3]

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٧٨)، تفسير الزمخشري: (٢/ ١٨٥)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٢)، تفسير المنار: (٩/ ٥٩٠).

(٢) تفسير ابن عاشور: (٩/ ٢٥٦).

(٣) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون: (٥/ ٣٢٧ – ٣٢٨)، وابن ماجة بنحوه في كتاب الزهد، باب التوقي على العمل: (٢/ ١٤٠٤)، وأحمد في المسند: (٦/ ٢٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان: (١/ ٤٧٧)، والحاكم في المستدرك: (٢/ ٤٢٧) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٢٥٥).

**وعن هذا التفسير النبوي الشريف صدرت عبارات الصحابة والتابعين:**

عن ابن عباس ﷺ في معنى الآية الكريمة قال: (يعملون خائفين).[1]

وعن قتادة: (يعطون ما أعطوا ويعملون ما عملوا من خير، وقلوبهم وجلة خائفة).[2]

وعن الحسن: (يعملون ما عملوا من أعمال البر، وهم يخشون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب ربهم ﷻ).[3]

وعنه أيضًا: (عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم).[4]

ومن المفسرين من خصّ الإيتاء الوارد في الآية بالزكاة والصدقة[5].

لكن مضمون حديث عائشة ﷺ يفيد عموم الإيتاء بما يشمل الزكاة وجميع أعمال البر بدنية أو مالية، ولذا قال ابن عطية: (ولا نظر مع

(١) تفسير الطبري: (١٨/ ٣٣)، الدر المنثور: (٦/ ١٠٥)، وانظر: صحيح البخاري: (٤/ ١٧٦٩)، عمدة القاري: (١٩/ ٧٠).

(٢) تفسير الطبري: (١٨/ ٣٣)، تفسير الصنعاني: (٣/ ٤٦).

(٣) الزهد لابن المبارك: (ص: ٩)، الزهد لأحمد: (ص: ٣٤٠، ٣٤٢)، تفسير الطبري: (١٨/ ٣٢)، الدر المنثور: (٦/ ١٠٦).

(٤) تفسير السمعاني: (٣/ ٤٨٠)، تفسير البغوي: (٣/ ٣١١).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ٣٢)، روح المعاني: (١٨/ ٤٤).



الحديث)[1]، وقال السمعاني: (هذا هو القول المعروف في الآية).[2]

ثم أشارت الآية الكريمة إلى علة الوجل في قلوب العاملين: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

قال السمعاني: (أي لأنهم إلى ربهم راجعون، ومعناه خافوا لأنهم علموا أن رجوعهم إلى ربهم).[3]

فمناط الوجل يقينهم بلقاء الله تعالى في الآخرة، ومقابلة السؤال والجزاء، ومن ثَمّ يخشون أن يلحقهم عذاب الله ﷻ، متهمين أنفسهم بالتقصير في القيام بحقوقه سبحانه، خائفين أن تكون أعمالهم الصالحة مشوبة بخلل أو نقصان، يتنزل بها عن القبول والرضا منه تبارك وتعالى.

- وقد يبدو في الظاهر نوع تعارض بين الآيات التي تصف قلوب المؤمنين بالوجل عند ذكر الله تعالى، والآيات التي تصف قلوبهم بالطمأنينة بذكره سبحانه، إذ كيف يكون القلب موصوفًا بالطمأنينة والوجل وهما متنافيان؟

**وجمعًا بين الآيات الكريمات أجاب عدد من المفسرين عن ذلك التعارض الظاهري بوجوه منها:**

(١) تفسير ابن عطية: (٤/ ١٤٧).

(٢) تفسير السمعاني: (٣/ ٤٨٠)، وانظر: الفتح الرباني: (ص: ٢٨٨، ٣١٠).

(٣) تفسير السمعاني: (٣/ ٤٨٠)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٦/ ٤١٠)، نظم الدر: (٥/ ٢٠٩).

**أولاً**: أن الطمأنينة تكون بحصول الانشراح في القلب، ثمرة للإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، بيقين لا شك فيه ولا شبهة، أما الوجل فيستقر في القلب خوفًا من الانحراف عن الحق، والزيغ عن الهدى، والتقصير في القيام بحقه سبحانه، وطاعته جل وعلا أمرًا ونهيًا، ومن ثَمّ فهما حالتان تجتمعان في قلب المؤمن دون تناقض أو منافاة.[1]

وهذا القول في توجيه الجمع هو أقرب الأقوال وأحسنها، والعلم عند الله تعالى.

**ثانيًا**: أن القلب يسكن ويطمئن عند تذكر الثواب والفضل الرباني، ويحصل له الوجل بتذكر العقاب والعدل الإلهي.[2]

وهذا حق، لكن يرد عليه أن الطمأنينة والوجل لا يقتصران على دائرة الوعد والوعيد.

**ثالثًا**: أن الطمأنينة ثمرة للثقة في الله تعالى ورحمته ولطفه، واستحضار نعمه سبحانه، والوجل خوف من عقوبته وعذابه، فهما مقامان يتنقل بينهما قلب المؤمن.[3]

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ٤٩)، الروض الريان في أسئلة القرآن: (١/ ١٦)، البرهان في علوم القرآن: (٢/ ٦١ - ٦٢، ١٩٠ - ١٩١)، أضواء البيان: (٥/ ٦٩٤ - ٦٩٥)، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: (ص:١٣٥)، تفسير القاسمي: (٨/ ٩).

(٢) انظر: تفسير السمعاني: (٣/ ٩٢)، تفسير البغوي: (٣/ ١٨)، تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ٤٩)، الروض الريان في أسئلة القرآن: (١/ ١٦٣).

(٣) انظر: الروض الريان في أسئلة القرآن: (١/ ٧٧)، تفسير القاسمي: (٨/ ٩).



قال القرطبي: (فهذا ـ أي الاطمئنان ـ يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب، والوجل الفزع من عذاب الله، فلا تناقض، وقد جمع بين المعنيين في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله، وإن كانوا يخافون الله).[1]

وهذا الجواب جيد في الجمع بين الحالين، يمكن أن يضاف عليه أن الوجل لا يختص بالخوف من الوعيد، بل يشمل كذلك الشعور بالهيبة والخشية والخوف من جلال الله وعظمته، واستحضار معاني كبريائه وسلطانه جل وعلا، وأسمائه وصفاته ﷻ.[2]

---

(١) تفسير القرطبي: (٧/ ٢٣٢ - ٢٣٣)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١١٨)، البرهان في علوم القرآن: (٢/ ٦٢، ١٩١).

(٢) انظر: تفسير المنار: (٩/ ٥٩٠).

## المبحث الرابع
## القلوب المخبتة

الإخبات مصدر للفعل أَخْبت، يُخْبِت، وأصله يدل على الخشوع، ويتضمن معنى الاطمئنان.

يقال: أخبت: أي تواضع، وأخبت لله: أي خشع، وأخبت إلى ربه: أي اطمأن إليه، وخبت ذكره: أي خفي، وفيه خبتة: أي تواضع.

وأصل ذلك من الخَبْت، وهو المتسع المطمئن من الأرض، والمفازة التي لا نبات بها.(١)

ويرى أبو إسماعيل الهروي أن الإخبات يمثل المرتبة الأولى ضمن مراتب الطمأنينة، فقد ذكر في منازل السائرين أن الإخبات (هو من أول مقامات الطمأنينة).(٢)

قال ابن القيم: (يعني بمقامات الطمأنينة: السكينة، واليقين، والثقة بالله، ونحوها، فالإخبات مقدمتها ومبدؤها).(٣)

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٣٢١)، لسان العرب: (٢/ ١٠٨٧)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٥)، المفردات: (ص: ١٤٧)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٤)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٥٢١)، وقد عرف العسكري الإخبات بالخضوع المستمر، غير أنه فرق بين الإخبات والخضوع (بأن المخبت هو المطمئن بالإيمان، وهو من أسماء المدوح مثل المؤمن والمتقي، وليس كذلك الخضوع لأنه يكون مدحًا وذمًا) الفروق في اللغة: (ص: ٢٤٥).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ١٣).

(٣) مدارج السالكين: (٢/ ١٣).

إذ حين يتجاوز المؤمن مرحلة التردد بالإخبات لله تعالى، يبدأ في مراحل الطمأنينة ودرجاتها.

ومن ثَمّ فتحقّق الإخبات علامة على دخول مقام الطمأنينة، ونزول أول منازلها.[1]

**وقد أسند الإخبات إلى القلوب في قول الله جل وعلا:**

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

والآية الكريمة تبين موقف المؤمنين من القرآن الكريم، في مواجهة وساوس الشيطان وكيده ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾.

والضمير في: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ يعود إلى القرآن الكريم.[2]

والمعنى أن أهل العلم بالله وشرعه من المؤمنين يميزون ـ بتوفيق الله وهدايته ـ بين الحق والباطل، فيردون إلقاء الشيطان، ويرفضون تضليله، ولا يتأثرون بشبهه وأباطيله في شأن القرآن، إذ يوقنون بأن ما أوحى الله جل وعلا إلى رسوله ﷺ من القرآن هو الحق المحفوظ بلا شك أو ريب،

(١) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ١٣ - ١٤).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٩)، التسهيل: (٣/ ٤٥)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٩)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٣٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١٤).



فيثبتوا ويزدادوا به إيمانًا وتصديقًا[1]، ومن ثَمّ يحصل الإخبات في قلوبهم لكلام ربهم سبحانه ووحيه ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾.

وفي ذلك دلالة على أن العلم سبيل إلى الإيمان ابتداء، ثم زيادةً ونماءًا، وأن صفة الإخبات هي ثمرة لهذا الإيمان المرتكز على علم ثابت يقيني، ولذا كان المتصفون بهذه الصفات، المتمكنون منها، لا تستقر في قلوبهم ما يلقيه الشيطان من الشبهات، ولا يتأثرون بها، بل يسلمّهم الله تعالى بفضله من فتنة الشيطان وكيده، كما يقرره ويشير إليه سياق الآية الكريمة.[2]

وقد فسر بعض المفسرين الإخبات هنا بمعاني الخشوع والخضوع والتواضع واللين والذل والانقياد والإذعان.

وهذه معان متقاربة يقتضي بعضها بعضًا، ويفسر بعضها بعضًا.

قال ابن قتيبة: (أي تخضع وتذل له قلوبهم).[3]

وقال العز بن عبد السلام[4]: (الإخبات هو التواضع لله، وثمرته

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٩١)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٩)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٣٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١٤)، روح المعاني: (١٧/ ١٧٤).

(٢) الآية السابقة لهذه الآية هي قول الله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣].

(٣) تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٩٤)، وانظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٩٢)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٩)، زاد المسير: (٥/ ٣٠٣)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٩٣)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٣٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١٤)، روح المعاني: (١٧/ ١٧٤).

(٤) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم، عز الدين، أبو محمد السلمي، الدمشقي الشافعي، سلطان العلماء، عالم عصره، إمام مجتهد، حجة الإسلام، كان معروفًا بشدة الذكاء، وكثرة العبادة، وقول الحق، والتواضع والزهد، من مصنفاته: قواعد الشريعة، التفسير الكبير، توفي سنة ستين وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٢٨٧ - ٢٢٨٨)، الأعلام: (٤/ ٢١).

الانقياد لأمر الله).[1]

وقال الراغب: (أي تلين وتخشع).[2]

وفسر آخرون الإخبات هنا بالطمأنينة والسكون.

قال البغوي: (فتسكن إليه قلوبهم).[3]

وقال النسفي: (فتطمئن).[4]

ولا تعارض بين تفسير الإخبات بالخشوع ونحوه، وبين تفسيره بالاطمئنان، بناء على ما سبق ذكره من كون الإخبات من أول مراتب الطمأنينة ومقاماتها، وكلما تمكن الخشوع في القلب زادت طمأنينته ونمت.

ولذا جمع بعض المفسرين بين القولين.

قال القرطبي: (أي تخشع وتسكن).[5]

وقال البقاعي: ( أي تطمئن وتخضع ﴿لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ﴾ وتسكن به قلوبهم).[6]

---

(١) شجرة المعارف والأحوال: (ص: ٧٥).

(٢) المفردات: (ص: ١٤٧)، وانظر: التسهيل: (٣/ ٤٥)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨٣)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٥٢١).

(٣) تفسير البغوي: (٣/ ٢٩٥)، وانظر: تفسير السمعاني: (٣/ ٤٥٠).

(٤) تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٩).

(٥) تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٨).

(٦) نظم الدرر: (٥/ ١٦٥)، وانظر: أضواء البيان: (٥/ ٧٣٥)، إغاثة اللهفان: (١/ ٤٦).



يقول ابن القيم: (المخبت المطمئن، فإن الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء، فكذلك القلب المخبت قد خشع واطمأن، كالبقعة المطمئنة من الأرض يجري إليها الماء فيستقر فيها، وعلامته أن يسجد بين يدي ربه إجلالًا له وذلًا وانكسارًا بين يديه).[1]

أما الخشوع الذي فسّر كثير من المفسرين الإخبات به فقد أُسند إلى القلوب في قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وإسناد الخشوع في الآية إلى القلوب هو باعتبار أن الخشوع من عمل القلب أولا ثم تظهر بعد ذلك آثاره على الأعضاء.

عن علي ﷺ قال: (الخشوع في القلب)[2]، وبمثله قال قتادة وغيره.[3]

قال ابن عطية: (هي هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب، فلذلك خص الله تعالى القلب بالذكر).[4]

وقال ابن تيمية: (خشوع الجسد تبع لخشوع القلب، إذا لم يكن الرجل مرائيًا، يظهر ما ليس في قلبه).[5]

---

(١) الروح: (ص: ٢٩٠)، وانظر: (ص: ٢٩٩ - ٣٠٠).

(٢) تفسير الطبري: (١٨/ ٢)، المستدرك: (٢/ ٤٢٦)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وانظر: الدر المنثور: (٦/ ٨٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ٢ - ٣)، تفسير الصنعاني: (٣/ ٤٣)، الدر المنثور: (٦/ ٨٤).

(٤) تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٦٤).

(٥) مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٩)، وانظر: تفسير القرطبي: (١/ ٢٥٥)، ولابن القيم في الروح: (ص: ٢٨٩ - ٢٩٠) كلام جيد عن خشوع الإيمان وخشوع النفاق.

ويقول ابن القيم: (أجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب، وثمرته على الجوارح).[1]

والخشوع بمعنى الخضوع، فهما مترادفان، أو متقاربان في المعنى.[2]

واعتبر بعض أهل اللغة الخشوع أعم، باعتبار أن الخضوع في البدن، بينما الخشوع يكون في البدن والصوت والبصر.[3]

يقال: خشع: رمى ببصره نحو الأرض، وغضه، وخفض صوته. وتخشّع: تضرّع. واختشع: إذا طأطأ صدره وتواضع. والخشوع: السكون، والتذلل. وأكمة خاشعة: ملتزقة بالأرض. وأرض خاشعة: يابسة، لم تمطر ولم تنبت، فهي ساكنة منخفضة. والخاشع من الأرض: الذي تثيره الرياح لسهولته فتمحوا آثاره.

وعلى هذا فالخشوع يتضمن جملة من المعاني، كاللين والتواضع، والتذلل والانكسار، والخشية والضراعة، والسكون والطمأنينة.[4]

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٥).

(٢) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٢٩٨)، التعاريف للمناوي: (ص: ١٣٢)، ترتيب القاموس: (٢/ ٥٩)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٥٤١).

(٣) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٢٩٨)، لسان العرب: (٢/ ١١٦٥)، ترتيب القاموس: (٢/ ٥٩)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٤).

قال العسكري: (الخضوع هو التطامن والتطأطؤ، ولا يقتضي أن يكون معه خوف، ولهذا لا يجوز إضافته إلى القلب) الفروق في اللغة: (ص: ٢٤٣ - ٢٤٤).

(٤) انظر: المفردات: (ص: ١٥٤ - ١٥٥، ١٥٦)، لسان العرب: (٢/ ١١٦٥، ١١٨٧)، ترتيب القاموس: (٢/ ٥٩ - ٦٠، ٧٢)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٤، ٤٣).



**ومن ثَمّ تعدّدت عبارات الأئمة في تعريف الخشوع.**

قال الجنيد: (الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب).[1]

وقال ابن القيم: (الخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه)[2]، فهو: (معنى يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار).[3]

وقال محمد الأمين: (الخشوع في الشرع خشية من الله تداخل القلوب، فتظهر آثاره على الجوارح بالانخفاض والسكون، كما هو شأن الخائف).[4]

يقول ابن تيمية: (والخشوع يتضمن معنيين: أحدهما التواضع والذل، والثاني السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة).[5]

وفي الآية الكريمة عتاب للمؤمنين، وحضٌّ لهم على الخشوع ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ والمعنى: أما حان لهم أن تخشع قلوبهم، وقد تتابع عليها من ذكر الله وكلامه جل وعلا ما يقتضي ذلك ويوجبه.[6]

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٥).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٥)، وانظر: (٦ - ١٢).

(٣) مدارج السالكين: (٢/ ٦).

(٤) أضواء البيان: (٧/ ٨١٢)، وانظر: تفسير القرطبي: (١/ ٢٥٤ - ٢٥٥).

(٥) مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٨)، وانظر: (٢٢/ ٥٥٤ - ٥٥٥).

(٦) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٤٥٣)، زاد المسير: (٧/ ٣٠٥).

عن ابن مسعود ﷺ قال: (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلا أربع سنين).[1]

وذكرهم في معرض العتاب باسم الإيمان باعتباره موجبا للخشوع وداعيًا إليه.

يقول ابن القيم: (دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، يعني أما آن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان؟ وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم).[2]

واللام في قوله سبحانه: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ للتعليل، والمراد خشوع القلب لأجل ذكر الله وما نزل من الحق.[3]

**وفي المقصود بالمعطوف والمعطوف عليه قولان للمفسرين:**

**القول الأول**: أنهما بمعنى واحد، فذكر الله هو القرآن، والحق النازل هو القرآن أيضًا، فهو عطف للشيء على نفسه مع اختلاف اللفظين، زيادة

(١) رواه مسلم في كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (٣/ ٢٣١).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٢ - ٤٠٣).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٦٤)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٢٢٢)، أضواء البيان: (٧/ ٨١٢)، تفسير ابن عاشور: (٢٧/ ٣٩١).



في التفسير والبيان، فالتغاير في الأوصاف، لكن الموصوف واحد، وهو القرآن الكريم الجامع للأمرين: كونه ذكرًا، وكونه حقًا نازلًا من عند الله تعالى.[1]

**القول الثاني**: أن اللفظين متغايران في المعنى، فالحق هو القرآن الذي نزله جل وعلا على رسوله ﷺ، والمعطوف عليه ذكر الله، والمراد ذكر اسم الله تعالى، أو صفته، أو وعده ووعيده، سواء كان هذا الذكر نطقًا باللسان، أو فكرًا بالقلب.[2]

قال الشوكاني: (﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، معطوف على ذكر الله، والمراد بما نزل من الحق القرآن، فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عداه مما فيه ذكر لله سبحانه باللسان، أو خطور بالقلب).[3]

وكلا القولين محتمل كما قال الزمخشري وغيره[4]، لكن الثاني أقرب، والعلم عند الله تعالى.

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٦٨)، تفسير النسفي: (٣/ ٤٨١)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٦٩)، روح المعاني: (٢٧/ ١٨٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٧/ ٢٢٨)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٩٧)، زاد المسير: (٧/ ٣٠٥)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٩)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٣١٠)، أضواء البيان: (٧/ ٨١٢)، تفسير القاسمي: (١٦/ ٤٥).

(٣) فتح القدير: (٥/ ١٧٩).

(٤) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٧٥)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٦٩)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٢٠٨).

أما الخشوع في الآية الكريمة: ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ فقد فسره معظم المفسرين بمعنى رقة القلب ولينه، وخضوعه وذلته.[1]

وفسره بعضهم بالإخبات.[2]

والحق أن بين الخشوع والإخبات تداخلًا وتقاربًا كبيرًا في المعنى، ويمكن أن يفسر كل منهما الآخر، فالإخبات يتضمن معنى الخشوع، والخشوع فيه معنى الإخبات.

ومن المفسرين من فسّر الخشوع في الآية بالامتثال والانقياد للأوامر والنواهي.[3]

وهو تفسير للخشوع بمقتضاه.

ولذا جمع ابن كثير بين الملزوم ولازمه في بيان المراد بخشوع القلوب في الآية الكريمة فقال: (أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه، وتنقاد له، وتسمع له وتطيعه).[4]

ولما كانت عبودية القلب لله بالخشوع أمرًا في غاية الأهمية كان رسول الله ﷺ يستعيذ في دعائه: [من قلب لا يخشع].[5]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٧/ ٢٢٨)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٨٤، ٣٨٥)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٦٨)، تفسير السمعاني: (٥/ ٣٧٢)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٩٧)، زاد المسير: (٧/ ٣٠٥)، تفسير القرطبي: (١٧/ ١٦١)، شجرة المعارف والأحوال: (ص: ٧٥).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٦٤)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٢٢٢)، نظم الدرر: (٧/ ٤٤٧).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود: (٨/ ٢٠٨)، تفسير ابن عاشور: (٢٧/ ٣٩١).

(٤) تفسير ابن كثير: (٤/ ٣١٠).

(٥) رواه مسلم من حديث زيد بن أرقم ﷺ، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل: (٣/ ٢٠٨٨).



## المبحث الخامس

## القلوب المنيبة

الإنابة مصدر للفعل الرباعي: أناب، ينيب، إذا أقبل ورجع[1]، ومصدر الثلاثي: النّوْب، قال الراغب: (النوب رجوع الشيء مرة بعد مرة).[2]

وقد وصف القلب بالإنابة في قول الله جل وعلا: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

وذلك ضمن عرض عدد من صفات أهل الجنة، ومنها كون المؤمن ذا قلب منيب.

ووصف القلب بالإنابة، وليس صاحب القلب، باعتبار أن ما ثبت منها في القلب، هو الأصل الذي يثمر في الجوارح إنابة إلى الله تعالى، وطاعة واستقامة على شرعه سبحانه.[3]

**وفي المراد بالقلب المنيب في الآية الكريمة أقوال معظمها مترادف أو متقارب، ومنها:**

---

(١) انظر: لسان العرب: (٦/ ٤٥٦٩).

(٢) المفردات: (ص: ٥٠٩)، وانظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩٦٦).

(٣) انظر: تفسير السمعاني: (٥/ ٢٤٦)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٩٣)، تفسير أبي السعود: (٨/ ١٣٣)، روح المعاني: (٢٦/ ١٩٠).

١. عن قتادة قال: (أي منيب إلى ربه مقبل).[1]

٢. وقال السمرقندي: (يعني مقبلًا على طاعة الله مخلصًا).[2]

٣. وقال ابن عطية: (المنيب الراجع إلى الخير المائل إليه).[3]

٤. وقال ابن الجوزي: (راجع إلى طاعة الله عن معصيته).[4]

٥. وقال ابن جرير: (بقلب تائب من ذنوبه، راجع مما يكرهه تعالى إلى ما يرضيه).[5]

٦. ومن المفسرين من فسّر القلب المنيب بالقلب السليم، ومنهم الرازي حيث يقول: (والقلب المنيب كالقلب السليم في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]).

أي سليم من الشرك، ومن سلم من الشرك يترك غير الله ويرجع إلى الله فكان منيبًا، ومن أناب إلى الله برئ من الشرك فكان سليمًا).[6]

---

(١) تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٣)، الدر المنثور: (٧/ ٦٠٤).

(٢) تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٢١)، وانظر: تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٢٤)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٢٥)، تفسير القرطبي: (١٧/ ١٥)، بصائر ذوي التمييز: (٥/ ١٣٢).

(٣) تفسير ابن عطية: (٥/ ١٦٦).

(٤) زاد المسير: (٧/ ١٩٩)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٩٣)، تفسير النسفي: (٣/ ٤١٠)، نظم الدرر: (٧/ ٢٦٢).

(٥) تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٣)، وانظر: المفردات: (ص: ٥٠٩).

(٦) تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ١٧٩)، وانظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ١٥)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٢٨).



ولا تعارض بين هذه الأقوال عدا الأخير منها، بل هي متقاربة متلازمة، والجمع بينها واضح، إذ أن أصل الإنابة في اللغة الإقبال والرجوع، فالقلب المنيب هو المقبل على الله، وهو الراجع عن المعصية إلى الطاعة، ومن الباطل إلى الحق، وهو التائب من الذنوب إذ هو سبيل الرجوع عن المعصية، وهو المخلص، إذ لا إقبال على الله ولا رجوع دون إخلاص.

وقد ذكر ابن القيم أن: (حقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه)[1] وأنها (تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم (المنيب) إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك، وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم، والمنيب إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه).[2]

أما قول الرازي فهو قول حسن من حيث الإشارة إلى قوة العلاقة بين القلب المنيب والقلب السليم، لكن اعتبارهما مترادفين قد لا يكون دقيقًا، وذلك أن مقام الإنابة يمثل طريقًا يصل به القلب ـ إذا استجمع معانيه ـ إلى غاية أعظم ومقام أرفع، هو مقام القلب السليم، والعلم عند الله تعالى.

---

(١) الفوائد: (ص: ٣٦)، وانظر: (ص: ٢٣٧).

(٢) مدارج السالكين: (١/ ٣٢٩ - ٣٣٠)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٧٦).

## المبحث السادس

## القلوب اللينة

اللين في أصله اللغوي ضد الخشونة والقسوة، من لان يلين، فهو لـيْن وليِّن.[1]

والوصف به في الدائرة المعنوية يتضمن معنى الرقة والسهولة، ومعنى السكون والاطمئنان، كما يتضمن معنى الإذعان والقبول.

قال القرطبي: (معنى لين القلب رقته وطمأنينته وسكونه).[2]

ولما كانت رقة القلب مفتاحًا للأوصاف الإيجابية الأخرى توسّع أبو طالب المكي فذكر أن رقة القلب (هي خشوعه وخوفه وذله وانكساره وإخباته).[3]

وقد أسند اللين إلى القلوب في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩١٠)، لسان العرب: (٥/ ٤١١٧)، المفردات: (ص: ٤٦١)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤٧٢).

(٢) تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٣)، وانظر: التسهيل: (٣/ ١٩٤)، نوادر الأصول: (٤/ ٤)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤٧٢)، التعاريف للمناوي: (ص: ٦٣٠).

(٣) قوت القلوب: (١/ ٤٧٢).

إذ تقرر هذه الآية الكريمة أن القلوب المؤمنة تلين إلى ذكر الله جل وعلا، وسياقها يعرض لأثر القرآن الكريم على المؤمنين الذين يخشون ربهم سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] وأحسن الحديث هو القرآن الكريم، كتاب الله ﷻ[1]، الموصوف بأنه متشابه، أي يشبه بعضه بعضًا في الحسن والإتقان والفصاحة والإعجاز، ويصدق بعضه بعضًا، فلا تناقض فيه ولا تضاد ولا اختلاف.[2] والموصوف أيضًا بأنه ﴿مَّثَانِيَ﴾، أي تُثنى وتُردد فيه المواعظ والقصص، وتعاد الأوامر والنواهي، ويتكرر الوعد والوعيد.[3]

والموصوف كذلك بأنه: ﴿تَقْشَعِرُّ[4] مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ والاقشعرار ـ كما قال البغوي ـ (تغير في جلد الإنسان عند الخوف والوجل).[5]

(١) انظر: تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٢)، نظم الدرر: (٦/ ٤٣٨)، روح المعاني: (٢٣/ ٢٥٨).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٧٦)، تفسير الزمخشري: (٤/ ١٢٥)، زاد المسير: (٧/ ١٣)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٢٣)، تفسير السعدي: (٤/ ٣١٨)، القواعد الحسان: (ص: ٦٠).

(٣) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٨٣)، تفسير البغوي: (٤/ ٧٦)، تفسير الزمخشري: (٤/ ١٢٥)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٢ - ١٦٣)، نظم الدرر: (٦/ ٤٣٨)، تفسير السعدي: (٤/ ٣١٨).

(٤) يقال: اقشعر جلده، إذا انقبض وتجمع من الخوف، وأخذته قشعريرة: أي رِعدة، وأصل الاقشعرار من القشع، وهو الجلد اليابس. انظر: ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٦٢٥، ٦٢٦)، المفردات: (ص: ٤٠٥)، تفسير السمرقندي: (٣/ ١٧٥)، نظم الدرر: (٦/ ٤٣٩)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٥١)، فتح القدير: (٤/ ٤٥٧).

(٥) تفسير البغوي: (٤/ ٧٦).



فالمؤمنون الذين يخشون الله جل وعلا تتأثر قلوبهم بالقرآن وما يتضمنه من آيات الوعيد، فيثمر ذلك الوجل في القلوب اضطرابًا وقشعريرة في الجلود.[1]

قال الزجاج في معنى الآية: (إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله).[2]

وقال النسفي: (والمعنى أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم).[3]

قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: ذكر معظم المفسرين في معنى الآية أن المراد بذكر الله هنا ذكر مغفرته ورحمته وجوده، وما وعد به المؤمنين في القرآن من الثواب وحسن الجزاء، فتهدأ به جلود المؤمنين وترقّ بعد قشعريرتها، وتسكن قلوبهم وتطمئن بعد خشيتها.

والمقصود أن قلوب المؤمنين بين الخوف والرجاء، فإذا ذكر وعيد الله وعقابه خافت ووجلت، وإذا ذكر وعد الله وثوابه رجت وسكنت.[4]

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٩٣٢)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٢)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٢٣).

(٢) معاني القرآن: (٤/ ٣٥٢).

(٣) تفسير النسفي: (٣/ ٢١٧)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ١٢٦).

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٥٢)، تفسير الواحدي: (٢/ ٩٣٢)، تفسير الزمخشري: (٤/ ١٢٦)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٢)، زاد المسير: (٧/ ١٤)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٣٢٤)، نظم الدرر: (٦/ ٤٣٩)، تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ٣٨٩).

يقول البغوي في تفسير الآية الكريمة: (أي إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله، وإذا ذكرت آيات الرحمة لانت وسكنت قلوبهم).[1]

ويقول العز بن عبد السلام: (المراد هاهنا بلين القلب رجاء فضله وجوده، لأنه قابله باقشعرار الجلود الذي هو من آثار الخوف).[2]

وقال السمرقندي: (يعني إذا قُرئت آيات الرجاء والرحمة تطمئن قلوبهم وتسكن).[3]

وقال ابن كثير: (أي هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه).[4]

لكن ابن جرير لم يجعل لين القلوب خاصا بآيات الوعد والثواب، كما لم يجعل قشعريرة الجلود خاصة بآيات الوعيد والعقاب، بل عمم الأمرين

(١) تفسير البغوي: (٤/ ٧٦)، وانظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٨٣)، معاني القرآن للنحاس: (٦/ ١٦٩).

(٢) شجرة المعارف والأحوال: (ص: ٧٦).

(٣) تفسير السمرقندي: (٣/ ١٧٥)، وانظر: تفسير النسفي: (٣/ ٢١٧)، التسهيل: (٣/ ١٩٤)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٢٣).

(٤) تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٠ - ٥١)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٥١).



فقال في تفسيره للآية الكريمة: (وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: تقشعر من سماعه إذا تلي عليهم جلود الذين يخافون ربهم ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي إلى العمل بما في كتاب الله والتصديق به).[1]

ومن ثَمّ فإن المقصود - كما يُفْهم من كلام ابن جرير - أن قلوب المؤمنين تلين، بمعنى تسكن وتميل وتطمئن إلى التصديق بما يسمعونه من كلام ربهم سبحانه، والى العمل به وتطبيقه.

وهو اختيار القاسمي أيضًا، إذ قال في تفسير الآية: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي بالانقياد والطاعة والسكينة لأمره).[2]

ويعمّم سيد قطب[3] المعنى كذلك فيقول: (والذين يخشون ربهم ويتقونه، ويعيشون في حذر وخشية، وفي تطلع ورجاء، يتلقون هذا الذكر في وجل وارتعاش، وفي تأثر شديد تقشعر منه الجلود، ثم تهدأ نفوسهم،

(١) تفسير الطبري: (٢٣/ ٢١١)، وأورده القرطبي في تفسيره: (١٥/ ١٦٢)، وانظر: قول الماوردي في زاد المسير: (٧/ ١٤).

(٢) تفسير القاسمي: (١٤/ ٢٠٤).

(٣) هو سيد قطب بن إبراهيم، مفكر وداعية إسلامي مصري، من مصنفاته: في ظلال القرآن، والإسلام ومشكلات الحضارة، توفي سنة سبع وثمانين وثلاث مائة وألف. انظر: الأعلام: (٣/ ١٤٧ - ١٤٨).

وتأنس قلوبهم بهذا الذكر، فتلين جلودهم وقلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله).[1]

وللرازي في تفسيره رأي في مسألة توجيه الحالتين المذكورتين في الآية الكريمة بيانًا لتأثر المؤمنين بكتاب الله تعالى، ويتلخص في قبوله قول جمهور المفسرين، لكنه يعترض على قصر المقامين المذكورين على سماع آية العذاب وآية الرحمة، بل يعتبر ذلك مرتبة يمكن أن تتسع، بحيث تتبعها مراتب أخرى في دائرة تأثر القلوب المؤمنة بالقرآن الكريم خشية ولينًا.[2]

ولعلّ هذا التوجيه يجمع بين الأقوال، والعلم عند الله تعالى.

ويقابل لين القلوب غلظتها وشدتها وقسوتها.

إذ الغلظة ضد الرقة، يقال: رجل فيه غلظة: أي شدة وقساوة، والغلظة الخشونة، يقال: أغلظ له في القول: أي خشّنه له.[3]

وقد أثنى الله ﷻ على رسوله ﷺ، واصفًا إياه باللين، نافيًا عنه غِلظ القلب، فقال تبارك وتعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) في ظلال القرآن: (٥/ ٣٠٤٨).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ٢٧٢)، وقد ذكر بين يدي رأيه مقدمات وأمثلة قد لا يتابع عليها.

(٣) انظر: المفردات: (ص: ٣٦٦)، لسان العرب: (٥/ ٣٢٨٢)، ترتيب القاموس: (٣/ ٤١٠)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ١٤٦).



أي بسبب رحمة الله تعالى وتوفيقه كان عليه الصلاة والسلام متّصفًا باللين، وهي صفة تتضمن عددًا من المعاني كالرأفة والرحمة والرفق، وحسن التعامل، ولطف المعشر، وقوة التحمل، وطيب اللفظ.[1]

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ينفي عن رسوله ﷺ الفظاظة وغلظ القلب.

والمراد بالفظاظة الجفاء وسوء الخلق. والمراد بغلظ القلب قسوته وخشونته، وخلوه من معاني الرقة والرحمة والشفقة، والتأثر والانفعال لجوانب الخير.[2]

وعن غلظ القلب تنشأ الفظاظة.[3] ولذا يمكن تفسير الفظاظة بالغلظة.[4]

والمعنى: لو كنت بهذه الصفات الذميمة لنفروا وابتعدوا وتفرقوا عنك.[5]

---

(١) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٣٦٥)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٢٠).

(٢) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٧٩٤)، المفردات: (ص: ٣٨٤)، تفسير الطبري: (٤/ ١٥١)، تفسير السمعاني: (١/ ٣٧٢)، تفسير الزمخشري: (١/ ٤٥٩)، تفسير البيضاوي: (١/ ١٨٧)، تفسير النسفي: (١/ ٢٦٦)، نظم الدرر: (٢/ ١٧٣)، تفسير أبي السعود: (١/ ٢٦٦)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ١٤٦).

(٣) انظر: تفسير البحر المحيط: (٣/ ٩٨)، روح المعاني: (٤/ ١٠٦)، قال ابن القيم في معنى الجفاء: (غلظة في النفس، وقساوة في القلب، وكثافة في الطبع، يتولد عنها خلق يسمّى الجفاء) الروح: (ص: ٢٩٠).

(٤) انظر: بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٠٠).

(٥) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ١١٤)، غريب القرآن لليزيدي: (ص: ١١١)، تفسير البغوي: (١/ ٣٦٥).

لكنه ﷺ كان متخليًا عن ذلك، متحليًا بضده من الرحمة والرفق، ولين القلب ورقته.

ومن الشواهد التي تؤكد عمق هذه المعاني في قلب رسول الله ﷺ ما تضمنه حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه[1]، لما دمعت عينا رسول الله ﷺ على صبي يحتضر بين يديه، وقال له سعد بن عبادة رضي الله عنه[2]: ما هذا يا رسول الله؟ قال عليه الصلاة والسلام: [هذه رحمة يضعها الله في قلوب من يشاء من عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء].[3]

والملاحظ في هذا الحديث إسناد الرحمة إلى القلوب، وذلك دليل على أن الرحمة عمل قلبي يمكن أن تترجمه الجوارح إلى سلوك.

ولذا قال ابن حجر في شرح الحديث: (أي الدمعة أثر رحمة).[4]

---

(١) هو أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، حب رسول الله ﷺ وابن حبّه، أمّره ﷺ على جيش إلى الشام وهو ابن ثماني عشرة سنة، ومات النبي ﷺ قبل أن يتحرك الجيش، فأنفذه أبو بكر رضي الله عنه، وكان عمر رضي الله عنه يكرمه ويجلّه، توفي سنة أربع وخمسين. انظر: الاستيعاب: (١/ ٧٥ – ٧٧)، الإصابة: (١/ ٢٠٢ – ٢٠٣).

(٢) هو سعد بن عبادة بن دُلَيْم، أبو ثابت الأنصاري الخزرجي الساعدي، شهد العقبة، وكان أحد النقباء، سيد الخزرج، مشهور بالجود والسخاء، صاحب راية الأنصار في المشاهد مع رسول الله ﷺ، توفي سنة خمس عشرة. انظر: الاستيعاب: (٢/ ٥٩٤ – ٥٩٩)، الإصابة: (٣/ ٥٥ – ٥٦).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ (٦/ ٢٤٥٢)، ومسلم بنحوه في كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت: (١/ ٦٣٦).

(٤) فتح الباري: (٦/ ١٩٠).



وقال أيضًا ضمن فوائد الحديث: (وفيه الترغيب في الشفقة على خلق الله، والترهيب من قساوة القلب..).[1]

وأصل الرحمة: الرقة.[2]

قال ابن منظور[3]: الرحمة (رقة القلب وعطفه).[4]

فإذا ضعف هذا الوصف في القلب كان لذلك أثره سلبًا على تعامل المرء مع الآخرين.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم. فقال النبي ﷺ: [أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة].[5]

ينكر ﷺ عليه قساوة قلبه، وخلوه من الرحمة والرقة واللين.

قال ابن حجر: (الهمزة الأولى للاستفهام الإنكاري، ومعناه النفي: أي لا أملك، أي لا أقدر أن أجعل الرحمة في قلبك بعد أن نزعها الله منه).[6]

---

(١) فتح الباري: (٦/ ١٩١)، وانظر: الروح: (ص: ٣٠٩ – ٣١٠).

(٢) انظر: المفردات: (ص: ١٩٦)، ترتيب القاموس: (٢/ ٣١٧).

(٣) هو محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل الأنصاري الرويفعي الأفريقي، ابن منظور، إمام حجة في اللغة، ولي القضاء في طرابلس الغرب، من مصنفاته: لسان العرب، ولطائف الذخيرة، توفي بمصر سنة إحدى عشرة وسبع مائة. انظر: الأعلام: (٧/ ١٠٨).

(٤) لسان العرب: (٣/ ١٦١٢)، وانظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٢٥).

(٥) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته: (٥/ ٢٢٣٥)، ومسلم بنحوه في كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان.. (٢/ ١٨٠٨).

(٦) فتح الباري: (٢٢/ ٢١٣).

والمقصود أن تلك الحالة للقلب هي التي أثمرت ذلك السلوك السلبي المذموم.

وقد أسند الله تعالى الرحمة إلى القلوب في آية كريمة تضمنت الحديث عن أتباع عيسى عليه السلام، وهي قول الله جل وعلا: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

والمراد الذين آمنوا به وصدقوه عليه السلام، واتبعوا دينه وشريعته.

والمعنى أن الله سبحانه جعل الرأفة والرحمة في قلوبهم، ووفقهم لها، بحيث كانوا متوادين متآلفين، يرأف بعضهم ببعض، ويرحم بعضهم بعضًا.[1]

**وفي العلاقة بين الرأفة والرحمة أقوال لأهل اللغة والتفسير، ومنها:**

قال الراغب: (الرأفة الرحمة).[2]

وعلى هذا فاللفظان مترادفان.

وقال القرطبي: ( الرأفة اللين، والرحمة الشفقة).[3]

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٨٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٣٠٠)، تفسير القرطبي: (١٧/ ١٧٠)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٢١٣)، روح المعاني: (٢٧/ ١٩٠)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٥٧).

(٢) المفردات: (ص: ١٨٩)، وانظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤١٥)، روح المعاني: (٢٧/ ١٩٠).

(٣) تفسير القرطبي: (١٧/ ١٧٠)، وانظر: تفسير النسفي: (٣/ ٤٨٦)، فتح الباري: (٥/ ١٨٤ - ١٨٥).



وكأن الرأفة عنده أصل تتفرّع عنه الرحمة.

لكن الأكثرين على أن الرأفة أخصّ من الرحمة.

قال الفيروز ابادي[1]: (الرأفة أشد الرحمة أو أرقها).[2]

وقال ابن الأثير: (والرأفة أرق من الرحمة).[3] وهكذا قال ابن جرير[4]، وغيره.[5]

وقد أثنى رسول الله ﷺ على من وفد عليه من أهل اليمن فوصفهم بلين القلوب ورقتها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أتاكم أهل اليمن، هم ألين قلوبًا وأرق أفئدة].[6] وفي رواية: [أضعف قلوبًا وأرق أفئدة].[7]

---

(١) هو محمد بن يعقوب بن محمد، مجد الدين، أبو طاهر الشيرازي الفيروز ابادي، من أئمة اللغة والأدب، كان قوي الحافظة، من مصنفاته: القاموس المحيط، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، توفي سنة سبع عشرة وثمان مائة. انظر: الأعلام: (٧/ ١٤٦ - ١٤٧).

(٢) ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٢٧٩).

(٣) النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١٧٦)، وانظر: لسان العرب: (٣/ ١٥٣٥).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٧/ ٢٣٨).

(٥) انظر تفسير السمعاني: (٥/ ٣٧٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٣٠٠)، نظم الدرر: (٧/ ٤٦١)، وانظر أقوالا أخرى في تفسير القرطبي: (١٧/ ١٧٠)، روح المعاني: (٢٧/ ١٩٠).

(٦) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن: (٤/ ١٥٩٤)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه: (١/ ٧٣).

(٧) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن: (٤/ ١٥٩٥)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه: (١/ ٧٢).

والأقرب أن يكون المقصود بهذا الثناء النبوي القوم الذين وفدوا على رسول الله ﷺ قادمين من اليمن .[١]

ويحتمل أن يكون المقصود بالثناء عموم أهل اليمن في ذلك الزمن[٢]، لقبولهم وإذعانهم للدعوة النبوية، وسرعة استجابتهم للإيمان.[٣]

وقد وصف عليه الصلاة والسلام قلوبهم باللين والرقة والضعف، وهي ألفاظ متقاربة المعنى في مقابل القسوة.[٤]

قال ابن الصلاح: (معناه أنها ذات خشية واستكانة، سريعة الاستجابة والتأثر بقوارع التذكير، سالمة من الغلظ والشدة والقسوة).[٥]

وكما أثنى رسول الله ﷺ على هؤلاء بلين القلوب، فقد ذم آخرين بوصفهم بالجفاء والقسوة وغلظ القلوب.

---

(١) انظر: فتح الباري: (١٤/ ١٢)، فيض القدير: (١/ ٩٣).

(٢) انظر كلام أبي عمرو بن الصلاح ورده على من صرف لفظ (أهل اليمن) عن ظاهره: صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢١٠ - ٢١٢)، قال في آخر كلامه: (ولا مانع من إجراء الكلام على ظاهره، وحمله على أهل اليمن حقيقة) وقال: (ثم إن المراد بذلك الموجودون منهم حينئذ، لا كل أهل اليمن في كل زمان، فإن اللفظ لا يقتضيه) وانظر أيضًا فتح الباري: (١٤/ ١١ - ١٢، ١٦/ ٢٢٤). وذكر ابن حجر احتمالًا ثالثًا بأن يكون المراد عموم أهل اليمن في كل عصر، وقال: (فغالب من يوجد من جهة اليمن رقاق القلوب والأبدان) فتح الباري: (١٦/ ٢٢٤).

(٣) انظر: صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢١١ -٢١٢)، فتح الباري: (١٤/ ١١ - ١٢، ١٣/ ٨٥)، جامع العلوم والحكم: (١/ ٢٥٠ - ٢٥١).

(٤) انظر: مشارق الأنوار: (١/ ٢٩٨).

(٥) صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢١٥).



فمن حديث أبي مسعود ﷺ يقول عليه الصلاة والسلام: [.. والجفاء وغلظ القلوب[١] في الفدادين[٢] أهل الوبر[٣]، عند أصول أذناب الإبل والبقر[٤]، في ربيعة ومضر[٥]].[٦]

وفي رواية [ألا إن القسوة وغلظ القلوب..[٧]].[٨]

---

(١) معنى اللفظين متقارب، قال ابن الأثير: (الجفاء غلظ الطبع). النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٨١)، ولذا قال في الفتح: (هما شيئان لمسمى واحد). فتح الباري: (١٤/ ١١)، وانظر: لسان العرب: (١/ ٦٤٦).

قال ابن حجر: (ويحتمل أن يقال: المراد بالجفاء أن القلب لا يلين بالموعظة ولا يخشع لتذكرة، والمراد بالغلظ أنها لا تفهم المراد ولا تعقل المعنى) فتح الباري: (١٤/ ١١).

(٢) الفدادين: جمع فداد بتشديد الدال، من الفديد، وهو شدة الصوت، يقال: رجل فداد: شديد الصوت جافي الكلام، والمراد الذين تعلوا أصواتهم في إبلهم وحروثهم ونحوها. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤١٩)، لسان العرب: (٥/ ٣٣٦٢ - ٣٣٦٣)، صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢١٥)، فتح الباري: (١٣/ ٨٤).

(٣) الوبر: صوف الإبل ونحوها، والمراد أهل البادية، لأنهم يتخذون بيوتهم منه، والعرب تعبر عن أهل البادية بأهل الوبر. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ١٤٥)، لسان العرب: (٦/ ٤٧٥٢)، فتح الباري: (١٣/ ٨٤).

(٤) (معناه الذين لهم جلبة و صياح عند سوقهم لها) صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢١٥).

(٥) أي في الفدادين من ربيعة ومضر. انظر: فتح الباري: (١٣/ ٨٤).

(٦) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ...﴾ (٣/ ١٢٨٩).

(٧) معناهما واحد، فقد فسّر أهل اللغة القسوة بمعنى الغلظ والشدة والصلابة. قال ابن فارس: (القسوة غلظ القلب) مقاييس اللغة: (ص:٨٥٦)، وانظر: لسان العرب: (٥/ ٣٦٣٣)، ترتيب القاموس: (٣/ ٦٢٢)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٧٠).

(٨) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب خير المسلم غنم.. (٣/ ١٢٠٢)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه..: (١/ ٧١).

والذّم في الحديث متجّه ـ والله أعلم ـ إلى أصحاب الإبل ونحوها من أهل البادية، الذين يتصفون بغلظ الطبع، وجفاء اللفظ، وبالفخر والتكبر والخيلاء، ثم هم يتشاغلون بأموالهم وحرثهم عن الاهتمام بأمور دينهم فتزداد قلوبهم غِلَظًا وقسوة.[1]

ومن حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [غلظ القلوب والجفاء في المشرق..].[2]

والحديث يشير ـ والله أعلم ـ إلى أهل المشرق من الفرس ومن تابعهم من العرب، الذين اتصفوا بالغلظة والتجبر، والقسوة والتكبر، فلم يلينوا للحق، ولم يستجيبوا للهدى، ولم يقبلوا دعوة رسول الله ﷺ.[3]

(١) انظر: فتح الباري: (١٣/ ٨٤)، لسان العرب: (٥/ ٣٣٦٣).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه.. (١/ ٧٣).

(٣) انظر: فتح الباري: (١٣/ ٨٤)، عمدة القاري: (١٥/ ١٩١)، فيض القدير: (١/ ٩٣).



## المبحث السابع

## القلوب المربوط عليها

أصل هذا الوصف يدل على شدّ وثبات[1]، مأخوذ من قولهم: ربط الشيء، يربطه، ربطًا: أي شدّه، ورجل رابط الجأش: إذا قوي قلبه وثبت واشتد، وربط الله على قلبه: أي شدّه وقواه.[2]

واعتبر ابن القيم الربط على القلب في مقابل الخذلان فقال: (والربط على القلب عكس الخذلان.

فالخذلان: حله من رباط التوفيق، فيغفل عن ذكر ربه، ويتبع هواه، ويصير أمره فرطا.

والربط على القلب: شده برباط التوفيق، فيتصل بذكر ربه، ويتبع مرضاته، ويجتمع عليه شمله).[3]

**وقد ورد الربط على القلوب في ثلاث آيات كريمات.**

**١. الآية الأولى قول الله ﷻ:**

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤١٧).

(٢) انظر: المفردات: (ص: ١٩٢)، لسان العرب: (٣/ ١٥٦٠ - ١٥٦١)، ترتيب القاموس: (٢/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٣) مدارج السالكين: (٣/ ٥٥).

لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١].

والآية تتضمن تذكيرًا بنعم الله تعالى ومننه على المؤمنين في غزوة بدر، ومن هذه النعم ربط القلوب: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾.

والمعنى: يقوي قلوبكم ويشدّها بمعاني الصبر والثبات، والشجاعة والإقدام، والطمأنينة واجتماع الفكر، ويزيل عنها الخوف والفزع والاضطراب.[1]

ومن ثَمّ فإن لفظ الربط في الآية الكريمة يتضمن معنى إنزال السكينة، وإفراغ الطمأنينة في القلب، وحين يحصل السكون، وتتحقق الطمأنينة، يشتد القلب ويثبت ويقوى.[2]

وفي التعبير القرآني: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ إشارة إلى تمكن هذا الوصف واستحكامه واستقراره في قلوبهم.

يقول الرازي: ( كلمة ﴿عَلَىٰ﴾ تفيد الاستعلاء، فالمعنى أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها).[3]

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (٥/ ١٦٦٦)، تفسير السمعاني: (٢/ ٢٥٢)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٣٤)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥٠٦)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٦٩)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٢).

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٣٢)، نظم الدرر: (٣/ ١٩٣).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١٣٤)، وانظر: نظم الدرر: (٣/ ١٩٣)، روح المعاني: (٩/ ١٧٦)، تفسير ابن عاشور: (٩/ ٢٨٠).



واللام في: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ لام التعليل، متعلقة بتنزيل الماء من السماء.

قال الرازي: (والمراد أنه بسبب نزول المطر قويت قلوبهم، وزال الخوف والفزع عنهم).[1]

أي أن الله جل وعلا جعل نزول المطر يوم بدر سببًا لجملة من المنافع تحققت للمؤمنين، تتضمن الطهارة الحسية الظاهرة، وزوال وساوس الشيطان المعنوية الخفية، وربط القلوب واطمئنانها، وثبات الأقدام.

وبين هذه المنافع نوع علاقة تجمعها وتربط بينها، لتكوّن في مجملها سببًا من أسباب النصر بتوفيق الله تعالى.[2]

أمّا قوله تعالى في نهاية الآية الكريمة: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ فإن عامة المفسرين على أن الضمير يعود إلى المطر الذي أصاب الرمل فلبّده، بحيث تحقق لازم ذلك، وهو إمكان ثبات الأقدام عليه، والثبات على هذا حسّيّ.[3]

غير أن بعضهم جوّز أن يكون عود الضمير إلى ربط القلوب، باعتباره سببًا في ثبات الأقدام في مواطن القتال، والثبات على هذا معنوي.[4]

(١) تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١٣٤).

(٢) انظر: التسهيل: (٢/ ٦٢)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٦٩)، تفسير أبي السعود: (٤/ ٩)، تفسير المنار: (٩/ ٦١١ – ٦١٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٩٤، ١٩٧)، تفسير السمعاني: (٢/ ٢٥٢)، التسهيل: (٢/ ٦٢)، وغيرها.

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٤)، تفسير الزمخشري: (٢/ ١٩٤)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥٠٦)، زاد المسير: (٣/ ٢٢٣)، تفسير النسفي: (١/ ٦٠٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٢)، نظم الدرر: (٣/ ١٩)، روح المعاني: (٩/ ١٧٧).

**٢. الآية الثانية قول الله ﷻ:**

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف: ١٤].

والآية الكريمة في قصة أصحاب الكهف، تخبر أن الله تبارك وتعالى ربط على قلوبهم حين قالوا ربنا الله، معلنين إيمانهم به، معتقدين أن توحيد الله وحده هو الحق، وأن القول بغير ذلك باطل وجور ومجانبة للصواب.

والمراد بالربط على قلوبهم إفاضة الصبر والثبات عليها، فتجسر على مواجهة الشدائد، وتعزم على الصدع بالحق ومخالفة الباطل، وتقوى على التضحية بالملذات والرغائب.(١)

قال ابن قتيبة: (أي ألهمناهم الصبر وثبتنا قلوبهم).(٢)

وقال ابن عطية: (وقوله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ عبارة عن شدة عزم وقوة صبر، أعطاها الله لهم، ولما كان الفزع وخور النفس يشبه بالتناسب الانحلال، حسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الربط).(٣)

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٢٠٧)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٢٢٢)، تفسير الواحدي: (٢/ ٦٥٥)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٦٦١).

(٢) تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٦٤).

(٣) تفسير ابن عطية: (٣/ ٥٠١).



وقال ابن القيم: (والربط على قلوبهم يتضمن الشدّ عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش، وفروا بدينهم إلى الكهف).(١)

**٣. الآية الثالثة قول الله ﷻ:**

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠].

والآية الكريمة في شأن أم نبي الله موسى عليه السلام، تبين حالها بعد أن أصبح ابنها بين يدي فرعون وتحت سلطانه: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (فارغًا من كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام).(٢)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (فرغ من ذكر كل شيء من أمر الدنيا إلا من ذكر موسى عليه السلام).(٣)

---

(١) مدارج السالكين: (٣/ ٥٥)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ١٥٣).

(٢) تفسير الطبري: (٢٠/ ٣٥)، تفسير ابن أبي حاتم: (٩/ ٢٩٤٦)، الدر المنثور: (٦/ ٣٩٤).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: (٩/ ٢٩٤٦)، الدر المنثور: (٦/ ٣٩٤).

يقول ابن قتيبة: (كأنها لم تهتم بشيء ـ مما يهتم به الحي ـ إلا أمر ولدها).[1]

وما روي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما في معنى الآية روي نحوه عن عدد من التابعين، كمجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك، وغيرهم.[2]

وهذا القول[3] في المراد بفراغ القلب في الآية هو قول أكثر المفسرين[4]، ورجحه ابن جرير[5]، وابن قتيبة[6]، والبغوي[7]، وأبو جعفر النحاس وقال: (والذين قالوه ـ أي من الصحابة والتابعين ـ أعلم بكتاب الله جل وعز).[8]

---

(١) تفسير غريب القرآن: (ص: ٣٢٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٠/ ٣٦)، تفسير ابن أبي حاتم: (٩/ ٢٩٤٦)، تفسير الصنعاني: (٣/ ٨٨)، الدر المنثور: (٦/ ٣٩٤ - ٣٩٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٨١).

(٣) هناك أقوال أخرى أوردها بعض المفسرين، ومنها:

أ - فارغًا من الوحي الذي أوحاه الله إليها، وذلك بنسيانه.

ب - فارغًا من الغم والحزن لعلمها أنه لم يغرق، أو لم يقتل.

ج - فارغًا من العقل.

انظر: معاني القرآن للنحاس: (٥/ ١٥٩ - ١٦٠)، زاد المسير: (٦/ ٨٩)، تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ٢٢٩)، تفسير القرطبي: (١٣/ ١٦٩)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ١٠٦ - ١٠٧).

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ١٣٤)، تفسير السمعاني: (٤/ ١٢٤)، تفسير البغوي: (٣/ ٤٣٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٨١).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٢٠/ ٣٧).

(٦) انظر: تفسير غريب القرآن: (٣٢٩).

(٧) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٤٣٧).

(٨) معاني القرآن: (٥/ ١٦١).



أما الضمير البارز في قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ فيعود إلى موسى عليه السلام، والمعنى أنها من شدة ما أصابها من الهمّ كادت أن تظهر أمره، وتخبر بقصته، وأنه ولدها[1] ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمقصود أن الله تبارك وتعالى عصمها وحفظها مما يسؤوها، وذلك بتوفيقها إلى الصبر والثبات.

قال ابن كثير: (أي إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها، لولا أن الله ثبتها وصبرها).[2]

وللمفسرين في معنى الربط على القلب في الآية عبارات أخرى منها:

قول ابن عطية: (والربط على القلب تأنيسه وتقويته).[3]

وقول النسفي: (والربط على القلب تقويته بإلهام الصبر).[4]

وقول ابن جرير: (لولا أن عصمناها من ذلك، بتثبيتنا لها، وتوفيقنا لها للسكوت عنه).[5]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٠/ ٣٧)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٤٠٠)، التسهيل: (٣/ ١٠٢)، تفسير النسفي: (٢/ ٦٣٥).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٨١)، وانظر: تفسير البيضاوي: (٢/ ١٨٨)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٥).

(٣) تفسير ابن عطية: (٤/ ٢٧٨)، وانظر: معاني القرآن للنحاس: (٥/ ١٦٢).

(٤) تفسير النسفي: (٢/ ٦٣٥)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ١٣٤)، تفسير الواحدي: (٢/ ٨١٣).

(٥) تفسير الطبري: (٢٠/ ٣٨)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٤٣٧).

وقول أبي حيان: (والربط على القلب كناية عن قراره واطمئنانه، شبيه بما يربط مخافة الانفلات).[1]

والمتأمل في هذه الأقوال يلحظ أنها ليست متباعدة، بل هي متقاربة في المعنى، أو متلازمة.

فإن تقوية القلب تكون بالصبر والثبات، وهما يتأسسان على قاعدة من القرار والسكون والاطمئنان.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لتعليل الربط على القلب، والمعنى: (صبرناها وثبتنا قلبها لتكون راسخة في التصديق بوعدنا)[2] وهو ما تضمنه وحي الله إليها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

(١) تفسير البحر المحيط: (٧/ ١٠٧)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ٤٠٠).

(٢) روح المعاني: (٢٠/ ٤٩)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٠/ ٣٨)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٥٩٩)، تفسير القرطبي: (١٣/ ١٧٠).

## الفصل الثاني:

## القلوب الميتة

## ويشتمل على ثلاثة عشر مبحثًا:

المبحث الأول: القلوب اللاهية .

المبحث الثاني: القلوب القاسية .

المبحث الثالث: القلوب المتكبرة .

المبحث الرابع: القلوب المشمئزة .

المبحث الخامس: القلوب المرتابة .

المبحث السادس: القلوب المنكرة .

المبحث السابع: القلوب الزائغة .

المبحث الثامن: القلوب الغافلة .

المبحث التاسع: القلوب العمي .

المبحث العاشر: القلوب المكنونة .

المبحث الحادي عشر: القلوب المطبوع عليها.

المبحث الثاني عشر: القلوب المختوم عليها.

المبحث الثالث عشر: القلوب المقفلة.

## المبحث الأول

## القلوب اللاهية

أصل (اللهو) في اللغة يدلّ على شغلٍ عن شيء بشيء، وكل شيء شغلك عن شيء فقد ألهاك.

يقال: لهوت بالشيء، وتلهيّت به، إذا لعبت به، وتشاغلت، وغفلت به عن غيره.

ولهِيَ عن الشيء، وتلهَّى عنه: غفل عنه، وأعرض عنه، ونسيه وسلا عنه، وترك ذكره.(١)

قال الراغب: (اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمّه).(٢)

**وقد أسند اللهو إلى القلوب في قول الله تعالى:**

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢ - ٣].

والآيات الكريمة نزلت في شأن مشركي قريش، ومن شابههم من أهل الكفر.(٣)

---

(١) انظر: المشوف المعلم: (٢/ ٦٨٤)، مقاييس اللغة: (ص: ٩٠٥)، لسان العرب: (٥/ ٤٠٨٩)، ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ١٧٨ - ١٧٩).

(٢) المفردات: (ص: ٤٥٨).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ١٠٢)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٧٣)، زاد المسير: (٥/ ٢٣٣)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٧٣).

والمراد بالذكر في قوله سبحانه ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾: هو القرآن.[1]

عن قتادة قال: (ما ينزل عليهم شيء من القرآن إلا استمعوه وهم يلعبون).[2]

قال الواحدي: (يعني ما يحدث الله تعالى من تنزيل شيء من القرآن يذكرهم ويعظهم به).[3]

والآيات تتضمن بيان موقف الكفار من القرآن الذي يتنزل على رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وجملة ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ في موقع الحال. والمعنى: لا يستمعون إليه إلا حال كونهم لاعبين: أي مستهزئين بكلام الله جل شأنه، ساخرين من الرسول المنزل عليه، المبلغ له، عليه الصلاة والسلام.

فهم لا يصغون ولا يقصدون سماع هذا الوحي الإلهي سماعًا نافعًا مثمرًا، يصل أثره إلى قلوبهم، بل يجعلون استماعهم سبيلًا إلى إرادة الطعن وإثارة الشبهة حوله، ولذا يتشاغلون بالسخرية والاستهزاء، فلا يتدبرون الألفاظ، ولا يفقهون المعاني، ولا تتعظ القلوب، ومن ثمّ يبقى حظهم من

(١) انظر: التسهيل: (٣/ ٢٢)، تفسير النسفي: (٢/ ٣٨٩)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٧٣)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٥٤).

(٢) تفسير الطبري: (١٧/ ٢)، الدر المنثور: (٥/ ٦١٦).

(٣) تفسير الواحدي: (٢/ ٧١٠)، وانظر: تفسير الطبري: (١٧/ ٢)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٣٨).



القرآن سماع الألفاظ، وحينئذ فالسماع وعدمه سواء.[1]

قال الرازي: (لأن الانتفاع بما يسمع لا يكون إلا بما يرجع إلى القلب من تدبر وتفكر، وإذا كانوا عند استماعه لاعبين حصلوا على مجرد الاستماع الذي قد تشارك البهيمة فيه الإنسان).[2]

وفي تضمين الآية ما يفيد تجديد التنزّل القرآني ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ زيادة توبيخ لأولئك الكفرة، باعتبار أن الآيات والسور يتجدد تنزيلها مرة بعد مرة، ووقتًا بعد وقت، فالتذكير[3] يتكرر، والحق يتواصل، والبراهين تتنوع، ومع ذلك كله فهم يواجهونه في كل مرة باللعب والتشاغل، قصدًا منهم للصدود والإعراض.[4]

ثمّ وصفت الآيات الكريمة قلوب هؤلاء الكفار بأنها لاهية، وفي ذلك تأكيد لذمّهم، وإشارة إلى أن لهو قلوبهم هو العلة في استهزائهم بما يتنزل من الذكر ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ فلما لهت القلوب، تشاغلت الجوارح

(١) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢٣٨)، تفسير الزمخشري: (٣/ ١٠٢)، زاد المسير: (٥/ ٢٣٤)، تفسير النسفي: (٢/ ٣٨٩)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٦٤)، نظم الدرر: (٥/ ٦٥)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٥٤).

قال الفيروز ابادي: اللعب (هو كل فعل لا يدل على مقصد صحيح)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤٣١)، وانظر المفردات: (ص: ٤٥٤).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ١٤١).

(٣) قال ابن عاشور في تفسيره للآية: (الذكر القرآن، أطلق عليه اسم الذكر الذي هو مصدر لإفادة قوة وصفه بالتذكير)، تفسير ابن عاشور: (٧/ ١١).

(٤) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ١٠٢)، تفسير ابن عاشور: (٧/ ١١).

باللعب سخرية واستهزاء.[1]

و﴿لَاهِيَةً﴾ في موقع الحال أيضًا، والمعنى: استمعوه لاعبين حال كونهم قلوبهم لاهية.[2]

عن قتادة في قوله تعالى ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ قال: (غافلة قلوبهم).[3]

وبقول قتادة قال جمع من أهل التفسير.[4]

ومنهم من فسرها بالذهول[5]، وهو بمعنى الغفلة.[6]

ومن المفسرين من عبّر عن المعنى بعبارات ليست بخارجة عن دائرة المعنى اللغوي للغفلة والتلهّي.

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ١٤١).

(٢) يجوز ـ كما قال أهل الإعراب والتفسير ـ أن يكون ﴿لَاهِيَةً﴾ حالًا من ضمير الفاعل في: ﴿يَلْعَبُونَ﴾، وعلى هذا فالحالان متداخلتان، والمعنى استمعوه لاعبين حال كون قلوبهم لاهية. ويجوز أن يكون ﴿لَاهِيَةً﴾ حالًا من ضمير الفاعل في: ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ فتكون الحالان: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ و﴿لَاهِيَةً﴾ مترادفتين، حالًا بعد حال، على معنى استمعوه لاعبين لاهية قلوبهم. انظر: إملاء ما من به الرحمن: (٢/ ١٣٠)، تفسير الزمخشري: (٣/ ١٠٢)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٢٩٦).

(٣) تفسير الطبري: (١٧/ ٢)، الدر المنثور: (٥/ ٦١٦).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١٧/ ٢)، تفسير الواحدي: (٢/ ٧١٠)، تفسير السمعاني: (٣/ ٣٦٨)، زاد المسير: (٥/ ٢٣٤)، تفسير النسفي: (٢/ ٣٩٠).

(٥) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ١٠٢)، تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ١٤)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٦٤)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٢٩٦).

(٦) يقال: ذهل الشيء، وذهل عنه، بالفتح والكسر: تركه، أو غفل عنه، أو نسيه، أو شغل عنه. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٣٦٩)، لسان العرب: (٣/ ١٥٢٤).



قال السمرقندي: (يعني ساهية قلوبهم عن أمر الآخرة).[1]

وقال القرطبي: (أي ساهية قلوبهم، معرضة عن ذكر الله، متشاغلة عن التأمل والتفهم).[2]

وقال البقاعي: (أي غارقة قلوبهم في اللهو، مشغولة به عما حداها إليه القرآن).[3]

والمقصود في الآيات الكريمة أن قلوب هؤلاء قد استولت عليها الغفلة عن دلائل التوحيد، والتلهّي بإرادة الدنيا وشهواتها، والانشغال بالباطل، عن النظر في كلام الله تعالى، وتفهّم معانيه، والتأمل في آياته وحججه، فسهت عن ذكر الله، وأعرضت عن وحيه، وانصرفت عن الإيمان والهدى، فلما تلهت القلوب عن التذكر والتبصّر، أثّر ذلك في الأسماع ، فلم يثمر سماع القرآن انتفاعًا، ولم ينتج عظة أو عبرة، لأنه سماع لا وعي معه ولا تدبر، ولا حركة فيه للقلب ولا أثر، بل سماع يصاحبه اللعب، ويخالطه السخرية والاستهزاء والصخب، فصار هو وعدم الاستماع سواء، فلا ثمرة ترجى من ورائه ولا جدوى.

---

(١) تفسير السمرقندي: (٢/ ٤١٩)، وانظر: المفردات: (ص: ٤٥٩)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٥٤).

(٢) تفسير القرطبي: (١١/ ١٧٨)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢٣٨).

(٣) نظم الدرر: (٥/ ٦٥).

## المبحث الثاني
## القلوب القاسية

أصل القسوة الشدة والصلابة.

يقال: قسا الشيء، يقسو، قسوة، وقساوة: صلب وغلظ، وأرض قاسية: لا تنبت شيئًا، وقسوة القلب: غِلَظه وشدته.[1]

قال الراغب: (القسوة غلظ القلب، وأصله من حجر قاس).[2]

وقال ابن القيم: (القسوة يبس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل).[3]

**وقد أسندت القسوة إلى القلوب في ست آيات من كتاب الله العزيز:**

١. يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

والآية في شأن اليهود[4]، تصف قلوبهم بالقسوة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٥٦)، لسان العرب: (٥/ ٣٦٣٣)، ترتيب القاموس: (٣/ ٦٢٢).

(٢) المفردات: (ص: ٤٠٤)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٧٠).

(٣) الروح: (ص: ٢٩٩) في معرض التفريق بين الصبر والقسوة.

(٤) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢/ ١٤٢)، تفسير القرطبي: (١/ ٣١٤) تفسير ابن كثير: (١/ ١١٣).

قال المفسرون: أي اشتدت وصلبت، وجفت وعست، وغلظت ويبست.[1]

فإذا استقرت هذه المعاني في القلب زال ما يقابلها من الرقة واللين.

قال الزجاج: (تأويل قست في اللغة غلظت ويبست وصلبت، فتأويل القسو في القلب ذهاب اللين والرحمة والخضوع والخشوع منه).[2]

والإشارة في قوله سبحانه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ إلى الآيات والمعجزات المتعددة التي أظهرها الله تعالى على يد موسى عليه السلام، والتي توجب رقة القلب وخضوعه، وتقتضي لينه وإنابته، لكن قلوب أولئك اليهود كانت أصلب من أن تلين لآية، أو ترق لمعجزة، أو تتأثر بموعظة، أو تنتفع بعبرة، أو تخضع لبينة وحجة، أو تنيب وتذعن لما يجب عليها من الحق لله جل وعلا.[3]

وقد شبهت الآية الكريمة قلوبهم في هذه القسوة بالحجارة ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾.

(١) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٥٥)، غريب القرآن لليزيدي: (ص: ٧٤)، تفسير الطبري: (١/ ٣٦١)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٢٤٩)، تفسير أبي السعود: (١/ ١١٤).

(٢) معاني القرآن: (١/ ١٥٥)، وانظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٩٥)، تفسير البغوي: (١/ ٨٥)، تفسير ابن عطية: (١/ ١٦٦)، زاد المسير: (١/ ٨٨).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري: (١/ ١٨٣)، معاني القرآن للزجاج: (١/ ١٥٥)، تفسير النسفي: (١/ ٦٣)، تفسير ابن كثير: (١/ ١١٣)، تفسير أبي السعود: (١/ ١١٥).



والأقرب أن ﴿أَوۡ﴾ في الآية للتنويع، رجح ذلك أبو حيان، وقال: (كأن قلوبهم على قسمين، قلوب كالحجارة قسوة، وقلوب أشد قسوة من الحجارة، فأجمل ذلك في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم﴾، ثم فصل ونوع إلى شبه بالحجارة، وإلى أشد منها، إذ ما كان أشد كان مشاركًا في مطلق القسوة ثم امتاز بالأشدية).[1]

واختار الزجاج أن تكون ﴿أَوۡ﴾ للإباحة، وقال: (فالتأويل: اعلموا أن قلوب هؤلاء إذا شبهتم قسوتها بالحجارة فأنتم مصيبون، أو بما هو أشد فأنتم مصيبون).[2]

ورجح صاحب المنار: (أن تكون للإضراب على طريقة المبالغة، أي بل هي أشد قسوة من الحجارة).[3]

ثم قررت الآية الكريمة أن الحجارة أفضل حالًا من قلوب أولئك اليهود ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ﴾.

(١) تفسير البحر المحيط: (١/ ٢٦٢)، وانظر: تفسير الطبري: ١/ ٣٦٢ - ٣٦٣)، تفسير ابن كثير: (١/ ١١٤).

(٢) معاني القرآن: (١/ ١٥٦)، وانظر: تفسير القرطبي: (١/ ٣١٤).

(٣) تفسير المنار: (١/ ٣٥٢)، وانظر: تفسير الطبري: (١/ ٣٦٣)، تفسير القرطبي: (١/ ٣١٤)، تفسير ابن كثير: (١/ ١١٤).

قال السمرقندي: (أعذر الحجارة، وعاب قلوبهم بقساوتها حين لم تلن بذكر الله ولا بالمواعظ).[1]

إذ من الحجارة ما يقبل التأثير في صلابته، فيرق لظهور الماء منه تفجرًا وتفتحًا في غزارة وكثرة، ليتدفق بعد ذلك على هيئة أنهار، أو تشققًا وتصدعًا، فينبع منه الماء أقل تدفقًا، سواء جرى بعد ذلك على هيئة عيون، أو بقي دون جريان.[2]

والمقصود أن الحجارة يمكن أن تلين لخروج الماء منها كثيرًا أو قليلًا، فتثمر بذلك نفعًا، بينما قلوب هؤلاء قاسية، لا تلين للموعظة، ولا تتأثر بالآية، ولا تخشع للهدى، ولا تقبل الحق، ولا تستجيب للخير.

قال ابن جرير: (أخبر تعالى ذكره أن من الحجارة ما هو ألين من قلوبهم لما يدعون إليه من الحق).[3]

وقال الألوسي: (والمعنى أن الحجارة تتأثر وتنفعل، وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل عن أمر الله تعالى أصلًا).[4]

---

(١) تفسير السمرقندي: (١/ ٩٢).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري: (١/ ١٨٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢/ ١٤٤)، تفسير القرطبي: (١/ ٣١٥)، تفسير النسفي: (١/ ٦٣)، الروض الريان في أسئلة القرآن: (١/ ١٤).

(٣) تفسير الطبري: (١/ ٣٦٤).

(٤) روح المعاني: (١/ ٢٩٦).



كما أن من الحجارة ما يتردّى من علو الجبل إلى أسفله تأثرًا من خوف الله جل وعلا وخشيته[1] ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

والمراد بيان أن قلوب أولئك اليهود خالية من خشية الله تعالى، بسبب غلظها وصلابتها، ويبسها وجفافها، فأثمر ذلك عنادًا وتكبرًا وإصرارًا على الباطل، بينما تلك الحجارة منقادة خاشية خاشعة لله جل شأنه.

٢. يقول الله جل شأنه:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

والآية الكريمة تقرر طبيعة اليهود في نقض المواثيق المؤكدة، وتذكر آثار ذلك وعواقبه عليهم[2] ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

والباء سببية، و﴿مَا﴾ للتوكيد وتمكين المعنى[3]، والمراد بالميثاق ما أخذه الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل من العهود بتوحيده سبحانه، والإيمان

---

(١) وذلك بما يحصل لها من إلهام الله تعالى، وما يخلقه فيها من إدراك تقع به الخشية. انظر: معاني القرآن للزجاج: (١/ ١٥٧ - ١٥٨)، تفسير السمعاني: (١/ ٩٦)، تفسير البغوي: (١/ ٨٥ - ٨٦)، تفسير ابن عطية: (١/ ١٦٧)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٢٦٦)، تفسير ابن كثير: (١/ ١١٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٤٧ - ١٤٨، ١٥٣ - ١٥٤)، تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٣٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٦/ ٧٦)، تفسير أبي السعود: (٣/ ١٦)، تفسير القاسمي: (٦/ ١٣٢).

برسله عليهم السلام، وبالعمل بما تتضمنه التوراة من طاعة الله وإخلاص العبادة له جل وعلا.[1]

والمعنى أن نقض اليهود للمواثيق، ومخالفتهم للعهود، كان سببًا موجبًا للطرد والإبعاد عن الرحمة والخير، وعن الهدى والحق، كما كان سببًا موجبًا لقسوة قلوبهم، فلا تتعظ بالمواعظ، ولا تلين للآيات، ومن ثمّ تكون محجوبة عن الهدى والعلم النافع، عقوبة من الله تبارك وتعالى لهم.[2]

قال ابن عطية: (القسوة غلظ القلب، ونبوّه عن الرقة والموعظة، وصلابته حتى لا ينفعل لخير).[3]

يقول ابن جرير في تفسير الآية: (أي جعلنا قلوبهم قاسية غليظة يابسة عن الإيمان بي، والتوفيق لطاعتي، منزوعة منها الرأفة والرحمة).[4]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٤٨، ١٥٤)، تفسير السمرقندي: (١/ ٣٩٩)، تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٤٣).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ١٦٩)، تفسير الفخر الرازي: (١١/ ١٨٧)، تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٤٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٣)، روح المعاني: (٦/ ٨٩)، تفسير المنار: (٦/ ٢٨٢)، تفسير ابن عاشور: (٦/ ١٤٣)، تفسير السعدي: (١/ ٤٦٧ – ٤٦٨)، في ظلال القرآن: (٢/ ٨٥٨ – ٨٥٩)، مجموع الفتاوى: (١٨/ ١٧٧)، مدارج السالكين: (٢/ ٢٧).

(٣) تفسير ابن عطية: (٢/ ١٦٩)، وانظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ١٤٢)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ١٥٩–١٦٠)، تفسير السمعاني: (٢/ ٢١)، زاد المسير: (٢/ ٢٥٢)، تفسير النسفي: (١/ ٣٩٧).

(٤) تفسير الطبري: (٦/ ١٥٤)، وانظر: معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٢٨١)، تفسير القرطبي: (٦/ ٧٦).



وفي لفظ ﴿قَٰسِيَةً﴾ قراءتان ثابتتان:

**الأولى**: بالقصر، أي بحذف الألف وتشديد الياء ﴿قَسِيَّةً﴾ على وزن مَطِيَّة.

**الثانية**: بالمد، أي بإثبات الألف بعد القاف وتخفيف الياء ﴿قَٰسِيَةً﴾ على وزن راضية.[1]

**وفي المعنى على القراءة بالقصر (قسية) قولان:**

**الأول**: أن قلوبهم ليست خالصة صافية، بل هي رديئة قد خالطها فساد الكفر، تشبيها لها بالدراهم القسية، يقال: درهم قسيّ، أي رديء مغشوش، قد خالط فضته شيء من النحاس ونحوه. وهو قول بعض المفسرين[2]، ومنهم النسفي.[3]

**الثاني**: أن القراءتين بمعنى واحد، إذ (قاسية) على وزن فاعلة، و(قسية) على وزن فعيلة، وكلاهما من القسوة، إلا أن الثانية أبلغ في الذم من الأولى.

---

(١) القراءة الأولى لحمزة والكسائي، والثانية للباقين من العشرة. انظر: النشر: (٢/ ١٩١)، سراج القارئ: (ص: ١٩٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٥٤)، معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٢٨١)، تفسير الزمخشري: (١/ ٦٥٠)، تفسير البيضاوي: (١/ ٢٥٩)، تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٤٥)، حجة القراءات: (ص: ٢٢٤).

(٣) انظر: تفسير النسفي: (١/ ٣٩٧).

وهو قول ابن عطية[1]، والسمرقندي[2]، وأبي حيان[3]، ورجحه أبوجعفر النحاس[4]، كما رجحه ابن جرير فقال: (وأولى التأويلين في ذلك بالصواب تأويل من تأوله فعيلة من القسوة، كما قيل: نفس زكية وزاكية، وامرأة شاهدة وشهيدة، لأن الله جل ثناؤه وصف القوم بنقضهم ميثاقهم وكفرهم به، ولم يصفهم بشيء من الإيمان، فتكون قلوبهم موصوفة بأن إيمانها يخالطه كفر كالدراهم القسية التي يخالط فضتها غش).[5]

وقد ردّ الزمخشري القول الأول إلى هذا القول الثاني حين قال في معنى (قسية): (أي ردية مغشوشة، من قولهم: درهم قسي، وهو من القسوة، لأن الذهب والفضة الخالصين فيهما لين، والمغشوش فيه يبس وصلابة).[6]

ثم بينت الآية الكريمة بعض مظاهر قسوة القلوب لدى اليهود[7]،

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ١٦٩).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٤٠٠).

(٣) انظر: تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٤٥).

(٤) انظر: معاني القرآن: (٢/ ٢٨١).

(٥) تفسير الطبري: (٦/ ١٥٥)، وانظر: إبراز المعاني: (٢/ ٤٢٦)، تفسير القرطبي: (٦/ ٧٦)، تفسير المنار: (٦/ ٢٨٢).

(٦) تفسير الزمخشري: (١/ ٦٥٠)، وانظر: تفسير القرطبي: (٦/ ٧٦)، تفسير البيضاوي: (١/ ٢٥٩)، تفسير أبي السعود: (٣/ ١٦)، روح المعاني: (٦/ ٨٩).

(٧) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٥٥)، تفسير الزمخشري: (١/ ٦٥٠)، تفسير البيضاوي: (١/ ٢٥٩)، إملاء ما من به الرحمن: (١/ ٢١١).



ومن ذلك افتراؤهم على الله جل وعلا، وتعديهم على وحيه سبحانه ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.

وهذا التحريف منهم لكلام الله تعالى مستمر ومتجدد[1]، سواء كان بتغيير الحروف وتبديل الألفاظ، أو كان بفساد التأويل وتفسير كلام الله سبحانه على غير معناه.

قال أبو حيان: ( الصحيح أن تحريف الكلم عن مواضعه هو التغيير في اللفظ والمعنى).[2]

وقال ابن عطية بعد أن ذكر اختلاف العلماء في صورة التحريف هل هي للألفاظ أو للمعاني: (وألفاظ القرآن تحتمل المعنيين، فقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٧٩] يقتضي التبديل، ولا شك أنهم فعلوا الأمرين).[3]

يقول ابن كثير في تفسير الآية: ( ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي فسدت فهومهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا

(١) انظر: تفسير أبي السعود: (٣/ ١٦)، تفسير ابن عاشور: (٦/ ١٤٣).

(٢) تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٤٦)، وانظر: معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٢٨٢)، تفسير القاسمي: (٦/ ١٣٢).

(٣) تفسير ابن عطية: (٢/ ١٦٩)، وانظر: تفسير المنار: (٦/ ٢٨٢ - ٢٨٣).

كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل عياذًا بالله من ذلك).[1]

ومن مظاهر قسوة قلوبهم أيضًا ترك العمل بنصيب واف مما أمروا به في التوراة[2] ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ والنسيان هنا بمعنى الترك، والحظ: النصيب، أي تركوا نصيبًا وافرًا عظيمًا مما كلفوا به من شرع الله سبحانه، فرغبوا عنه ولم يعملوا به.[3]

٣. يقول الله جل وعلا:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

تتضمن هذه الآية الكريمة نهي المؤمنين عن مشابهة أهل الكتاب فيما اتصفوا به من قسوة القلوب ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٣).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٤٠٠)، تفسير النسفي: (١/ ٣٩٧)، نظم الدرر: (٢/ ٤١٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٥٥)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ١٤٢)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ١٦٠)، تفسير الزمخشري: (١/ ٦٥٠)، زاد المسير: (٢/ ٢٥٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٣)، روح المعاني: (٦/ ٨٩).



والأمد: الزمان، والكتاب: التوراة والإنجيل، والذين أوتوه هم اليهود والنصارى، والمراد تباعد العهد، وتطاول الزمن بينهم وبين أنبيائهم عليهم السلام.[1]

والمعنى أنهم بسبب طول الأمد أصابتهم الغفلة عن ذكر الله جل وعلا وما جاءهم من الحق، وزال الخشوع عن قلوبهم، وغلب عليها الجفاء، فأصبحت قاسية لا تلين للذكر، ولا تستجيب للهدى، ولا ترقّ للطاعة والخير.[2]

قال ابن عطية: (قست: معناه صلبت وقل خيرها وانفعالها للطاعات، وسكنت إلى معاصي الله).[3]

يقول ابن كثير: (نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمنًا قليلًا، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة، والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله،

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٧/ ٢٢٨ – ٢٢٩)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٦٩)، تفسير السمعاني: (٥/ ٣٧٢)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٩٧)، زاد المسير: (٧/ ٣٠٥)، نظم الدرر: (٧/ ٤٤٨)، فتح القدير: (٥/ ١٧٩).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٧٥)، نظم الدرر: (٧/ ٤٤٨)، روح المعاني: (٢٧/ ١٨١).

(٣) تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٦٤)، وانظر: تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٨٥)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٢٢٣).

واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد).[1]

وقد ألمح أبو موسى الأشعري ﷺ إلى مضمون هذه الآية الكريمة في وصيته لقراء أهل البصرة، حين بعث إليهم (فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرأوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، كما قست قلوب من كان قبلكم..).[2]

٤. ويقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٣].

تتضمن الآيتان الكريمتان تحذيرًا من قسوة القلب، وأنها سبب

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٣١٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا: (١/ ٧٢٦). وقد روى ابن ماجة حديثًا طويلًا من رواية ابن مسعود ﷺ مرفوعًا إلى رسول ﷺ، وفيه: (ألا لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم) المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل: (١/ ١٨).

قال الكناني في مصباح الزجاجة: (١/ ١٠): هذا إسناد ضعيف، عبيد بن ميمون، أبو عبيدة: قال فيه أبو حاتم: مجهول.

وهذا الحديث رواه عبد الرزاق في مصنفه: (١١/ ١١٦)، والطبراني في الكبير: (٩/ ٩٦) موقوفًا على ابن مسعود ﷺ.



للانهماك في الكفر، والإصرار على العصيان، والاستكبار عن أمر الله تعالى، والحرمان من رحمته سبحانه.

إذ يخبر الله ﷻ عن أمم سابقة لبعثة رسول الله ﷺ، أرسل جل وعلا إليها رسلًا، فواجهوهم بالتكذيب، فابتلاهم الله سبحانه بالبأساء والضراء، أي بالشدائد والمصائب في الأموال والأبدان[1]، ليعودوا إليه جل شأنه بالتذلل والاستكانة، والتوبة والإنابة، والانقياد والطاعة، والتخشع والدعاء، فيصرف عنهم البأس، ويكشف ما نزل بهم من البلاء، لكنهم عاندوا، فلم يخضعوا أو يستكينوا، مع حصول ما يستدعي ذلك، وتحقق ما يقتضيه.[2]

قال الزجاج: (المعنى أن الله جل ثناؤه أعلم نبيه أنه قد أرسل الرسل قبله إلى قوم بلغوا من القسوة إلى أن أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم ليخضعوا ويذلوا لأمر الله، لأن القلوب تخشع، والنفوس تضرع، عند ما يكون من أمر الله في البأساء والضراء، فلم تخشع ولم تضرع).[3]

يقول الله جل شأنه: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾.

(١) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ١٩٢)، تفسير الواحدي: (١/ ٣٥٣)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٩١)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٧٣)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٣٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ١٩٢)، تفسير البغوي: (٢/ ٩٦)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٢٣)، زاد المسير: (٣/ ٢٨)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٧٣).

(٣) معاني القرآن: (٢/ ٢٤٨)، وانظر: شجرة المعارف والأحوال: (ص: ٧٦).

قال المفسرون: ﴿ لَوْلَا ﴾ للتحضيض، والمعنى: هلا تضرعوا حين أصابهم البلاء، ونزل بهم العذاب[1]، وفيه إشارة إلى أن التضرع لم يحصل منهم.[2]

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ذكر للأسباب التي حملتهم على التزام الكفر، والإصرار على الباطل، والاستكبار عن التضرع إلى الله تعالى، والمتمثلة في غلظ قلوبهم وصلابتها، ويبسها وجفافها وتحجرها، وخلوّها عن معاني اللين والرقة والخشوع[3]، والمتمثلة كذلك في إعجابهم بما يفعلونه من مظاهر الشرك وأنواع المعاصي والشهوات التي يزخرفها الشيطان ويحسنها لهم.

قال الرازي في تفسير الآية: ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. ﴾: (معناه نفي التضرع، والتقدير: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا، وذكر كلمة لولا يفيد أنه ما كان لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوتهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم).[4]

---

(١) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ١٥٣)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٤٨)، معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٢٢٤)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٩٢)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٧٤).

(٢) انظر: إملاء ما من به الرحمن: (١/ ٢٤٢)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٧٤)، نظم الدرر: (٢/ ٦٣٦)، تفسير القاسمي: (٦/ ٥٢٧).

(٣) انظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٤٦٨)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٩٢)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٧٤)، تفسيرابن كثير: (٢/ ١٣٢)، في ظلال القرآن: (٢/ ١٠٨٩).

(٤) تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ٢٢٤)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٢/ ٢٣)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ١٣٠).



٥. يقول الله ﷻ:

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣].

قال ابن جرير: (قست قلوبهم عن الإيمان بالله، فلا تلين ولا ترعوي).[1]

وقال السمعاني: (أي الجافة قلوبهم عن قبول الحق).[2]

والمراد بالقاسية قلوبهم في الآية المشركون المجاهرون بالكفر، في مقابل الذين في قلوبهم مرض من أهل الشك والنفاق، كما قال جمهور المفسرين.[3]

والمقصود بالفتنة الضلالة[4]، التي تنتج عن ابتلائهم وامتحانهم بكيد الشيطان وإلقائه، فيظهر ما في قلوبهم من الفساد والخبث.

---

(١) تفسير الطبري: (١٧/ ١٩١)، وانظر: زاد المسير: (٥/ ٣٠٣)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٨).

(٢) تفسير السمعاني: (٣/ ٤٤٩)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢٩٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٩١)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٤٦٦)، تفسير الواحدي: (٢/ ٧٣٨)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٩٤)، تفسير الزمخشري: (٣/ ١٦٧)، تفسير الفخر الرازي: (٢٣/ ٥٥)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٩٣)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٩)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١٤).

ومن المفسرين من قال بأن الذين في قلوبهم مرض هم الكفار عامة، والقاسية قلوبهم هم الكبراء في العتو والتمرد. انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٩)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨٢).

(٤) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٧٣٨)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٨)، فتح القدير: (٣/ ٤٦٢).

قال أبو حيان في تفسير الآية: (ليجعل ما يلقي الشيطان من تلك الشبه وزخارف القول فتنة لمريض القلب وقاسيه).[1]

وقال محمد الأمين: ( ومعنى كونه فتنة لهم أنه سبب لتماديهم في الضلال والكفر).[2]

ومضمون الآية الكريمة يؤكد أن القلب القاسي يتقبل كيد الشيطان، ويتجاوب مع وساوسه وشبهه، ويفتتن بإلقاءاته.

ذلك أن الحق يحتاج إلى محل لين قابل له، فإذا انتفت عن القلب معاني اللين والخشوع والرقة، وصار قلبًا يابسًا صلبًا، غليظًا جافًا، شديدًا جامدًا، فإنه حينئذ يصبح بمنزلة الحجر، لا يلين للهدى، ولا يرق للإيمان، ولا يذعن للحق، ولا يعترف بالحجة، ولا يتأثر بالوعظ، ولا يخشع للذكر، بل يكون على الضد من ذلك، إذ يصبح محلًا قابلًا للباطل، وكل إلقاء شيطاني يرد عليه يمكن أن يؤثر فيه فيفتنه، ويكون سببًا في إصرار صاحبه على الكفر، واستمراره في الضلال، وباعثًا له على جعل تلك الشبهات حجة لباطله، يجادل به الحق، ويناكف به الشرع.[3]

---

(١) تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨١).

(٢) أضواء البيان: (٥/ ٧٣٣)، وانظر: (٥/ ٧٣٤).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٩٥، ١٣/ ٢٧٠ - ٢٧١)، الروح: (ص: ٢٩٩)، إغاثة اللهفان: (١/ ٤٦)، تفسير السعدي: (٣/ ٣٣٠ - ٣٣١).



٦. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

تتضمن الآية الكريمة وعيدًا بالعذاب والهلاك[1] للذين قست قلوبهم وغلظت عند ذكر الله جل شأنه، فلا تلين لكلامه سبحانه، ولا تقبله.

قال العز بن عبد السلام: (القسوة تصلّب القلب ونَبْوته عن اتباع الحق، ورقّته بخلاف ذلك).[2]

يقول ابن جرير في تفسير الآية: ( يقول تعالى ذكره: فويل للذين جفت قلوبهم، ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعني عن القرآن الذي أنزله تعالى ذكره، مذكرًا به عباده، فلم يؤمن به، ولم يصدق بما فيه).[3]

ثم قررت الآية أن أولئك المتصفين بقسوة القلوب في بعد ظاهر عن الحق، وانحراف واضح عن الهدى[4] ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: (١/ ١٦٠)، تفسير السمرقندي: (٣/ ١٧٤)، تفسير ابن كثير: (١/ ١١٧).

(٢) شجرة المعارف والأحوال: (ص: ١١٩).

(٣) تفسير الطبري: (٢٣/ ٢٠٩)، وانظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٠)، فتح القدير: (٤/ ٤٥٦).
وقد ذكر عدد من المفسرين بأن هذا الوعيد في أبي لهب وولده. انظر: أسباب النزول: (ص: ٣١٠)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٢٧)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦١)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٣٢٣)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٢٢)، روح المعاني: (٢٣/ ٢٥٨). قال صاحب التسهيل: (٣/ ١٩٤): (واللفظ أعم من ذلك).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٢٠٩)، المفردات: (ص: ٣٠٠)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٥٠)، فتح القدير: (٤/ ٤٥٦).

## المبحث الثالث

## القلوب المتكبرة

الكبر والكبرياء: العظمة والتجبر، والتكبّر: التعظّم، والاستكبار: الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبرًا.[1]

قال الراغب: (الكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، وأعظم التكبر التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق، والإذعان له بالعبادة).[2]

وقد ورد وصف القلوب بالتكبر في قول الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

**في لفظ ﴿قَلْبِ﴾ من هذه الآية الكريمة قراءتان ثابتتان[3]:**

**الأولى:** إضافة ﴿قَلْبِ﴾ إلى ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ أي بدون تنوين.

**الثانية:** تنوين ﴿قَلْبِ﴾ على أن ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ صفة له، و﴿جَبَّارٍ﴾ صفة ثانية.

---

(١) انظر: لسان العرب: (٥/ ٣٨٠٨، ٣٨١٠).

(٢) المفردات: (ص: ٤٢٣ – ٤٢٤)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٣٢٥ – ٣٢٦).

(٣) قرأ أبو عمرو وابن ذكوان ﴿قَلْبِ﴾ بالتنوين، وقرأ الباقون بإضافة ﴿قَلْبِ﴾ إلى ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ أي بدون تنوين. انظر: سراج القارئ: (ص: ٣٤٢)، النشر: (٢/ ٤٧٣)، حجة القراءات: (٦٣٠).

ووصف القلب بالتكبر والتجبر - على هذه القراءة الثانية - باعتبار أن القلب هو محل التكبر والتجبر في الإنسان، ومركزهما اللذان ينبعثان منه، فالقلب هو الذي يتكبر ويتجبر في الأصل، ثم تتبعه بعد ذلك الأعضاء والجوارح.[1]

والمراد بتكبر القلب في الآية تعاظمه عن توحيد الله سبحانه، وترفّعه عن الإذعان له جل وعلا بالعبادة، واستكباره عن الإيمان برسله عليهم السلام.[2]

أما وصف القلب بالتجبّر ﴿قلبِ متكبرٍ جبارٍ﴾ فهو وثيق الصلة بوصف التكبر، ويقاربه ويرجع إليه في المعنى، ولذلك فسّر أحدهما بالآخر.

قال أهل اللغة: الكبر والكبرياء: العظمة والتجبر.

وقالوا: تجبر الرجل: تكبر، والجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقا، والمتكبر عن عبادة الله تعالى، وقلب جبار: ذو كبر لا يقبل موعظة.[3]

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ١٧١)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٢٠٥)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٣٤٠)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٦٥)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٧٦)، فتح القدير: (٤/ ٤٨٩)، إبراز المعاني: (٢/ ٦٧١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٦٤)، زاد المسير: (٧/ ٤٣)، وفي هذا الاتجاه يكون القلب المتكبر في مقابل القلب المخبت.

يقول ابن القيم: (أما القلب المتكبر فإنه قد اهتزّ بتكبّره وربا، فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليها الماء) الروح: (ص: ٢٩٠).

(٣) انظر: لسان العرب: (١/ ٥٣٥، ٥/ ٣٨١٠)، ترتيب القاموس: (١/ ٤٣٦ - ٤٣٧).



قال الراغب: (الجبار في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم).[1]

وبهذا المعنى قال المفسرون في تفسير لفظ ﴿جَبَّارٍ﴾ بالآية الكريمة.

قال ابن جرير (جبار: يعني متعظم عن اتباع الحق).[2]

وقال الراغب: (أي متعال عن قبول الحق والإيمان له).[3]

وهناك آية أخرى تضمنت إسناد الكبر إلى القلوب هي قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

والآية في المشركين[4] الذين ذكر الله ﷻ أنهم: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾.

قال ابن كثير: (أي يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة، بلا برهان ولا حجة من الله).[5]

---

(١) المفردات: (ص: ٩٣).

(٢) تفسير الطبري: (٢٤/ ٦٤).

(٣) المفردات: (ص: ٩٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٧٦، ٧٧)، زاد المسير: (٧/ ٤٩)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٢١٢)، التسهيل: (٤/ ٧)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٧١)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٨١)، فتح القدير: (٤/ ٤٩٤).

(٥) تفسير ابن كثير: (٤/ ٨٤)، وانظر: تفسير السمعاني: (٥/ ٢٦)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٦٥).

ثم بينت الآية السبب في اتجاه هؤلاء الكافرين إلى إثارة الشبه بغية طمس الحق، ورد حججه ودلائله ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾.

قال الألوسي: (المراد بالصدور القلوب، أطلقت عليها للمجاورة والملابسة).[1]

وقال البقاعي: (آذن ذكر الصدور دون القلوب لعظم الكبر جدًا بأنه قد ملأ القلوب، وفاض منها حتى شغل الصدور التي هي مساكنها).[2]

فالكبر والتعاظم في قلوبهم عن الانقياد لرسول الله ﷺ واتباع الحق معه، هو الذي ينهزهم إلى تكذيبه عليه الصلاة والسلام، والى جداله بالباطل، ومواجهته بالشبهات.

قال ابن الجوزي: (والمعنى ما يحملهم على تكذيبك إلا ما في صدورهم من التكبر عليك، وما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر، لأن الله مذلهم).[3]

وقد ورد إسناد الكبر إلى القلوب أيضًا في حديث رسول الله ﷺ.

---

(١) روح المعاني: (٢٤/ ٧٨)، وانظر: تفسير البغوي: (٤/ ١٠١).

(٢) نظم الدرر: (٦/ ٥٢٦).

(٣) زاد المسير: (٧/ ٤٩)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٧٦-٧٧)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (٣٨٧)، تفسير الزمخشري: (٤/ ١٧٨)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٦٥)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٧١)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٨٤).



عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر].[1]

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء].[2]

وفي الحديثين دلالة على أن أساس الكبر ومحله في القلب.

كما يفيد الحديثان خطورة الكبر بكل صوره، حيث يمكن أن يصل بالإنسان إلى الاستكبار عن عبادة الله تعالى، والتعاظم عن الاستسلام له سبحانه، فيكون كافرًا مشركًا بالله جل شأنه، إذ الكبر يتنافى مع حقيقة العبودية لله جل وعلا.

**وللعلماء في المراد بلفظ الحديث أقوال، أقواها القولان الآتيان:**

**الأول**: أن المراد الكبر المنافي للإيمان، والذي يمنع صاحبه من الاستسلام لله سبحانه، والإذعان لعبوديته تبارك وتعالى، فإن هذا لا يدخل الجنة أصلًا إذا مات على التكبر عن الإيمان بالله ﷻ.

وفي الحديث ما يشهد لهذا المعنى، إذ جعل الرسول ﷺ الإيمان مقابلًا للكبر فقال: [لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه: (١/ ٩٣).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه: (١/ ٩٣).

قال ابن الأثير في بيان معنى الكبر في الحديث: (يعني كبر الكفر والشرك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ألا ترى أنه قابله في نقيضه بالإيمان فقال: [ولا يدخل النار من في قلبه مثل ذلك من الإيمان] أراد دخول تأبيد).[1]

**الثاني**: أن المراد الكبر فيما هو دون الإيمان بالله وتوحيده، حين يدفع التكبر صاحبه إلى ردّ حق أو احتقار مسلم.

وهذا المتكبر من المؤمنين هو من أهل الوعيد الذي لا يستحق دخول الجنة أولًا، إلا أن يغفر الله له سبحانه، أو يدخل النار ليجازى فيها ما شاء الله ثم يدخل الجنة.

وقد رجح أبو عمرو ابن الصلاح هذا القول فقال: (والظاهر أن المراد به مطلق التكبر عن الحق وعلى الناس، ثم يجوز أن يكون المراد بقوله: [لا يدخل الجنة] أنه لا يدخلها مع أهلها إذا فتحت أبوابها للمتقين، ويجوز أن يكون المراد أن ذلك جزاء كبره إن جازاه، وقد لا يجازيه فيدخلها كرمًا منه وفضلًا وعفوًا).[2]

وهو ترجيح النووي أيضًا.[3]

---

(١) النهاية في غريب الحديث: (٤/ ١٤٣)، وانظر: صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢٧٠)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٩١)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٩٦).

(٢) صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢٧٠ – ٢٧١).

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٩١).



وعلى القول الأول فالحديث في أهل الكفر والشرك، وعلى القول الثاني فالحديث في أهل الإيمان والتوحيد.[1]

وقد جمع ابن تيمية بين القولين في توجيه معنى الحديث فقال: (الكبر المباين للإيمان لا يدخل صاحبه الجنة، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، ومن هذا كبر إبليس وكبر فرعون وغيرهما، ممن كان كبره منافيًا للإيمان، وكذلك كبر اليهود والذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

والكبر كله مباين للإيمان الواجب، فمن في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يفعل ما أوجب الله عليه ويترك ما حرم عليه، بل كبره يوجب له جحد الحق واحتقار الخلق).[2]

---

(١) ومن الأقوال: أن المراد سلامة قلبه من الكبر حال دخوله الجنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، إذ يُنزع ما في قلبه من الكبر إذا أدخل الجنة. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ١٤٣)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٩١)، وهذا القول بعيد، إذ المتأمل في الحديث يلحظ أن مقصده التحذير من الكبر وبيان خطره، وذلك القول يتعارض مع هذا المقصد والله أعلم. انظر: صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢٧٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٧).

(فمن كان مضيّعًا للحق الواجب، ظالمًا للخلق، لم يكن من أهل الجنة ولا مستحقًا لها، بل يكون من أهل الوعيد، فقوله: [لا يدخل الجنة] متضمن لكونه ليس من أهلها، ولا مستحقًا لها، لكن إن تاب، أو كانت له حسنات ماحية لذنبه، أو ابتلاه الله بمصائب كفر بها خطاياه، ونحو ذلك، زال ثمرة هذا الكبر المانع له من الجنة، فيدخلها، أو غفر الله له بفضل رحمته من ذلك الكبر من نفسه، فلا يدخلها ومعه شيء من الكبر، ولهذا قال من قال في هذا الحديث وغيره: إن المنفي هو الدخول المطلق الذي لا يكون معه عذاب، لا الدخول المقيد الذي يحصل لمن دخل النار ثم دخل الجنة، فإنه إذا أطلق في الحديث فلان في الجنة، أو فلان من أهل الجنة، كان المفهوم أنه يدخل الجنة ولا يدخل النار.

فإذا تبين هذا كان معناه أن من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ليس هو من أهل الجنة، ولا يدخلها بلا عذاب، بل هو مستحق للعذاب لكبره، كما يستحقها غيره من أهل الكبائر، ولكن قد يعذب في النار ما شاء الله، فإنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد).[1]

ثم قال: (وعلى هذا فالحديث عام في الكفار وفي المسلمين).[2]

(١) مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٨ - ٦٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٩).



## المبحث الرابع

## القلوب المشمئزة

قال أهل اللغة: اشمأز، اشمئزازا: انقبض، واجتمع بعضه إلى بعض، واشمأز الشيء: كرهه. والمشمئز: النافر، الكاره للشيء. والشمز: التقبض، ونفور النفس مما تكره، وتشمز وجهه: تمعّر وتقبض.[1]

قال الفيروز ابادي: (الاشمئزاز النُّفْرة).[2]

وقد أسند الاشمئزاز إلى القلوب في قول الله ﷻ:

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

والآية في شأن المشركين المنكرين للبعث والجزاء، تقرّر كراهيتهم لكلمة التوحيد.[3]

والمراد باشمئزاز القلوب في الآية ـ كما قال المفسرون ـ نفورها وانقباضها.[4]

(١) انظر: لسان العرب: (٤/ ٢٣٢٤)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٧٥١).

(٢) بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٣٤٤).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٥٦)، التسهيل: (٣/ ١٩٦)، روح المعاني: (٢٣/ ١٠).

(٤) انظر: المفردات: (ص: ٢٦٩)، تفسير الطبري: (٢٤/ ١٠ - ١١)، تفسير الواحدي: (٢/ ٩٣٥)، تفسير السمعاني: (٤/ ٤٧٢)، تفسير الزمخشري: (٤/ ١٣٤)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٣٢٧)، تفسير النسفي: (٣/ ٢٢٤)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٥٧).

هذا النفور والانقباض في قلوب المشركين ينبني على شدة كراهيتها لتوحيد الله تعالى، وعظم تعلقها بمحبوباتها من الأوثان المعبودة من دون الله سبحانه.

ولذا كان المشركون ـ كما بينت الآية الكريمة ـ إذا أفرد الله جل شأنه بالذكر، اعترافًا له بالوحدانية جل وعلا، خفقت قلوبهم بالبغض والكره، فنفرت وانقبضت، معرضة مستكبرة ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾.

قال ابن جرير: (إذا أفرد الله جل ثناؤه بالذكر فدعي وحده، وقيل: لا إله إلا الله).[1]

وذلك يشمل ما كان متضمنًا في آية مما يتنزل من كلام الله تعالى، أو في حديث على لسان رسول الله ﷺ يدعوهم فيه إلى توحيد الله، أو جهرًا بكلمة (لا إله إلا الله) يقولها أحد المؤمنين.

فالقضية التي تشمئز منها قلوب الكفار تحديدًا هي قضية التوحيد، والتي تنفي كل الأوثان المدعاة آلهة من دون الله ﷻ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ ويفهم من ذلك أن لا إشكال لديهم في أن يُذكر الله تعالى إلى جانب أصنامهم وأوثانهم ضمن دائرة الشرك.

(١) تفسير الطبري: (٢٤/ ١٠)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٥٦)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٥).



هذا النفور من الحق يثمر عند هؤلاء المشركين تركًا له، واستنكافًا عنه، وإصرارًا على ضدّه من الباطل المتمثّل في عبوديتهم لغير الله جل وعلا.[1]

وفي مقابل ذلك فإن ذكر معبوداتهم يدخل على قلوبهم مشاعر البهجة والسرور، إذ خلت القلوب من الحق فكانت محلًا للباطل، و(قلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر)[2] يقول ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

والاستبشار هو الفرح والسرور.[3]

قال الزمخشري: (مدار المعنى على قوله: ﴿وَحْدَهُ﴾، أي إذا افرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم اشمأزوا، أي نفروا وانقبضوا، وإذا ذكر الذين من دونه، وهم آلهتهم، ذكر الله معهم أو لم يذكر، استبشروا لافتتانهم ونسيانهم حق الله إلى هواهم فيها).[4]

وقد عبرت الآية عن موقفهم في الحالتين بالاشمئزاز والاستبشار، وهما في الأصل أمران قلبيان يظهر أثرهما على الوجه.

(١) انظر: شجرة المعارف والأحوال: (ص: ١٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٦).

(٣) انظر: تفسير السمعاني: (٤/ ٤٧٢)، تفسير البغوي: (٤/ ٨١)، زاد المسير: (٧/ ٢٠)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٦).

(٤) تفسير الزمخشري: (٤/ ١٣٤).

والمعنيان متقابلان، فالاشمئزاز امتلاء القلب بالكراهية والكبر، والانقباض والنفور، فيثمر ذلك عبوسًا وانقباضًا في الوجه، وضدّ ذلك الاستبشار، إذ يمتلئ القلب فرحًا وبهجة وسرورًا، فيظهر أثر ذلك على الوجه تهلّلًا وانبساطًا[1]، وهو ما يبدو على وجوه المشركين حين تذكر آلهتهم، إيذانا بانتكاس الفطرة لديهم واختلال الموازين.

(١) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ١٣٤، ٧/ ٤٣١)، نظم الدرر: (٦/ ٤٥٦).



## المبحث الخامس

## القلوب المرتابة

الارتياب، والرَّيْب، والرِّيبة: الشك.

يقال: رابني الشيء، وأرابني، إذا أدخل عليك شكًّا وخوفًا. وارتاب فيه: أي شك فيه.[1]

وقد ورد هذا المعنى مسندًا إلى القلوب في آيتين من كتاب الله تعالى.

**الآية الأولى**: قول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥].

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في شأن المنافقين، الذين كانوا يستأذنون رسول الله ﷺ في القعود عن الجهاد معه دون عذر أو حاجة، وذلك في غزوة تبوك.[2]

**وقد وصفتهم الآية بوصفين:**

**الأول**: الكفر بالله واليوم الآخر، وإن أظهروا الإيمان بألسنتهم، وأقروا به بأفواههم، لكنهم في حقيقة الأمر ثابتون على الكفر، لا يصدقون بالله

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤١١)، لسان العرب: (٣/ ١٧٨٨).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٩)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٦٠) المنافقون في القرآن الكريم للحميدي، ط١، دار المجتمع: (ص: ٣٦١، ٣٧٥).

سبحانه، ولا يقرون بتوحيده، منكرون لما أخبر به من البعث والجزاء في الآخرة، ولذا فهم لا يرجون ثوابه في أمر الجهاد أو غيره من أعمال الإسلام[1] ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾.

والخطاب للرسول ﷺ، والمعنى: إنما يستأذنك في ترك الجهاد والتخلف عن الغزو، من يتصف بصفات منها عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، وذلك باعتبار أن هذا الإيمان هو الذي ينهز المؤمن إلى الجهاد، طلبًا لمرضاة الله تبارك وتعالى وعطائه الأخروي.

قال البيضاوي: (تخصيص الإيمان بالله ﷻ واليوم الآخر في الموضعين[2] للإشعار بأن الباعث على الجهاد، والوازع عنه، الإيمان، وعدم الإيمان بهما).[3]

**الوصف الثاني**: أن قلوبهم مرتابة، ملؤها الشك والاضطراب والحيرة ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

والمفسرون على أن المراد بالارتياب الشك فيما جاءهم به رسول الله ﷺ

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٠/ ١٤٣)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٦٠).

(٢) أي ما ورد في هذه الآية، وما ورد في الآية السابقة لها ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤٤].

(٣) تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٠٦)، وانظر: روح المعاني: (١٠/ ١١٠)، فتح القدير: (٢/ ٣٦٢)، تفسير ابن عاشور: (١٠/ ٢١٢).



من قضايا التوحيد والرسالة والبعث والجزاء وغير ذلك مما تنزل به الوحي الإلهي.[1]

قال القرطبي: (شكت في الدين).[2]

وقال ابن كثير: (شكت في صحة ما جئتهم به).[3]

وقال ابن جرير: (شكت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله، وفي ثواب أهل طاعته، وعقابه أهل معاصيه).[4]

والأقوال متقاربة المعنى.

والتعبير عن هذا الوصف بالفعل الماضي يدل على رسوخ الشك، وتحققه في قلوب أولئك المنافقين.[5]

وبسبب هذا الارتياب في القلوب وقع المنافقون في دائرة الحيرة، وتقلبوا في منازل الاضطراب، لا يطمئنون إلى هدى، ولا يسكنون إلى حق، بل يترددون في الاختيار، ويتذبذبون في الاعتقاد.

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (٦/ ١٨٠٧)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٦٢ – ٦٣)، تفسير السمعاني: (٢/ ٣١٣)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٩٧)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٩)، التسهيل: (٢/ ٧٧)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٤٨).

(٢) تفسير القرطبي: (٨/ ٩٩)، وانظر: تفسير النسفي: (١/ ٦٥٤).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٦١).

(٤) تفسير الطبري: (١٠/ ١٤٣).

(٥) انظر: تفسير أبي السعود: (٤/ ٧٠)، روح المعاني: (١٠/ ١١٠)، فتح القدير: (٢/ ٣٦٢)، تفسير ابن عاشور: (١٠/ ٢١٣).

﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ والريب هو الشك المستقر في القلوب.[1]

قال ابن جرير: (في شكهم متحيرون، وفي ظلمة الحيرة مترددون، لا يعرفون حقًا من باطل، فيعملون على بصيرة، وهذه صفة المنافقين).[2]

وقال ابن كثير: (أي يتحيرون، يقدمون رجلًا ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء).[3]

وتفسير التردد بالحيرة هو قول عامة المفسرين.[4]

ومعنى التردد في الأصل الذهاب والرجوع في المحل الواحد، وعبّر به عن التحيّر، لأن المتحيّر عادة تضطرب حركته، ولا يستقر في مكان.[5]

قال الزمخشري: (﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ عبارة عن التحير، لأن التردد ديدن المتحير، كما أن الثبات والاستقرار ديدن المستبصر).[6]

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٦٣)، تفسير القرطبي: (٨/ ٩٩)، تفسير أبي السعود: (٤/ ٧٠).

(٢) تفسير الطبري: (١٠/ ١٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٦١)، وانظر: نظم الدرر: (٣/ ٣٢٨).

(٤) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٦٣)، تفسير السمعاني: (٢/ ٣١٣)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٩٧)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٩)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٠٦)، تفسير النسفي: (١/ ٦٥٤)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٤٨)، تفسير أبي السعود: (٤/ ٧٠).

(٥) انظر: تفسير القرطبي: (٨/ ٩٩)، روح المعاني: (١٠/ ١١٠)، تفسير ابن عاشور: (١٠/ ٢١٤).

(٦) تفسير الزمخشري: (٢/ ٢٦٢)، وانظر: تفسير النسفي: (١/ ٦٥٤).



وقال ابن عطية: (والتردد في الآية إنما هو في ريب هؤلاء المنافقين، إذ كانوا تخطر لهم صحة أمر النبي ﷺ أحيانًا، وأنه غير صحيح أحيانًا، ولم يكونوا شاكين طالبين للحق، لأنه كان يتضح لهم لو طلبوه، بل كانوا مذبذبين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كالشاة الحائرة بين الغنمين).[1]

**الآية الثانية:** قول الله تعالى:

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٠].

والآية الكريمة في شأن المنافقين الذين بنوا مسجدًا ظاهره الخير بإقامة الصلاة فيه، وحقيقته الشر بمحاربة الإسلام، من خلال جملة أمور تضمنتها آية سابقة في السياق، هي قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

ولذا أمر رسول الله ﷺ بهدمه.[2]

---

(١) تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٩).

(٢) انظر قصة مسجد الضرار في: تفسير الطبري: (١١/ ٢٣ – ٢٦)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٨٧ – ٨٨)، أسباب النزول: (ص: ٢١٤ – ٢١٥)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٢٦ – ٣٢٧)، تفسير ابن كثير: (٢ / ٣٨٩ – ٣٩٠)، لباب النقول: (ص: ١٢٤ – ١٢٥)، المنافقون في القرآن: (ص: ٣٩٨ – ٤٠٠).

ومسجد الضرار هذا هو المقصود في قول الله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾.

والضمير في الآية يعود إلى المنافقين.[1]

والمراد بيان أثر ذلك البنيان المقترن بالشر والفساد، وعاقبته عليهم.

قال الرازي: (المعنى أن بناء ذلك البنيان صار سببًا لحصول الريبة في قلوبهم، فجعل نفس ذلك البنيان ريبة، لكونه سببًا للريبة).[2]

**وللمفسرين في المراد بالريبة في الآية أقوال:**

**الأول: أن المراد الشك والنفاق.**

وهذا القول مروي عن ابن عباس ﷺ، وقتادة، والحسن، والضحاك، وابن زيد[3]، وهو قول جمهور المفسرين.[4]

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٨٦)، زاد المسير: (٣/ ٣٤١)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٦٩).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (١٦/ ١٩٧)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٤/ ١٠٤)، روح المعاني: (١١ / ٢٣)، تفسير ابن عاشور: (١١/ ٣٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٣٣ - ٣٤)، تفسير ابن أبي حاتم: (٦/ ١٨٨٥)، تفسير الصنعاني: (٢/ ٢٨٨)، زاد المسير: (٣/ ٣٤٢)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٦٩).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٣٣)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧٠)، تفسير السمعاني: (٢/ ٣٥٠)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٢٩)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٢٩٧)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٦٩)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٢٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٩١)، نظم الدرر: (٣/ ٣٨٨)، تفسير أبي السعود: (٤/ ١٠٤)، روح المعاني: (١١/ ٢٣)، تفسير ابن عاشور: (١١/ ٣٦)، تفسير السعدي: (٢/ ٢٨٧).



والمراد أن صنيع أولئك المنافقين كان له أثره في زيادة شكهم، وتعاظم ارتيابهم، واستمرار نفاقهم، إذ كانوا راضين بما قاموا به من محاولة لحرب الإسلام والتآمر عليه، معتقدين أنهم قد أحسنوا التصرّف في بناء المسجد بهدف الإضرار بالمؤمنين، ظانين أن ذلك يلبيّ مصالحهم، ويحقق مقاصدهم.[1]

قال البيضاوي: (والمعنى أن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك، ثم لما هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد، بحيث لا يزول وسمه عن قلوبهم).[2]

واعتبر ابن كثير أن تلك الريبة في قلوبهم كانت عقوبة من الله تبارك وتعالى لهم (بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقًا في قلوبهم).[3]

يقول ابن عاشور: (والمعنى أن ذلك المسجد لما بنوه لغرض فاسد فقد جعله الله سببًا لبقاء النفاق في قلوبهم ما دامت قلوبهم في أجسادهم).[4]

وهو معنى تحتمله الآية الكريمة.[5]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٣٣)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٢٩٧ - ٢٩٨)، فتح القدير: (٢/ ٣٩٩).

(٢) تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٢٢).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٩١).

(٤) تفسير ابن عاشور: (١١/ ٣٦).

(٥) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧٠).

**الثاني: أن المراد الحسرة والندامة.**

وهو اختيار السمرقندي، فقد قال في تفسير الآية: (يعني حسرة وندامة بما أنفقوا فيه، وبما ظهر فيه من أمرهم ونفاقهم).[1]

**الثالث: الحزازة[2] والغيظ.**

(والمعنى: لا يزال هدم بنيانهم حزازة وغيظا في قلوبهم).[3]

والراجح من هذه الأقوال هو القول الأول، إذ الريبة والريب في اللغة بمعنى الشك .

ويبقى القولان الآخران قريبين من معنى الريب باعتبار أثره، وما ترتب عليه لدى المنافقين، بالإضافة إلى أن الريب في اللغة يشتمل أيضًا على معنى الخوف والاضطراب[4]، فلا مانع من القول بأن أولئك المنافقين بعد هدم ما

(١) تفسير السمرقندي: (٢/ ٨٩)، وهو قول مقاتل ومحمد بن السائب الكلبي. انظر: تفسير القرطبي: (٨/ ١٦٩)، زاد المسير: (٣/ ٣٤٢)، تفسير أبي السعود: (٤/ ١٠٤)، فتح القدير: (٢/ ٣٩٩).

(٢) الحزازة: الألم في القلب من الغيظ ونحوه. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٢٢٤)، ترتيب القاموس: (١/ ٦٣٢).

(٣) زاد المسير: (٣/ ٣٤٢)، وهو قول السدي وحبيب بن أبي ثابت، انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٣٤)، تفسير ابن أبي حاتم: (٦/ ١٨٨٥)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٢٥٦)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٦٩)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٢٩)، تفسير السمعاني: (٢/ ٣٥٠).

(٤) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤١١)، لسان العرب: (٣/ ١٧٨٨)، ولذلك يرى ابن تيمية أن الريب أعم من الشك، باعتبار أن الريب يكون في علم القلب وعمله، أما الشك فإنه لا يكون إلا في العلم. انظر: مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٨١، ٢٨/ ٤٢ – ٤٣).

قال ابن القيم ضمن كلامه عن وجوه الفرق بين الشك والريب: (الريب ضد الطمأنينة واليقين، فهو قلق واضطراب وانزعاج، كما أن اليقين والطمأنينة ثبات واستقرار) بدائع الفوائد: (٤/ ٨٥).



بنوه من مسجد الضرار اتسعت دائرة الاضطراب في قلوبهم، فأصيبوا بالحسرة والتأسف على ما بذلوه من المال والجهد دون تحقيق المراد، وبالقلق والخوف من انكشاف تآمرهم، وما يمكن أن يترتب على ذلك من الخطر على حياتهم ومصالحهم، كما زادت الكراهية، وتأصل الغل والغيظ في قلوبهم في مواجهة المؤمنين، فاستمر تصميمهم على الكفر، ومقتهم للإسلام، وكل ذلك يضاف إلى ما استمر في قلوبهم من النفاق، وما زاد من الشك.[1]

يقول ابن عطية: (ومعنى الريبة في هذه الآية أمر يعمّ الغيظ والحنق، ويعمّ اعتقاد صواب فعلهم ، ونحو هذا مما يؤدي كله إلى الريبة في الإسلام، فمقصد الكلام: لا يزال هذا البنيان الذي هدم لهم يبقى في قلوبهم حزازة وأثر سوء) ثم قال: (ويحتمل أن يكون المعنى: لا يزالون مريبين بسبب بنائهم الذي اتضح فيه نفاقهم، وجملة هذا أن الريبة في الآية تعمّ معاني كثيرة يأخذ كل منافق منها بحسب قدره في النفاق).[2]

**وأما قوله تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ[3] قُلُوبُهُمۡ﴾ فللمفسرين في المعنى**

(١) انظر: المفردات: (ص: ٢١٤)، تفسير الفخر الرازي: (١٦/ ١٩٧ – ١٩٨)، تفسير النسفي: (١/ ٦٨٣)، فتح القدير: (٢/ ٣٩٩).

(٢) تفسير ابن عطية: (٣/ ٨٦).

(٣) قرأ يعقوب بتخفيف اللام على أنه حرف جر ﴿إلى﴾ وقرأ باقي العشرة بتشديده على أنه حرف استثناء ﴿إِلَّآ﴾، وقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب وحمزة بفتح التاء ﴿تَقَطَّعَ﴾ وأصلها: تتقطع، على أن الفعل للقلوب، وقرأ الباقون بضمها ﴿تُقَطَّعَ﴾ بمعنى: إلا أن يقطع الله قلوبهم. انظر: النشر: (٢/ ٢١١)، سراج القارئ: (ص: ٢٣٩)، والقراءتان متقاربتان في المعنى. انظر: تفسير الطبري: (١٠/ ٣٥)، حجة القراءات: (ص: ٣٢٤).

المراد قولان رئيسان:

**الأول: أن المراد بتقطع القلوب الموت.**

وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والضحاك، وزيد بن أسلم، وغيرهم.[1]

وهو قول جماعة من المفسرين منهم الفراء[2]، وابن جرير[3]، والزجاج[4]، والسمرقندي[5]، والبغوي[6]، وابن كثير.[7]

والمراد كشف ما تحويه قلوبهم من التصميم على النفاق، والتشبث بالكفر والعداء، والاستنكاف عن تصحيح الدواخل، وإصلاح المعتقد.

قال الشوكاني: (والمقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء).[8]

وفي التعبير عن الموت بتقطع القلوب إشارة إلى الحالة النفسية للمنافقين، الجامعة بين الخوف والحقد والقلق.[9]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٣٣ - ٣٤)، تفسير ابن أبي حاتم: (٦/ ١٨٨٥)، تفسير الصنعاني: (٢/ ٢٨٨)، الدر المنثور: (٤/ ٢٩٣)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٩١)، فتح القدير: (٢/ ٤٠٢).

(٢) انظر: معاني القرآن: (١/ ٤٥٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٣٣).

(٤) انظر: معاني القرآن: (٢/ ٤٧١).

(٥) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٨٩).

(٦) انظر: تفسير البغوي: (٢/ ٣٢٩).

(٧) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٩١).

(٨) فتح القدير: (٢/ ٣٩٩)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (١٦/ ١٩٨)، نظم الدرر: (٣/ ٣٨٨).

(٩) انظر: المنافقون في القرآن الكريم: (ص: ٤٠٤).



**الثاني: أن المراد بتقطع القلوب التوبة.**

والمعنى: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع منها قلوبهم، كناية عن شدة الندم، وعظم الأسف.[1]

قال السمعاني: (جعل الندامة في القلب بمنزلة تقطع في القلب).[2]

واختاره السعدي فقال: (﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ بأن يندموا غاية الندم، ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبًا إلى ريبهم ونفاقًا إلى نفاقهم).[3]

قال ابن عطية معلّقًا على هذا القول: (وليس هذا بالظاهر، إلا أن يتأول: أو يتوبوا توبة نصوحًا يكون معها من الندم والحسرة على الذنب ما يقطع القلوب همًا وفكرة).[4]

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧١)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٢٥٦)، حجة القراءات: (ص: ٣٢٤)، زاد المسير: (٣/ ٣٤٢)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٦٩).

(٢) تفسير السمعاني: (٢/ ٣٥٠).

(٣) تفسير السعدي: (٢/ ٢٨٧).

(٤) تفسير ابن عطية: (٣/ ٨٦).

## المبحث السادس

## القلوب المنكرة

من معاني الإنكار في اللغة: الجحود، والجهل.

يقال: نكِر الشيء وأنكره: لم يقبله قلبه ولم يعترف به لسانه، والمنكر من الأمر ضدّ المعروف، والإنكار خلاف الاعتراف.(١)

قال الراغب: (الإنكار ضد العرفان، يقال: أنكرت كذا، ونكرت، وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره، وذلك ضرب من الجهل).(٢)

**وقد ورد وصف القلوب بالإنكار في قول الله تعالى:**

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢].

في أول هذه الآية الكريمة تقرير لتوحيد الله جل شأنه، وأنه المستحق للعبادة وحده سبحانه ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾، ثم تبين الآية أن قلوب المشركين تنكر هذا التوحيد لله تبارك وتعالى(٣) ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ١٠٠٩)، لسان العرب: (٦/ ٤٥٣٩)، ترتيب القاموس: (٤/ ٤٣٦ - ٤٣٧).

(٢) المفردات: (ص: ٥٠٧).

(٣) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٢٦٩)، تفسير النسفي: (٢/ ٢٠١)، التسهيل: (٢/ ١٥١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٦٦).

﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾.

قال ابن الجوزي: (أي جاحدة لا تعرف التوحيد).[1]

عن قتادة قال في تفسير الآية: (﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ لهذا الحديث الذي مضى، وهم مستكبرون عنه).[2]

وهذا الحديث الذي مضى في الآيات مشتمل على بيان قدرة الله تعالى، واستحقاقه للألوهية، وانفراده ﷻ بها.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فالذين لا يصدقون بوعد الله ووعيده، ولا يقرون بالمعاد إليه بعد الممات، قلوبهم منكرة، يقول تعالى ذكره: مستنكرة لما نقصّ عليهم من قدرة الله وعظمته، وجميل نعمه عليهم، وأن العبادة لا تصلح إلا له، والألوهية ليست لشيء غيره).[3]

وفسّر القرطبي معنى ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ بقوله: (أي لا تقبل الوعظ ولا ينفع فيها الذكر).[4]

وهو تفسير للإنكار بسببه، أي لشدة جهالتها، وانهماكها في الشرك،

(١) زاد المسير: (٤ / ٣٢٠)، وانظر: تفسير الواحدي: (١/ ٣٠٦)، تفسير السمعاني: (٣/ ١٦٥)، تفسير البغوي: (٣/ ٦٥)، تفسير أبي السعود: (٥/ ١٠٦)، تفسير القاسمي: (١٠/ ٩٣).

(٢) تفسير الطبري: (١٤/ ٩٤)، الدر المنثور: (٥/ ١١٩).

(٣) تفسير الطبري: (١٤/ ٩٤).

(٤) تفسير القرطبي: (١٠/ ٦٣)، وانظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٢٦٩).



واستكبارها عن النظر في دلائل التوحيد، فقد اختلّ فيها أصل الفطرة، وغلب عليها الخبث، وأصبحت محلًا للباطل، فلا تعرف الخير، ولا تتأثر بالبرهان، ولا تستجيب للتذكير، ومن ثمَّ تأبى وتنكر، دون تأمل في الحق، أو تبصّر في العاقبة.

والآية الكريمة قريبة المعنى من قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] فقلوبهم تنقبض وتنفر، ثم تجحد وتنكر، ولذا يبدي كفار قريش عجبهم ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] فقضية التوحيد لديهم مستغربة مستنكرة.[1]

وإنكار القلوب للتوحيد ناشئ ـ كما تشير الآية الكريمة ـ عن عدم الإيمان بالآخرة ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾.

قال أبو السعود: (وبناء الحكم المذكور على الموصول للإشعار بكونه معللًا بما في حيّز الصلة، فإن الكفر بالآخرة، وبما فيها من البعث والجزاء المتنوع إلى الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، يؤدي إلى قصر النظر على العاجل، والإعراض عن الدلائل السمعية والعقلية، الموجب لإنكارها وإنكار مؤداها، والاستكبار عن اتباع الرسول ﷺ وتصديقه، وأما الإيمان

(١) انظر: تفسير الثعالبي: (٢/ ٣٠٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٦٦)، تفسير القاسمي: (١٠/ ٩٣).

بها وبما فيها فيدعو ـ لا محالة ـ إلى التأمل في الآيات والدلائل، رغبة ورهبة، فيورث ذلك يقينًا بالوحدانية، وخضوعًا لأمر الله تعالى).[1]

وأصل الإنكار في القلب، ثم تظهر لوازمه على الجوارح.

يقول الألوسي: (وإسناد الإنكار إلى القلوب لأنها محله، وهو أبلغ من إسناده إليهم).[2]

هذا الإنكار القلبي للحق والهدى يتأسس على مجموعة من البواعث يأتي في مقدمتها الهوى والكبر، كما تشير إليه خاتمة الآية الكريمة.

يقول ابن تيمية: (ثم الهوى قد يعترض له ـ أي للقلب ـ قبل معرفة الحق، فيصده عن النظر فيه، فلا يتبين له الحق، كما قيل: حبك الشيء يعمي ويصمّ، فيبقى في ظلمة الأفكار، وكثيرًا ما يكون ذلك عن كبر يمنعه عن أن يطلب الحق ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾).[3]

(١) تفسير أبي السعود: (٥/ ١٠٦)، وانظر: تفسير البيضاوي: (١/ ٥٤١)، تفسير ابن عاشور: (١٤/ ١٢٨).

(٢) روح المعاني: (١٤/ ١٢١)، وانظر: المفردات: (ص: ٥٠٧).

(٣) مجموع الفتاوى: (٩/ ٣١٤)، وانظر: نظم الدرر: (٤/ ٢٥٨).



## المبحث السابع
## القلوب الزائغة

أصل الزيغ في اللغة الميل، يقال: زاغ الشيء يزيغ: أي مال. وزاغت الشمس: أي مالت، وزاغ الرجل عن الطريق: إذا عدل عنه، وأزاغه: أي أماله.[1]

قال الراغب: (الزيغ الميل عن الاستقامة).[2]

**وقد ورد هذا المعنى مسندًا إلى القلوب في أربع آيات من الكتاب العزيز.**

١. يقول الله سبحانه:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧].

وهذه الآية الكريمة تذمّ أصحاب القلوب الزائغة الذين يتبعون المتشابه من القرآن لأغراض ومقاصد خبيثة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾.

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٤٥)، لسان العرب: (٣/ ١٩٠٠)، ترتيب القاموس: (٢/ ٤٩٩).

(٢) المفردات: (ص: ٢٢٢).

وللعلماء في المتشابه أقوال وعبارات كثيرة[1]، منها أن: (المتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك نحو الخبر عن وقت مخرج ابن مريم، ووقت طلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناء الدنيا، وما أشبه ذلك).[2]

وقد مال ابن جرير إلى هذا القول، واعتبره (أشبه بتأويل الآية)[3]، واختاره القرطبي وقال: (هذا أحسن ما قيل في المتشابه).[4]

وتوسَّع آخرون في المراد بالمتشابهات.

قال ابن كثير في قوله سبحانه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: (فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم)[5] (أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم[6]، وقد تحتمل شيئا آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد).[7]

---

(١) انظر: البرهان: (٢/ ٦٩ – ٧٠).

(٢) تفسير الطبري: (٣/ ١٧٤).

(٣) تفسير الطبري: (٣/ ١٧٥).

(٤) تفسير القرطبي: (٤/ ٨).

(٥) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٤).

(٦) المحكم في القرآن ما كان بيّن المعنى واضح الدلالة. انظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٤)، فتح الباري: (١٧/ ٦٩)، وللعلماء في تعريفه أقوال. انظر: الإتقان للسيوطي: (٢/ ٥ – ٦)، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان: (ص: ١٩٣).

(٧) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٤).



وقال ابن عطية: (المتشابهات هي التي فيها نظر وتحتاج إلى تأويل، ويظهر فيها ببادئ النظر إما تعارض مع أخرى أو مع العقل، إلى غير ذلك من أنواع التشابه، فهذا الشبه الذي من أجله توصف بـ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ إنما هو بينها وبين المعاني الفاسدة التي يظنها أهل الزيغ ومن لم يمعن النظر).[1]

وقال أبو جعفر النحاس: (وأجمع هذه الأقوال أن المحكم ما كان قائمًا بنفسه لا يحتاج إلى استدلال، والمتشابه ما لم يقم بنفسه واحتاج إلى استدلال).[2]

وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة، وهي الأقرب في بيان المقصود من المتشابه، ذلك أن ما يتعلق به أهل الزيغ لا يختص بما استأثر الله جل وعلا بعلمه، بل يتعدّى ذلك إلى ما يشتبه في المراد والدلالة لدى عامة الناس، وإن تمكن العلماء من ردّه إلى المحكم، فبينوا المراد، وأزالوا الشبهة واللبس.

أما زيغ القلوب فهو ميلها عن الحق، وانحرافها عنه.[3]

قال ابن كثير في قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ (أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل).[4]

---

(١) تفسير ابن عطية: (١/ ٤٠٠).

(٢) معاني القرآن: (١/ ٣٤٦)، وانظر: فتح الباري: (١٧/ ٦٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٧٦)، تفسير السمرقندي: (١/ ٢١٩)، تفسير البغوي: (١/ ٢٧٩)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٨٦)، تفسير النسفي: (١/ ١٩٧).

(٤) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٥).

وقال أبو السعود: (أي ميل عن الحق إلى الأهواء الباطلة).[1]

وقد بينت الآية الكريمة أن أصحاب القلوب الزائغة يتتبعون المتشابه من القرآن لتحقيق غرضين ذكرتهما الآية ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾.

**فالغرض الأول:** هو إرادة الفتنة، والمقصود بالفتنة في هذا الموضع اللبس والشبهة.[2]

والمعنى أن الذين في قلوبهم ميل عن الحق، وانحراف عن الهدى، يتركون المحكم من القرآن مما لا اشتباه في دلالته، ويتمسكون بالمتشابه، ويتعلقون به، ويتجهون من خلاله إلى المخاصمة والمجادلة، طلبًا للتلبيس على المؤمنين، وإضلال عوامهم، وإثارة الشبهات في أذهانهم، طعنًا في القرآن، وتشكيكًا في الدين، وذلك بمحاولة إبطال المحكم من كلام الله سبحانه، ونقضه بالمتشابه، واعتبار ذلك دليلًا لباطلهم وضلالهم.[3]

يقول ابن كثير: (﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال

(١) تفسير أبي السعود: (٢/ ٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٨٠ - ١٨١)، تفسير ابن أبي حاتم: (٢/ ٥٩٦ - ٥٩٧)، معاني القرآن للنحاس: (١/ ٣٥٠)، تفسير القرطبي: (٤/ ١١)، الدر المنثور: (٢/ ١٤٨)، تفسير القاسمي: (٤/ ٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٧٦، ١٨٠ - ١٨١)، تفسير البيضاوي: (١/ ١٤٩)، تفسير النسفي: (١/ ١٩٧)، تفسير أبي السعود: (٢/ ٨)، فتح القدير: (١/ ٣١٩).



لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دافع لهم وحجة عليهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي الإضلال لأتباعهم، إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم).[1]

**أما غرضهم الثاني:** فهو إرادة التأويل ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾.

والمراد أن أهل القلوب الزائغة يطلبون تأويل المتشابه، بإرجاعه إلى ما يوافق أهوائهم، ويناسب زيفهم، مما ليس لهم عليه من كتاب الله دليل ولا برهان، أو يطلبون تأويل ما استأثر الله بعلمه، مما لا يمكن الوقوف على حقيقته، فيقعون بذلك في التحريف والتضليل.[2]

وقد اختلف المفسرون في المقصود بالذين في قلوبهم زيغ في الآية الكريمة على أقوال، منها أنهم نصارى نجران الذين جادلوا رسول الله ﷺ في شأن نبي الله عيسى عليه السلام، مستدلين بأن القرآن تضمن أن عيسى كلمة الله وروح منه، محتجين بذلك على باطلهم.[3]

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٥).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٤٠٢)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٨٨)، تفسير البيضاوي: (١/ ١٤٩)، تفسير النسفي: (١/ ١٩٧)، التسهيل: (١/ ١٠٠)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٥)، نظم الدرر: (٢/ ٢٤)، تفسير أبي السعود: (٢/ ٨)، فتح القدير: (١/ ٣١٩)، تفسير ابن عاشور: (٣/ ١٦٢).

(٣) اختار هذا القول ابن جزي الكلبي: التسهيل: (١/ ١٠٠)، والقرطبي: (٤/ ١٠)، والشوكاني: فتح القدير: (١/ ٣١٩)، ورجحه ابن عطية مع القول الثاني: (١/ ٤٠١ - ٤٠٢)، وانظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٧٧-١٨)، روح المعاني: (٣/ ٨٢)، مجموع الفتاوى: (١٣/ ٢٨٦).

ومنها أنهم اليهود الذين ناظروا رسول الله ﷺ في شأن حروف الهجاء في أوائل السور، يريدون الاستدلال بها على مدة بقاء هذه الأمة.[1]

وهناك أقوال أخرى بأن المقصود المشركون، أو المنافقون، أو الخوارج.[2]

وعلى كلٍّ فإن لفظ الآية عام يشمل كل من تتبع المتشابه طلبا للفتنة.

يقول الرازي: (قال المحققون: إن هذا يعمّ جميع المبطلين، وكل من احتج لباطله بالمتشابه، لأن اللفظ عام، وخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ ).[3]

وقال الشاطبي: ( بل تعم كل من اتصف بتلك الأوصاف التي أصلها الزيغ، وهو الميل عن الحق اتباعا للهوى).[4]

وهكذا قال ابن جرير، وابن عطية، والقرطبي، وغيرهم.[5]

---

(١) اختار هذا القول الواحدي: (١/ ١٩٩)، ومال إليه ابن جرير بعد أن رجحه مع القول الأول: تفسير الطبري: (٣/ ١٨٠)، وانظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٢١٩)، التسهيل: (١/ ١٠٠)، روح المعاني: (٣/ ٨٢)، الإتقان: (٢/ ٢٦ - ٢٧)، مجموع الفتاوى: (١٣/ ٢٧٥ - ٢٧٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٧٦ - ١٧٧)، تفسير ابن أبي حاتم: (٢/ ٥٩٥)، تفسير السمعاني: (١/ ٢٩٥)، تفسير البغوي: (١/ ٢٧٩)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٨٦)، زاد المسير: (١/ ٣٠٢)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٦)، الدر المنثور: (٢/ ١٤٧)، روح المعاني: (٣/ ٨٢).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٨٦).

(٤) الاعتصام: (١/ ٦٥).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٨١)، تفسير ابن عطية: (١/ ٤٠١، ٤٠٢)، تفسير القرطبي: (٤/ ١٠)، التسهيل: (١/ ١٠٠)، روح المعاني: (٣/ ٨٢)، فتح القدير: (١/ ٣١٩).



ويشهد لذلك حديث عائشة ﵂ قالت: (تلا رسول الله ﷺ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ .. ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: [إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم]).[1]

وفيه دلالة على أن الزيغ في القلب درجات ومراتب في الضلال، بعضها أسوأ من بعض، فقد يكون الزيغ عن الحق كفرًا، وقد يكون دون ذلك، وأمره عظيم على كل حال.

قال السعدي: (وزيغ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفرًا، وإن كان في شرائعه كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصّر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي).[2]

٢. يقول الله جل شأنه:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾: (٤/ ١٦٥٥)، ومسلم، واللفظ له، في كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه.. (٣/ ٢٠٥٣).

(٢) تفسير السعدي: (٢/ ٢٩٣).

والآية الكريمة في سياق الآية السابقة، متصلة بها، ولذا قال عامة المفسرين[1]: إن ما تشتمل عليه من الدعاء هو من ضمن قول الراسخين في العلم، أي أنهم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، ويدعون ربهم قائلين ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

والمعنى: لا تمل قلوبنا، فتصرفها عن الإيمان والحق، وتجعلها مائلة إلى الكفر والباطل، فنصبح مثل الذين زاغت قلوبهم، فاتبعوا المتشابه من القرآن قصدا للفتنة.

قال ابن كثير: (أي لا تملها عن الهدى، بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ودينك القويم).[2]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٨٦ - ١٨٧)، تفسير البغوي: (١/ ٢٨١)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٩٢)، زاد المسير: (١/ ٣٠٣)، تفسير القرطبي: (٤/ ١٤)، تفسير البيضاوي: (١/ ١٥٠)، التسهيل: (١/ ١٠٠)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٨)، تفسير أبي السعود: (٢/ ٩)، فتح القدير: (١/ ٣٢٢).

ومن المفسرين من جَوّز أن يكون الدعاء منقطعًا عما قبله، بمعنى أنه ليس ضمن قول الراسخين في العلم، وإنما هو تعليم من الله تعالى لعباده أن يدعوه جل وعلا بأن لا يكونوا من أهل الزيغ الذين ذمهم الله سبحانه.

انظر: معاني القرآن للنحاس: (١/ ٣٥٥)، تفسير ابن عطية: (١/ ٤٠٤)، تفسير القرطبي: (٤/ ١٥)، روح المعاني: (٣/ ٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٨)، وانظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٨٧)، تفسير البغوي: (١/ ٢٨١)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٩٢).



٣. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ١١٧].

والآية الكريمة في خبر غزوة تبوك، والتي عايش المؤمنون حينها أحوالا من الضيق والكرب والشدة.[1]

والضمير في قوله جل شأنه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ يعود إلى المهاجرين والأنصار، أي قلوب بعضهم.

قال ابن العربي: (أما هذا، فليس للنبي ﷺ فيه مدخل باتفاق من الموحدين).[2]

ولفظ الزيغ هنا لا يعني الزيغ عن الإيمان، والانحراف عنه بالشك والنفاق، إنما يعني الميل إلى الراحة والدعة، بالقعود والتخلف عن الخروج مع رسول الله ﷺ أصلًا، أو بالرجوع والعودة عن الجهاد بعد مواجهة ما لم يكن في الحسبان من المشقة والشدائد.[3]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٥٥)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧٤)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٣٣)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ١٠٨)، روح المعاني: (١١/ ٤٠)، السيرة النبوية الصحيحة: (٢/ ٥٢٤).

(٢) أحكام القرآن: (٢/ ١٠٢٤)، وانظر: تفسير ابن عاشور: (١١/ ٥٠).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧٤)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٢٦٤)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٩٣)، تفسير السمعاني: (٢/ ٣٥٦)، أحكام القرآن لابن العربي: (٢/ ١٠٢٥)، زاد المسير: (٣/ ٣٤٨)، تفسير أبي السعود: (٤/ ١٠٩)، تفسير السعدي: (٢/ ٢٩٣).

قال البغوي: (لم يرد الميل عن الدين، بل أراد الميل إلى التخلف والانصراف، للشدة التي عليهم).[1]

وذكر بعض المفسرين أن المراد بالزيغ في الآية الميل عن الحق، والشك والارتياب في الدين، بعد ما أصابهم في سفرهم ذلك من الجهد والبلاء.[2]

وعلى كلٍّ فإن هذا الزيغ لم يقع بنصّ الآية الكريمة.

قال أبو حيان: (وكاد تدل على القرب لا على التلبّس بالزيغ).[3]

٤. يقول الله جل وعلا:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

هذه الآية الكريمة في شأن أهل الكفر من بني إسرائيل، الذين كذبوا نبي الله موسى عليه السلام وعصوه، وقابلوه بالاقتراحات تعنتًا، وآذوه بأنواع الأذى، مع علمهم أنه رسول الله حقًا، فعاقبهم الله تعالى على صنيعهم ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

فالسبب المستتبع للعقوبة هو الزيغ، والمراد به الميل عن الهدى إلى الضلال.

(١) تفسير البغوي: (٢/ ٣٣٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٥٤)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٩٧).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٥/ ١٠٩)، وانظر: تفسير ابن عاشور: (١١/ ٥٠).



والعقوبة هي إزاغة القلب، والمراد إمالته عن الهدى.[1]

والمعنى: أنهم لما عدلوا عن الاستقامة، وانصرفوا عن الحق، واختاروا طريق الضلال، وارتضوا منهج الغواية، وقصدوا مسالك الزيغ، مصرين معاندين، مع علمهم بمورد الحق وسبيل الهدى، جازاهم الله تعالى بأن أضلهم، وأمال قلوبهم عن الهداية، وصرفها عن الحق والصواب.[2]

قال الراغب: (لما فارقوا الاستقامة عاملهم بذلك).[3]

وقال الزجاج: (عدلوا عن الحق، وانصرفوا عنه، فأضلهم الله وصرف قلوبهم).[4]

وقال ابن كثير: (لما عدلوا عن اتباع الحق، مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان).[5]

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٣/ ٣٣٢، ١٤/ ١٥٢)، شفاء العليل: (ص: ٢١١، ٢١٦)، أضواء البيان: (٤/ ١٤٥، ٧/ ١١٠ - ١١١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٨/ ٨٦)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٩٣)، تفسير السمعاني: (٥/ ٤٢٥)، تفسير البغوي: (٤/ ٣٣٧)، تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٠٢)، تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٣١٢)، زاد المسير: (٨/ ١٦)، تفسير القرطبي: (١٨/ ٥٤)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٨٩)، التسهيل: (٤/ ١١٧)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٢٤٣)، فتح القدير: (٥/ ٢٢٦).

(٣) المفردات: (ص: ٢٢٢).

(٤) معاني القرآن: (٥/ ١٦٤).

(٥) تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٦٠)، وانظر: مجموع الفتاوى: (٨/ ٢٢٢، ١٣/ ٢٤٥)، الفوائد: (ص: ١٦٨).

وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ مقرر للمضمون السابق، دال عليه، مؤكد لمعناه، مشير إلى علته.

قال الشوكاني: (والمعنى أنه لا يهدي كل متصف بالفسق، وهؤلاء من جملتهم).[1]

يقول السعدي: (﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي الذين لم يزل الفسق وصفا لهم، ليس لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعبيده ليس ظلمًا منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ وتقليب القلوب، عقوبة لهم، وعدلا منه بهم).[2]

وما تضمنه كلام السعدي هنا من تقليب القلوب هو الوارد في قول الله ﷻ في شأن مشركي قريش[3] ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ[4] أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠].

(١) فتح القدير: (٥/ ٢٢٦)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٣١٢).

(٢) تفسير السعدي: (٥/ ٢٣٠)، وانظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٨٧)، مجموع الفتاوى: (١٤/ ٣٣٥، ١٨/ ١٧٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ٣١١ - ٣١٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٦٤).

(٤) قال ابن عطية: (٢/ ٣٣٤) (الضمير في ﴿بِهِۦٓ﴾ يحتمل أن يعود على الله ﷻ، أو على القرآن، أو على النبي ﷺ) وتابعه أبو حيان. انظر: تفسير البحر المحيط: (٤/ ٢٠٤)، وهذه الأقوال متقاربة ومتلازمة.



والتقليب تحويل الشيء من وجه إلى وجه، وصرفه وتغييره من حال إلى حال.[1]

والمعنى: أنهم تركوا الإيمان، فلم يبادروا إليه أول ما جاءهم داعيه، واستكبروا عن الاستجابة لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فعاقبهم الله تعالى بتقليب أفئدتهم، وصرفها عن طريق الهداية، وإبقائها في كفرها وضلالها، غير قابلة للحق.[2]

يقول السعدي في تفسير الآية: (أي ونعاقبهم، إذ لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم، وهذا من عدل الله وحكمته بعباده ، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق كان مناسبا لأحوالهم).[3]

**ومن هذا الباب أيضًا قول الله تعالى:**

(١) انظر: المفردات: (ص: ٤١٢)، لسان العرب: (٥/ ٣٧١٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ٣١٥)، تفسير الواحدي: (١/ ٣٧٠)، إملاء ما من به الرحمن: (١/ ٢٥٧)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٢٠٣)، التسهيل: (٢/ ١٩)، مجموع الفتاوى: (١٨/ ١٧٧، ١٤/ ٣٣٨)، شفاء العليل: (ص: ٢١٤)، الفوائد: (ص: ١٦٨)، فتح الباري: (١٣/ ٣٧٧)، طبعة دار الفكر.

(٣) تفسير السعدي: (٢/ ٥٩).

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٧].

والمقصود بالآية المنافقون، والضمير في: ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾ يعود إليهم.[1]

والمعنى أنهم كانوا إذا نزلت سورة تفضحهم، وتذكر بعض معايبهم تبادلوا النظرات على سبيل التغامز والإيماء، نافرين متضايقين، راغبين في الانسحاب والانتقال عن مجلس الوحي الذي يكشف سترهم، ولذلك يتلفتون فيما بينهم متسائلين ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ من المؤمنين في حال قيامنا وخروجنا.[2]

ثم يتسللون منصرفين عن مجلس رسول الله ﷺ بأبدانهم، معرضين عن الهدى بقلوبهم، مصممين على الكفر والتكذيب.

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ يحتمل الانصراف الحسي عن المكان

(١) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٥)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٩٩)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٩٠)، المنافقون في القرآن: (ص: ٤٢٧).

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء: (١/ ٤٥٥)، تفسير السمرقندي: (٢/ ١٠٠)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٨٧)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٤١)، زاد المسير: (٣/ ٣٥٣).

وذكر بعض المفسرين أن مراد المنافقين من تساؤلهم ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ أي هل هناك من يندسّ بينكم من المؤمنين، فينقل ما تقولونه وتدبرونه بينكم إلى محمد ﷺ.

انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٥)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٩٩)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٩٠).



بالأجسام، كما يحتمل الانصراف المعنوي بالقلوب عن طريق الحق والإيمان، والانتفاع بالقرآن.[1]

ثم أخبر الله جل وعلا أنه جازاهم وعاقبهم على ما فعلوه من تعطيل القلوب عن تدبر الآيات وتفهمها، ورفض الحق، والاستنكاف عن الاستجابة له ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾.

فالعقوبة صرف[2] الله جل شأنه لقلوب أولئك المنافقين عن الإيمان والهداية، وعن الخير والتوفيق والرشد، وعن الانتفاع بالقرآن ومواعظه.[3]

قال الزجاج: (أي أضلهم الله مجازاة على فعلهم).[4]

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧٧)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٢٦٩)، تفسير الفخر الرازي: (١٦/ ٢٣٤)، زاد المسير: (٣/ ٣٥٣).

وممن قال بأن المراد الانصراف الحسي ابن جرير، والسمرقندي، والنسفي، والألوسي.

انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٥)، تفسير السمرقندي: (٢/ ١٠٠)، تفسير النسفي: (١/ ٦٩١)، روح المعاني: (١١/ ٥).

وممن قال بأن المراد الانصراف المعنوي الواحدي، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي، وأبو حيان، وابن كثير.

انظر: تفسير الواحدي: (١/ ٤٨٧)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٤١)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٩٩)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٩٠)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ١١٧)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٠٣).

(٢) قال الراغب: (الصرف رد الشيء من حالة إلى حالة أو إبداله بغيره) المفردات: (ص: ٢٨٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٥)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٨٧)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٤١)، تفسير الفخر الرازي: (١٦/ ٢٣٤)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ١١٧)، تفسير النسفي: (١/ ٦٩١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٠٣)، في ظلال القرآن: (٣/ ١٧٤٢).

(٤) معاني القرآن: (٢/ ٤٧٧).

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي بسبب ذلك.[1]

قال ابن جرير: (فعل الله بهم هذا الخذلان، وصرف قلوبهم عن الخيرات، من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه استكبارًا ونفاقًا).[2]

يقول ابن القيم: (أخبر سبحانه عن فعلهم، وهو الانصراف، وعن فعله فيهم، وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره، لأنهم ليسوا أهلًا له.

فالمحل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد، وهؤلاء قلوبهم لا تفقه، وقصودهم سيئة).[3]

(١) انظر: تفسير النسفي: (١/ ٦٩١)، التسهيل: (٢/ ٨٨)، تفسير أبي السعود: (٤/ ١١٤)، روح المعاني: (١١/ ٥٢).

(٢) تفسير الطبري: (١١/ ٧٥).

(٣) شفاء العليل: (ص: ٢١٠)، وانظر: (ص: ٢١١ - ٢١٢)، تفسير المنار: (١١/ ٨٤ - ٨٥).



## المبحث الثامن
## القلوب الغافلة

الغفلة في اللغة: من غفل عن الشيء، غفلة وغُفولا: أي تركه وسها عنه.

والغُفْل: كل ما لاعلامة فيه ولا أثر عمارة من أرض أو طريق ونحوهما.[1]

قال ابن فارس[2]: (الغين والفاء واللام أصل صحيح يدل على ترك الشيء سهوًا، وربّما كان عن عمد، من ذلك: غفلت عن الشيء غفلة وغفولًا، وذلك إذا تركته ساهيًا، وأغفلته، إذا تركته على ذكر منك له).[3]

ويقول الراغب: (الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ).[4]

**وقد ورد هذا الوصف في قول الله تعالى:**

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

(١) انظر: لسان العرب: (٥/ ٣٢٧٧).

(٢) هو أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين القزويني، المعروف بالرازي، إمام علامة، لغوي محدث، رأس في الأدب والنحو، متمكن في فقه الإمام مالك، من مصنفاته: المجمل في اللغة، والمحصل في النحو، توفي سنة خمس وتسعين وثلاث مائة. انظر: البداية: (١١/ ٣٨٤ - ٣٨٥)، سير أعلام النبلاء: (١/ ٨٧٨).

(٣) مقاييس اللغة: (ص: ٧٧٢).

(٤) المفردات: (ص: ٣٦٤).

والخطاب لرسول الله ﷺ، ينهاه الله ﷻ فيه عن الاستجابة لمطلب بعض عظماء المشركين بإبعاد المستضعفين وفقراء المؤمنين عن مجلسه عليه الصلاة والسلام.[1]

وقد تضمنت الآية وصف هؤلاء المستكبرين بثلاث صفات، غفلة القلب، واتباع الهوى، ومجاوزة الحق.

ويحتمل أن يكون المقصود نفرًا بأعيانهم نزلت فيهم الآية، كما يحتمل أن يراد الإطلاق، فتشمل كل من اتصف بذلك من أهل الكفر[2]، وهو ما رجحه ابن جُزي فقال: (والأظهر أنها مطلقة من غير تقييد).[3]

قال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ قال بعض المفسرين: (أي جعلنا قلبه غافلًا).[4]

وتلك عقوبة من الله جل وعلا.

---

(١) قيل إن الآية نزلت في أمية بن خلف. انظر: أسباب النزول: (ص: ٢٥٠ - ٢٥١)، زاد المسير: (٥/ ٩٣)، تفسير البيضاوي: (٢/ ١٠)، لباب النقول: (ص: ١٤٤).

وقيل إنها نزلت في جمع من زعماء المشركين. انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٢٣٥)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٥١٢)، تفسير النسفي: (٢/ ٢٨٨)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ١١٨)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٨٠).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٥١٢).

(٣) التسهيل: (٢/ ١٨٧).

(٤) تفسير البغوي: (٣/ ١٥٩)، تفسير الواحدي: (٢/ ٦٥٩)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٥١٢)، زاد المسير: (٥/ ٩٣)، تفسير البيضاوي: (٢/ ١٠)، تفسير النسفي: (٢/ ٢٨٨)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ١٢٠)، روح المعاني: (١٥/ ٢٦٤).



يقول السعدي: (غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره).[1]

وكانت العاقبة أن فرغ قلبه من التوحيد، واستولت عليه إرادة الدنيا، فانشغل بالشرك والكفر، وانصرف عن عبادة الله جل وعلا، والاستجابة لرسوله عليه الصلاة والسلام.

قال ابن القيم: (الغُفْل: الشيء الفارغ، والأرض الغُفْل: التي لا علامة بها، والكتاب الغُفْل: الذي لا شكل عليه، فأغفلناه: تركناه غافلًا عن الذكر فارغًا منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي، لأنه سبحانه لم يشأ له الذكر، فبقي غافلًا، فالغفلة وصفه، والإغفال فعل الله فيه بمشيئته، وعدم مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفلته، فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، وإذا شاء غفلته امتنع منه الذكر).[2]

ومن آثار تلك الغفلة للقلب: اتباع الهوى، ومجاوزة الحق[3] ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

والمراد باتباع الهوى إيثار هوى النفس وميلها وإرادتها، فيما يخالف أمر الله ووحيه من الشرك والكفر، والمعصية والفجور.[4]

---

(١) تفسير السعدي: (٣/ ١٥٤)، وانظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٢٣٦)، تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٥٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٨١)، روح المعاني: (١٥/ ٢٦٤).

(٢) شفاء العليل: (ص: ٢١٢)، والمراد بالمشيئة: المشيئة الكونية القدرية، إذ لا يقع في الكون إلا ما شاءه الله تعالى. انظر: أضواء البيان: (٤/ ٩٠).

(٣) انظر: شفاء العليل: (ص: ٢١٣).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ١٥٩)، تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٥٥).

ومن غفل قلبه، وحكمه الهوى، كان أمره فرطا[1]، إذ (الغفلة والشهوة أصل الشر) كما قال ابن تيمية مستدلًا بالآية الكريمة.[2]

قال الراغب: (﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي إسرافًا وتضييعًا).[3]

ومما يتعلق بغفلة القلوب غمرتها.[4]

يقول الله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣].

والآية الكريمة في المشركين[5]، تقرّر أن قلوبهم في غمرة ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

والإشارة في قوله: ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ إلى القرآن.

---

(١) انظر: الوابل الصيب: (ص: ٨٩ - ٩٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٢٨٩)، وانظر: (١٠/ ٥٩٧).

(٣) المفردات: (ص: ٣٧٩)، وانظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٢٣٧)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٢٣١).

(٤) أصل الغمر في اللغة التغطية والستر، يقال: غمره الماء: أي غطّاه وعلاه، ومن ذلك الغمْرة بمعنى الانهماك في الباطل، لأنها تستر الحق عن عين صاحبها. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٧٧٥)، لسان العرب: (٥/ ٣٢٩٤).

(٥) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ١٩٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٤٩)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٤١).



عن مجاهد في قوله تعالى ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ قال: (القرآن).[1]

واختار هذا القول ابن جرير، والبغوي، والسمرقندي، وابن كثير.[2]

والمراد بالغمرة الغفلة.[3]

---

(١) تفسير الطبري: (١٨/ ٣٥)، الدر المنثور: (٦/ ١٠٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ٣٥)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٤٨٥)، تفسير البغوي: (٣/ ٣١٢)، تفسير ابن كثير: (٣٠/ ٢٤٩).

وفي المقصود باسم الإشارة أقوال أخرى، ومنها:

١- أعمال المؤمنين المذكورة في الآيات المتقدمة.

٢- الكتاب الذي ينطق بالحق المذكور في الآية السابقة، وهو صحائف الأعمال، أو اللوح المحفوظ، على قولين للمفسرين.

٣- الدين بجملته.

٤- الرسول عليه الصلاة والسلام. وكلها محتملة كما قال ابن عطية.

انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٤٩)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٤٧١ - ٤٧٢)، زاد المسير: (٥/ ٣٢٧)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٤١١)، روح المعاني: (١٨/ ٤٦).

(٣) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٢٩٨)، تفسير البغوي: (٣/ ٣١٢)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٤٧١)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٤٨٥)، تفسير الزمخشري: (٣/ ١٩٥)، تفسير البيضاوي: (٢/ ١٠٧)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٧٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٤٩)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٤١).

ومن المفسرين من فسرها بالجهالة أو الضلال أو العمى، وهي معان متقاربة تثمرها الغفلة، وكل ذلك بمثابة الغطاء للقلب.

انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ٣٥)، تفسير الواحدي: (٢/ ٧٤٩)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٤٩)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٩٠)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٤١١)، الدر المنثور: (٦/ ١٠٧).

والمعنى: بل قلوب هؤلاء الكافرين قد غمرتها الغفلة، وصارت كالغطاء لها، فحالت بينها وبين تأمل ما يتنزل من كلام الله تعالى، والتفهم لمعانيه، والتأثر بما يتضمنه من الدلائل والبينات، فأورثهم ذلك إصرارًا على ما هم فيه من الجهالة والضلالة والعمى.

ثم بين الله جل شأنه أن لهؤلاء الكافرين أعمالا أخرى من المعاصي والسيئات، مستمرون عليها، لا ينفكون عن ممارستها، إذ أصل التكذيب يثمر استسهال فعل السيئة.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾.

قال ابن جُزي: (أي لهم أعمال سيئة دون الغمرة التي هم فيها، فالمعنى أنهم يجمعون بين الكفر وسوء الأعمال).[1]

(١) التسهيل: (٣/ ٥٣)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٤٩)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٤١١)، نظم الدرر: (٥/ ٢١٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٤١ - ١٤٢)، روح المعاني: (١٨٠/ ٤٦)، وفي المعنى أقوال أخرى. انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ٣٥ - ٣٦)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٤٧٢)، تفسير السمعاني: (٣/ ٤٨١)، تفسير البغوي: (٣/ ٣١٢)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٤٩).



## المبحث التاسع

## القلوب العمي

يطلق العَمَى على ذهاب البصر من العينين، يقال عَمِي، يَعْمى، وصاحبه أعمى.

ويطلق العمى أيضًا على ذهاب نظر القلب، وصاحبه أعمى وعَمٍ، يقال: رجل عم، إذا كان أعمى القلب.

وأصل اللفظ يدل على ستر وتغطية.[1]

قال الراغب: (العمى يقال في افتقاد البصر والبصيرة، ويقال في الأول أعمى، وفي الثاني أعمى وعم).[2]

وقد أسند العمى إلى القلوب في قول الله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

والآية الكريمة في كفار مكة[3]، تتضمن توبيخًا لهم على غفلتهم، وتركهم التفكر والاعتبار، والاتعاظ والحذر من مصير الأمم السابقة من

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٦٧٣)، لسان العرب: (٤/ ٣١١٥ - ٣١١٦)، ترتيب القاموس: (٣/ ٣١٧).

(٢) المفردات: (ص: ٣٥١).

(٣) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٧٣٦)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٩١)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٢).

حولهم، ممن كفر بالله، وكذب رسله عليهم السلام، فعاقبهم الله جل وعلا بإهلاكهم وإنزال العذاب بهم ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أي كان الواجب أن تعي قلوبهم عظمة الله وقدرته، وتفقه ما يجب عليهم من توحيده سبحانه، وتصغي آذانهم للحق، فتسمعه سماع فهم وتدبر وانتفاع، ومن ثَمّ تتحقق لهم ثمرة التأمل والتفكر والاعتبار من خلال المشاهدة أو السماع.[1]

ثم أشارت الآية الكريمة إلى أن السبب في غفلتهم عن الاتعاظ والاعتبار، وتركهم الانتفاع بالمشاهدة والسماع، هو ما في قلوبهم من العمى عن الحق ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ فالآفة والخلل في بصائر قلوبهم، لا في أبصار أعينهم.

ذلك أن أعينهم سالمة من العمى، لكن قلوبهم عمي، معطلة عن وظيفتها في التدبر والاعتبار، وفي التأثر والاتعاظ، بحيث يفقهون ما ينفعهم، ويعلمون ويعقلون ما يوصلهم إلى الإيمان والحق والهدى، وهذا هو العمى الحقيقي، لا عمى الأعين والأبصار.[2]

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٨٢)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٧٨)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٧)، تفسير الفخر الرازي: (٢٣/ ٤٤ – ٤٥)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٧)، روح المعاني: (١٧/ ١٦٧)، أضواء البيان: (١٠/ ٢٠٦).



قال النسفي: (أي فما عميت أبصارهم عن الإبصار، بل قلوبهم عن الاعتبار).[1]

وقال الراغب: (لم يعدّ افتقاد البصر في جنب افتقاد البصيرة عمى).[2]

عن قتادة في تفسير الآية قال: (ما هذه الأبصار التي في الرؤوس فإنها جعلها الله منفعة وبلغة، وأما البصر النافع فهو في القلب).[3]

وقد تضمنت آية أخرى من كتاب الله جل وعلا أن عمى القلوب وعدم فقهها هو من أوصاف الكفار أهل النار.

يقول الله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فقد وهبهم الله ﷻ قلوبًا ليدركوا بها الحق ويعلموه، لكنهم لم يفعلوا ذلك، فما استعملوها في معرفة الخير والهدى، بل أعرضوا عن الحق اتباعًا لأهوائهم، فلم يتفكروا في دلائله، ولم يتأملوا في حججه وبراهينه.

ولما كانوا كذلك، غير منتفعين بنظر قلوبهم، استحقوا هذا الوصف بأنهم لا يفقهون، فأورثهم كسبهم الخبيث، ونهجهم الباطل، جهلًا

(١) تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٦)، وانظر: زاد المسير: (٥/ ٣٠١)، التسهيل: (٣/ ٤٣).

(٢) المفردات: (ص: ٣٥١)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٠٣).

(٣) الدر المنثور: (٦/ ٦١)، وانظر: معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٤٢٢)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٩١)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٢).

وضلالًا، حتى عميت قلوبهم عن الحق البيّن الظاهر.[1]

يقول ابن جرير في تفسير الآية: ( وأما قوله ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ فإن معناه: لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه قلوب لا يتفكرون بها في آيات الله، ولا يتدبرون بها أدلته على وحدانيته، ولا يعتبرون بها حججه لرسله، فيعلموا توحيد ربهم، ويعرفوا حقيقة نبوة أنبيائهم، فوصفهم ربنا جل ثناؤه بأنهم لا يفقهون بها، لإعراضهم عن الحق، وتركهم تدبّر صحة الرشد، وبطول الكفر).[2]

(١) انظر: تفسير البغوي: (٢/ ٢١٧)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٤٨٠)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٢٧)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٦٨).

(٢) تفسير الطبري: (٩/ ١٣١ - ١٣٢).



## المبحث العاشر

## القلوب المكنونة

الكِنّ والكِنان: وقاء كل شيء وستره، يقال: كنّ الشيء، وأكنّه: أي ستره.

والكنان: الغطاء الذي يُكنّ فيه الشيء، والجمع أكنان وأكِنَّة.[1]

وفرق الراغب بين كننت وأكننت، فخص الأول بما يستر ببيت وثوب ونحوهما، وخصّ الثاني بما يستر ويخفى في النفس.[2]

**وقد ورد هذا المعنى متصلا بالقلوب في أربع آيات من كتاب الله العزيز.**

يقول الله تعالى:

١ - ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا[3] ﴾ [الأنعام: ٢٥].

(١) انظر: لسان العرب: (٥/ ٣٩٤٢-٣٩٤٣)، ترتيب القاموس: (٤/ ٩٠).

(٢) المفردات: (ص: ٤٤٤)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٣٨٩)، قال ابن السّكّيت: (كننت الشيء: صننته) (وأكننت الشيء في نفسي: أضمرته) المشوف المعلم: (٢/ ٦٥٨ - ٦٥٩)، وفرق بينهما ابن القيم كذلك في شفاء العليل: (ص: ٢٠٢).

(٣) قال الراغب: (الوقر الثقل في الأذن) المفردات: (ص: ٤٤٤)، وفسره ابن قتيبة بالصمم. انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ١٥٢)، قال ابن كثير في تفسيره: (أي صممًا معنويًا عن الرشاد) (٣/ ٩١)، (وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به)، (٣/ ٤١)، وانظر: تفسير القرطبي: (٦/ ٢٦٠).

٢ - ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٦].

٣ - ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧].

وقد نزلت هذه الآيات الكريمة في المشركين من قريش وأهل مكة[1]، يخبر الله جل وعلا فيها أنه جعل على قلوب هؤلاء الكافرين أكنة ﴿جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

والأكنة: جمع كنان، قال المفسرون: هو الغطاء الذي يستر الشيء، ويحول بينه وبين غيره.[2]

والفقه: الفهم، وجملة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ في محل المفعول لأجله، أي كراهة أن يفهموه[3]، والضمير عائد على القرآن.[4]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٩٣)، تفسير السمعاني: (٢/ ٩٥)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٦٠)، التسهيل: (٢/ ٦)، روح المعاني: (١٥/ ٣٠٣)، فتح القدير: (٢/ ١١٠).

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص:٢٥٥)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٦)، المفردات: (ص: ٤٤٤)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٥٢٥، ٥/ ٤)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٧٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٢٧).

(٣) انظر: إملاء ما من به الرحمن: (١/ ٢٣٨)، تفسير السمعاني: (٣/ ٢٤٦)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٦)، تفسير ابن عطية: (٢ / ٢٧٩)، زاد المسير: (٣/ ١٥)، التسهيل: (٢/ ٦).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٦١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٢٧، ٣/ ٤١، ٣/ ٩١)، نظم الدرر: (٢/ ٦٢٢، ٤/ ٣٨٧، ٤٨٣).



قال ابن جرير في المراد بجعل الأكنة على القلوب: (وذلك ما يتغشاه من خذلان الله إياها عن فهم ما يتلى عليهم).[1]

والمعنى أن الله تبارك وتعالى حال بين قلوب أولئك الكافرين وبين فقه القرآن، وفهم معانيه، بما يحقق لأصحابها الانتفاع والتأثر، والقبول والإذعان، والإيمان والاهتداء، وذلك بما جعل سبحانه على تلك القلوب من أغطية تمنعها من الإدراك الصحيح لما تسمعه من الحق في آيات الله تعالى.[2]

وقال القرطبي: (ليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق، كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم).[3]

هذه الأكنة على القلوب إنما هي عقوبة من الله جل شأنه لهم على كفرهم واستكبارهم وعنادهم في مواجهة ما جاء به الرسول ﷺ من الهدى ودين الحق.

قال الزجاج: (إنما فعل بهم ذلك مجازاة لهم بإقامتهم على كفرهم).[4]

---

(١) تفسير الطبري: (١٥/ ٩٤)، وانظر: تفسير القرطبي: (١١/ ٧)، نظم الدرر: (٤/ ٣٨٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ١٦٩ - ١٧٠)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٧٩، ٣/ ٤٦٠)، تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ١٨٦ - ١٨٧)، تفسير البيضاوي: (١/ ٥٧٣)، التسهيل: (٢/ ٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٢٧)، أضواء البيان: (٤/ ١٤٤).

(٣) تفسير القرطبي: (٦/ ٢٦٠)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٧)، زاد المسير: (٣/ ١٦)، مجموع الفتاوى: (١٦/ ٩ - ١٠).

(٤) معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٧)، وانظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٤٦٢، ٢/ ٣٥٢)، زاد المسير: (٣/ ١٦).

٢ - ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٦].

٣ - ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧].

وقد نزلت هذه الآيات الكريمة في المشركين من قريش وأهل مكة[1]، يخبر الله جل وعلا فيها أنه جعل على قلوب هؤلاء الكافرين أكنة ﴿جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

والأكنة: جمع كنان، قال المفسرون: هو الغطاء الذي يستر الشيء، ويحول بينه وبين غيره.[2]

والفقه: الفهم، وجملة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ في محل المفعول لأجله، أي كراهة أن يفهموه[3]، والضمير عائد على القرآن.[4]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٩٣)، تفسير السمعاني: (٢/ ٩٥)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٦٠)، التسهيل: (٢/ ٦)، روح المعاني: (١٥/ ٣٠٣)، فتح القدير: (٢/ ١١٠).

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص:٢٥٥)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٦)، المفردات: (ص: ٤٤٤)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٥٢٥، ٥/ ٤)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٧٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٢٧).

(٣) انظر: إملاء ما من به الرحمن: (١/ ٢٣٨)، تفسير السمعاني: (٣/ ٢٤٦)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٦)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٧٩)، زاد المسير: (٣/ ١٥)، التسهيل: (٢/ ٦).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٦١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٢٧، ٣/ ٤١، ٣/ ٩)، نظم الدرر: (٢/ ٦٢٢، ٤/ ٣٨٧، ٤٨٣).



قال ابن جرير في المراد بجعل الأكنة على القلوب: (وذلك ما يتغشاه من خذلان الله إياها عن فهم ما يتلى عليهم).[1]

والمعنى أن الله تبارك وتعالى حال بين قلوب أولئك الكافرين وبين فقه القرآن، وفهم معانيه، بما يحقق لأصحابها الانتفاع والتأثر، والقبول والإذعان، والإيمان والاهتداء، وذلك بما جعل سبحانه على تلك القلوب من أغطية تمنعها من الإدراك الصحيح لما تسمعه من الحق في آيات الله تعالى.[2]

وقال القرطبي: (ليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق، كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم).[3]

هذه الأكنة على القلوب إنما هي عقوبة من الله جل شأنه لهم على كفرهم واستكبارهم وعنادهم في مواجهة ما جاء به الرسول ﷺ من الهدى ودين الحق.

قال الزجاج: (إنما فعل بهم ذلك مجازاة لهم بإقامتهم على كفرهم).[4]

---

(١) تفسير الطبري: (١٥/ ٩٤)، وانظر: تفسير القرطبي: (١١/ ٧)، نظم الدرر: (٤/ ٣٨٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ١٦٩ - ١٧٠)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٧٩، ٣/ ٤٦٠)، تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ١٨٦ - ١٨٧)، تفسير البيضاوي: (١/ ٥٧٣)، التسهيل: (٢/ ٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٢٧)، أضواء البيان: (٤/ ١٤٤).

(٣) تفسير القرطبي: (٦/ ٢٦٠)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٧)، زاد المسير: (٣/ ١٦)، مجموع الفتاوى: (١٦/ ٩ - ١٠).

(٤) معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٧)، وانظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٤٦٢، ٢/ ٣٥٢)، زاد المسير: (٣/ ١٦).

وقال القرطبي: (أي فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم).[1]

وفي آية الكهف إشارة إلى ذلك، فقد بينت الآية الكريمة أن الإعراض عن آيات الله تعالى، والاستكبار عن قبولها، والإصرار على الجحود والعصيان، تترتب عليه آثار منها جعل الأكنة على القلوب بحيث لا تفقه الحق، ولا تهتدي به.[2]

يقول محمد الأمين: (فإن قيل: إذا كانوا لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ولا يفقهون، لأن الله جعل الأكنة المانعة من الفهم على قلوبهم، والوقر الذي هو الثقل المانع من السمع في آذانهم، فهم مجبورون، فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه والانصراف إلى غيره؟

فالجواب: أن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة من كتابه العظيم أن تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم كالختم والطبع والغشاوة والأكنة، ونحو ذلك، إنما جعلها عليهم جزاء وفاقًا لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم، فأزاغ الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك، جزاء على كفرهم)[3] ثم سرد عددًا من الآيات الدالة على ذلك.

٤ – وقد ذكر الله تعالى في القرآن على لسان المشركين أنهم أخبروا عن قلوبهم بأنها في أكنة، وذلك في قول الله سبحانه:

(١) تفسير القرطبي: (٦/ ٢٦٠)، وانظر: (١١/ ٧)، أضواء البيان: (٣/ ٥٩٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٢٦٨)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٥٢٥)، تفسير السعدي: (٣/ ١٦٧ – ١٦٨)، أضواء البيان: (٤/ ١٤٢، ١٤٥ – ١٤٦).

(٣) أضواء البيان: (٤/ ١٤٤ – ١٤٥).



﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥].

ومعنى قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ أي عليها أغطية تسترها وتمنعها من فهم ما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ، وأنهم في ذلك بمنزلة من لا يفقه ولا يعي ولا يدرك.[1]

قال ابن القيم: (والمعنى: إنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ما تقول).[2]

وهذا القول منهم يتأسس على العناد والإصرار على الباطل، كما يتأسس على الكراهة والاستثقال للحق، ومقصودهم إشعاره عليه الصلاة والسلام باليأس من قبولهم للدعوة، أو استجابتهم للهدى، أو إذعانهم للتوحيد.[3]

وقد يتعارض ـ في الظاهر ـ هذا الموضع الذي يحكي ـ على سبيل الذم ـ قول الكافرين بأن قلوبهم في أكنة، مع المواضع السابقة التي تقرر أن الله تعالى جعل الأكنة على قلوبهم.

ولا تعارض في الحقيقة، فما ذكره الله جل وعلا في المواضع السابقة من

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٧٩)، تفسير البغوي: (٤/ ١٠٧).

(٢) شفاء العليل: (ص: ٢٠٣)، وانظر: زاد المسير: (٧/ ٥٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٩١)، نظم الدرر: (٦/ ٥٥١ – ٥٥٢)، في ظلال القرآن: (٥/ ٣١٠٨)، أضواء البيان: (٧/ ١٠٨).

جعل الأكنة على القلوب هو عقاب من الله سبحانه لهم على عنادهم واستكبارهم عن قبول الحق بعد ما تبين لهم، ومن مظاهر ذلك ما ذكره الله ﷻ في هذا الموضع على لسانهم على سبيل المباعدة والمعاندة، وردّما جاء به الرسول ﷺ.

يقول محمد الأمين: (التحقيق في الجواب عن هذا الإشكال هو ما ذكرناه مرارًا من أن الله إنما جعل على قلوبهم الأكنة، وطبع عليها، وختم عليها، وجعل الوقر في آذانهم، ونحو ذلك من الموانع من الهدى، بسبب أنهم بادروا إلى الكفر وتكذيب الرسل، طائعين مختارين، فجزاهم الله على ذلك الذنب الأعظم طمس البصيرة، والعمى عن الهدى، جزاء وفاقًا، فالأكنة والوقر والحجاب المذكورة إنما جعلها الله عليهم مجازاة لكفرهم الأول، ومن جزاء السيئة تمادي صاحبها في الضلال، ولله الحكمة البالغة في ذلك، والآيات المصرحة بمعنى هذا كثيرة في القرآن..).[1]

ثم قال أيضًا: (فدعواهم كاذبة، لأن الله جعل لهم قلوبًا يفهمون بها، وآذانا يسمعون بها، خلافًا لما زعموا، ولكنه سبب لهم الأكنة والوقر والحجاب، بسبب مبادرتهم إلى الكفر، وتكذيب الرسول ﷺ).[2]

ومما يتعلق بهذه الآية ما ورد في القرآن من وصف اليهود لقلوبهم بأنها غلف، وذلك في آيتين من كتاب الله تعالى هما قوله سبحانه:

(١) أضواء البيان: (٧/ ١٠٩).

(٢) أضواء البيان: (٧/ ١١١).



﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[البقرة: ٨٨].

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[النساء: ١٥٥].

والآيتان في شأن اليهود[1]، تحكي قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ وهو بمعنى قول المشركين: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾[2] كما قال جمهور المفسرين.[3]

(١) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٩٢)، تفسير القرطبي: (٢/ ١٩)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٣٠١).

(٢) قال محمد الأمين: (لأن الغلف جمع أغلف، وهو الذي عليه غلاف، والأكنة جمع كنان، والغلاف والكنان كلاهما بمعنى الغطاء الساتر) أضواء البيان: (٧/ ١١٠).

والكلمة ـ كما يقول ابن فارس ـ (تدل على غشاوة وغشيان شيء لشيء. يقال: غلاف السيف والسكين، وقلب أغلف: كأنما أغشي غلافًا، فهو لا يعي شيئًا)، مقاييس اللغة: (ص: ٧٧٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١/ ٤٠٨، ٦/ ١٠)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٥٧)، معاني القرآن للنحاس: (١/ ٢٣٣)، تفسير السمرقندي: (١/ ٩٨ - ٩٩، ١/ ٣٧٩)، تفسير السمعاني: (١/ ١٠٧)، تفسير البغوي: (١/ ٩٢ - ٩٣)، تفسير الزمخشري: (١/ ١٩٠)، تفسير ابن عطية: (١/ ١٧٧، ٢/ ١٣٢)، التسهيل: (١/ ٥٣)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٣٠١، ٣/ ٣٨٨)، تفسير ابن كثير: (/ ١٢٣، ١/ ٥٧٣)، فتح القدير: (١/ ١١٤، ٥٤١)، تفسير القاسمي: (٢/ ١٨٦)، تفسير السعدي: (١/ ٧٥ - ٧٦، ٤٣٦)، أضواء البيان: (٧/ ١٠٩)، شفاء العليل: (ص: ٢٠٣).

ومن المفسرين من قال بأن ﴿غُلْفٌ﴾ جمع غلاف، أي أنهم وصفوا قلوبهم بأنها أوعية للعلم، والمقصود أنها لا تحتاج إلى علم رسول الله ﷺ، أو المقصود أنه لو كان ما جاء به رسول الله ﷺ حقًا لعلمته ووعته.

انظر: معاني القرآن للفراء: (١/ ٢٩٤)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ١٢٧)، تفسير القرطبي: (٦/ ٧)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٣٠١).

قال ابن القيم مناقشا هذا القول: (أما قول من قال: هي أوعية للحكمة، فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة، وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، والغلاف قد يكون وعاء للجيدّ والرديء، فلا يلزم من كون القلب غلافًا أن يكون داخله العلم والحكمة) شفاء العليل: (ص: ٢٠٣ - ٢٠٤) (مع اختصار يسير).

ذلك أن ﴿غُلْفٌ﴾ في الآية جمع واحده أغلف، وهو ما عليه غلاف يغشيه ويغطيه، ويحجبه ويستره عن غيره، ويمنع نفوذ غيره إليه.

فوصف اليهود قلوبهم بذلك مريدين أنها لا تتمكن من فهم ما يدعوهم إليه عليه الصلاة والسلام .

قال ابن جرير : (يقولون: عليها غشاوة وأغطية عما تدعونا إليه، فلا نفقه ما تقول ولا نعقله).[1]

وقد رد الله ﷻ على اليهود زعمهم، وكذب قولهم، وأبطل دعواهم، بقوله سبحانه: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، وقوله جل وعلا: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.

إذ كان مرادهم الاحتجاج على الكفر، ومقصدهم الامتناع عن الإيمان، وإلا فهم متمكنون في الأصل من سماع الحق وفهمه، لكنهم عاندوا وجحدوا، واستكبروا عن الإيمان والتصديق، واستنكفوا عن الطاعة والقبول، فجازاهم الله تعالى بالطرد والإبعاد من رحمته وتوفيقه، وبالطبع على قلوبهم.[2]

(١) تفسير الطبري: (٦/ ١٠)، وانظر: تفسير السمعاني: (١/ ١٠٧)، تفسير ابن عطية: (١/ ١٧٧)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١/ ٤٠٨)، المفردات: (ص: ٤٥٤)، نظم الدرر: (١/ ١٩٠)، مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٢ – ١٣).



قال القاسمي: (رد الله أن تكون قلوبهم كذلك، لأنها متمكنة من قبول الحق، وإنما طردهم عن رحمته بسبب كفرهم وزيغهم).[1]

يقول ابن القيم: (وجه الإضراب في غاية الظهور، وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقه، فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف، فهم معذورون في عدم الإيمان، فأكذبهم الله وقال: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم، وآثروه على الإيمان، فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة.

والمعنى: لم يخلق قلوبهم غلفًا لا تعي ولا تفقه، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها).[2]

وقد ورد لفظ: (الأغلف) وصفًا للقلب الكافر في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل

(١) تفسير القاسمي: (٢/ ١٨٦)، وانظر: (٥/ ٥٤٧ – ٥٤٨)، معاني القرآن للزجاج: (١/ ١٦٩)، تفسير ابن عطية: (١/ ١٧٧)، تفسير القرطبي: (٢/ ١٩)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٣٠١).

(٢) شفاء العليل: (ص: ٢٠٤)، وانظر: نظم الدرر: (٢/ ٣٤٩)، أضواء البيان: (٧/ ١١٠).

السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه] وفيه: [وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ].[1]

قال ابن القيم: (أشار بـ[القلب الأغلف] إلى قلب الكافر، لأنه داخل في غلافه وغشائه فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله).[2]

ومما يتصل بهذا الباب ما ورد في وصف رسولنا ﷺ في التوراة بأنه يفتح بالتوحيد قلوبًا غلفًا.

ففي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يحكي بعض أوصاف رسول الله ﷺ في التوراة: (.. ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء[3]، بأن يقولوا

(١) رواه أحمد في المسند: (٣/ ١٧)، قال ابن كثير في تفسيره: (١/ ٥٧) (هذا إسناد جيد حسن)، وانظر: (٣/ ٢٩٣)، وجوّد السيوطي إسناده كذلك في الدر المنثور: (١/ ٢١٥)، ورواه الطبراني كما في مجمع الزوائد: (١/ ٢٣١)، قال الهيثمي: (وفي إسناده ليث بن أبي سُليم) قال العراقي: (مختلف فيه)، المغني: الإحياء: (١/ ١٧٣)، وضعفه الألباني مرفوعًا: إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨) (الهامش)، وصححه من حديث حذيفة رضي الله عنه بنحوه موقوفًا عليه، وحديث حذيفة رواه ابن جرير في تفسيره: (١/ ٤٠٦)، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٢٠٥)، وأبو نعيم في الحلية: (١/ ٢٧٦)، وغيرهم. انظر: الدر المنثور: (١ / ٢١٤)، وصححه ابن القيم في إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨).

(٢) إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨ - ٤٩) (مع اختصار يسير).

(٣) قال ابن الأثير: (يعني ملة إبراهيم عليه السلام التي غيرتها العرب عن استقامتها) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٣١٥)، أي ما أُدخل فيها من عبادة الأصنام، ولذلك وصفها بالعوج، فالمقصود ملة الكفر، وإقامتها يعني إخراج أهلها من الكفر إلى الإيمان. انظر: فتح الباري: (٩/ ٢٠٠، ١٨/ ٢١٤).



لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عميًا، وآذانا صمًا، وقلوبًا غلفًا).[1]

قال ابن الأثير: (أي مغشاة مغطاة، واحدها أغلف).[2]

والمراد أن رسول الله ﷺ يفتح بكلمة التوحيد تلك القلوب الغلف، فيكشف غطاءها، وينقلها من ظلمة الشرك والكفر إلى نور التوحيد والإيمان.[3]

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾: (٤ / ١٨٣١).

(٢) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٣٧٩).

(٣) انظر: فتح الباري: (٩/ ٢٠٠، ١٨/ ٢١٤)، مشارق الأنوار: (٢/ ١٣٤).

# المبحث الحادي عشر

# القلوب المطبوع عليها

الطبع في اللغة التغطية على الشيء، والاستيثاق من أن لا يدخله شيء.

يقال: طبع الشيء، وطبع عليه: أي ختم، وأصله من التأثير في الطين ونحوه، والطابع بالفتح: الخاتم الذي يختم به.[1]

قال ابن فارس: (الطاء والباء والعين أصل صحيح، وهو مثل على نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها، يقال: طبعت على الشيء طابعًا. ثم يقال على هذا: طبع الإنسان وسجيّته، ومن ذلك طبع الله على قلب الكافر، كأنه ختم عليه حتى لا يصل إليه هدى ولا نور، فلا يوفق لخير).[2]

وهو مأخوذ من قولهم: طبع على الكتاب، وختمه: إذا جعل عليه الطابع والخاتم، بعد وضعه في ظرفه، بغرض التوثق من حفظه، وعدم دخول شيء آخر فيه، ومنع غير أصحاب الشأن من الاطلاع عليه.[3]

**وقد ورد الطبع على القلوب في إحدى عشرة آية من كتاب الله العزيز.**

١. يقول الله سبحانه:

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

---

(١) انظر: لسان العرب: (٤/ ٢٦٣٥)، ترتيب القاموس: (٣/ ٥٣)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٤٩٤).

(٢) مقاييس اللغة: (ص: ٦٠٦).

(٣) انظر: فتح القدير: (١/ ٤١)، تفسير المنار: (٩/ ٣٠).

وسياق الآية في اليهود[1]، متضمنة بعض أنواع قبائحهم، ومن ذلك قولهم: قلوبنا غلف، أي في أغطية وحجب، فلا تفهم ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا تعي ذلك ولا تفهمه[2]، ينهزهم إلى هذا القول عناد وجحود، ودفع للبينات، وردّ للأدلة، واحتجاج على الكفر، واتجاه إلى الامتناع والنكوص عما يجب عليهم من الإيمان والطاعة والالتزام بالشرائع.

قال القرطبي: (وغرضهم بهذا درء حجة الرسل عليهم السلام).[3]

وقد كذبهم الله جل وعلا، وأبطل دعواهم، بقوله سبحانه: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.

والطبع الختم[4]، والباء في قوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ سببية (أي بسبب كفرهم).[5]

والمعنى: ليس الأمر كما يقولون، لكن الله سبحانه طبع على قلوبهم، أي ختم عليها، فلا تقبل الهدى، ولا يصل إليها الخير، ولا يدخلها الإيمان، وذلك عقوبة منه ﷻ على كفرهم، وجزاء لهم على عنادهم وإصرارهم على التكذيب.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ٧)، تفسير البغوي: (١/ ٤٩٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٠)، تفسير ابن عطية: (٢/ ١٣٢)، تفسير ابن كثير: (١/ ٥٧٣).

(٣) تفسير القرطبي: (٦/ ٨).

(٤) انظر: تفسير السمعاني: (١/ ٤٩٨)، تفسير البغوي: (١/ ٤٩٦).

(٥) إملاء ما من به الرحمن: (١/ ٢٠٠)، وانظر: أضواء البيان: (٧/ ١١٠).



قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: كذبوا في قولهم: قلوبنا غلف، وما هي بغلف، ولا عليها أغطية، ولكن الله جل ثناؤه جعل عليها طابعًا بكفرهم بالله).[1]

وقال ابن عطية: (أخبر الله تعالى أن ذلك كله عن طبع منه على قلوبهم، وأنهم كذبة فيما يدعونه من قلة الفهم).[2]

ذلك أنهم سمعوا كلام الله وفقهوه، لكنهم لم يؤمنوا به ولم يقبلوه، ولم يستجيبوا له طاعة وإقرارًا وتصديقًا، بل عصوا وخالفوا وجحدوا، فكان العقاب من الله جل شأنه على ما قدموه باختيارهم من أنواع الكفر إضلالًا لهم، وطبعًا على قلوبهم، وسلبًا للهدى منهم.[3]

قال الزجاج: (جعل الله مجازاتهم على كفرهم أن طبع على قلوبهم).[4]

وقال ابن تيمية ـ مستدلًا بهذه الآية الكريمة ـ (والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع).[5]

---

(١) تفسير الطبري: (٦/ ١٠)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٣/ ٣٣٨)، فتح الباري: (١٣/ ٣٧٧)، طبعة دار الفكر.

(٢) تفسير ابن عطية: (٢/ ١٣٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٢ - ١٣، ١٨/ ١٧٧).

(٤) معاني القرآن: (٢/ ١٢٧)، وانظر: تفسير الواحدي: (١/ ٣٠٠)، زاد المسير: (٢/ ٢١٧)، تفسير القرطبي: (٦/ ٨).

(٥) مجموع الفتاوى: (١٤/ ١٥٢)، وانظر: (٣٣٥ - ٣٣٦).

يقول محمد الأمين في تفسير الآية: (﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم، وهو نص قرآني صريح في أن كفرهم السابق هو سبب الطبع على قلوبهم) ثم قال بعد أن أورد عددا من الآيات في هذا الباب: (إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الطبع على القلوب، ومنعها من فهم ما ينفع، عقاب من الله على الكفر السابق على ذلك).[1]

٢. يقول الله ﷻ:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

هذه الآية الكريمة تتضمن وعيدًا للكافرين المكذبين لرسول الله ﷺ، وفي مقدمتهم مشركو قريش وكفار مكة.[2]

والمعنى: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين الذين يسكنون الأرض بعد أمم سابقة هلكت وبادت، أن لله جل وعلا سنة ماضية في عقاب أهل الكفر والعناد، وإنزال العذاب بهم بسبب ذنوبهم وتكذيبهم وعدائهم للرسل عليهم السلام.

كما أن من سنته سبحانه أن يجعل من عقوبته على الذنوب الطبع على

(١) أضواء البيان: (٤/ ١٤٥)، وانظر: (٧/ ١٠٩ - ١١٠).

(٢) انظر: تفسير الواحدي: (١/ ٤٠٤)، تفسير القرطبي: (٧/ ١٦٢)، التسهيل: (٢/ ٤٠)، تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٥٤).



القلوب، فلا تقبل الإيمان، ولا تستجيب للهدى، ولا تنتفع بالسماع[1] ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

قال السمرقندي: (يعني نختم على قلوبهم بأعمالهم الخبيثة، عقوبة لهم، فهم لا يسمعون الحق، ولا يقبلون الموعظة).[2]

وقال أبوحيان: (المعنى أن من أوضح الله له سبل الهدى، وذكر له أمثالا ممن أهلكهم الله تعالى بذنوبهم، وهو مع ذلك دائم على غيه لا يرعوي، يطبع الله على قلبه، فينبو سمعه عن سماع الحق).[3]

٣. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

والخطاب في الآية الكريمة لرسول الله ﷺ، والإشارة إلى قرى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، والتي سبق إيراد بعض خبرها في السورة الكريمة.[4]

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٩)، تفسير البغوي: (٢/ ١٨٤)، زاد المسير: (٣/ ١٦٠)، روح المعاني: (٩/ ١٣)، تفسير السعدي: (٢/ ١٣٩).

(٢) تفسير السمرقندي: (١/ ٥٥٠).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٤/ ٣٥٠ - ٣٥١).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٠)، تفسير الفخر الرازي: (١٤/ ١٨٨)، تفسير القرطبي: (٧/ ١٦٢ - ١٦٣)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٣٥٢).

وتتضمن الآية بيانًا بأن الحجة قد قامت على المكذبين من تلك الأمم السابقة، بإرسال الرسل إليهم، مؤيدين بالمعجزات الظاهرة الدالة على الحق، والحجج الواضحة على صدقهم عليهم السلام، وصحة ما جاءوا به عن ربهم سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾.

والباء في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟﴾ سببية، و(ما) مصدرية.

والمعنى أن جحودهم، وإصرارهم على التكذيب بالآيات، وردّهم للحق لما جاءهم به الرسل عليهم السلام، كان سببًا في عقاب الله ﷻ لهم بالإضلال، وجزائه لهم بأن حرمهم التوفيق إلى الهداية والإيمان.

هذا القول في معنى الآية حكاه ابن عطية[1]، وحسنه ابن كثير بقوله: (وهو متجه حسن)[2]، وهو قول السعدي[3]، وقال عنه محمد الأمين: (هو من أقرب الأقوال لظاهر الآية الكريمة، ووجهه ظاهر، لأن شؤم المبادرة إلى تكذيب الرسل سبب للطبع على القلوب، والإبعاد عن الهدى، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة).[4]

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ٤٣٤).
(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٣٥).
(٣) انظر: تفسير السعدي: (٢/ ١٣٩).
(٤) أضواء البيان: (٢/ ٣٢٩).
وللمفسرين في معنى الآية أقوال عدة. انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١١ - ١٢)، تفسير السمرقندي: (١/ ٥٥٠ - ٥٥١)، تفسير الفخر الرازي: (١٤/ ١٨٧ - ١٨٨)، زاد المسير: (٣/ ١٦٠ - ١٦١).



ويرى بعض المفسرين أن الباء ليست سببية، وأن (ما) موصولة، والمعنى أن هؤلاء المكذبين ما كانوا ليؤمنوا بعد ظهور المعجزات، وتتابع الآيات، بما كذبوا به قبل ذلك من الحق، والمقصود وصفهم بالغاية في العتو والعناد، والإصرار على الباطل، والثبات على الكفر.

حكى هذا القول ابن عطية مبتدئًا به[1]، وهو قول البغوي[2]، ورجحه أبو حيان فقال: (والذي يظهر أن الضمير في: ﴿كَانُوا۟﴾ وفي: ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ عائد على أهل القرى، وأن الباء في ﴿بِمَا﴾ ليست سببية، فالمعنى أنهم انتفت عنهم قابلية الإيمان وقت مجيء الرسل بالمعجزات، بل حالهم واحد قبل ظهور المعجزات وبعد ظهورها، لم تجد عنهم شيئا).[3]

ولما لم تصبح قلوب أولئك المكذبين محلًا قابلًا للإيمان طبع الله جل شأنه عليها، عقابًا لها ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي مثل طبعه على قلوب هؤلاء المذكورين، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بمحمد ﷺ).[4]

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ٤٣٤).
(٢) انظر: تفسير البغوي: (٢/ ١٨٤).
(٣) تفسير البحر المحيط: (٤/ ٣٥٣)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٥٥)، روح المعاني: (٩/ ١٥).
(٤) تفسير القرطبي: (٧/ ١٦٣)، وانظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٢)، تفسير البغوي: (٢/ ١٨٤)، تفسير النسفي: (١/ ٥٦٠)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٣٥٤).

وقال السمرقندي: (يعني هكذا يختم الله تعالى على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم).[1]

وفي الوصف بالكفر في قوله سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ إشارة إلى أن الإصرار على الكفر، ومخالفة الرسل عليهم السلام، هو سبب للطبع على القلوب.[2]

يقول سيد قطب: (ليست البينة هي ما كان ينقصهم ليؤمنوا، إنما كان ينقصهم القلب المفتوح، والحس المرهف، والتوجه إلي الهدى، كان ينقصهم الفطرة الحية التي تستقبل وتنفعل وتستجيب، فلما لم يوجهوا قلوبهم إلي موحيات الهدى، ودلائل الإيمان، طبع الله على قلوبهم وأغلقها، فما عادت تتلقى ولا تنفعل ولا تستجيب ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.[3]

٤. يقول الله سبحانه:

﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[التوبة: ٨٧].

(١) تفسير السمرقندي: (١/ ٥٥١).

(٢) انظر: روح المعاني: (٩/ ١٦).

(٣) في ظلال القرآن: (٣/ ١٣٤٢)، وانظر: تفسير السعدي: (٢/ ١٣٩).



٥. ويقول تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ[1] عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٩٣].

نزلت الآيتان الكريمتان في شأن المنافقين[2]، وتكرر المعنى فيهما للتأكيد والمبالغة في ذم المنافقين وكشف مكرهم، والتحذير من صنيعهم.[3]

تتضمن الآيتان الإنكار عليهم، وتوبيخهم على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، واستئذانهم في القعود مع توفر القدرة والقوة، والسعة والغنى، وهم بذلك رضوا بأن يتساووا مع الخوالف، أي النساء[4] الموصوفات بالضعف، المعذورات في ترك الجهاد، اللاتي يخلفن الرجال في البيوت، ولم يفرض عليهن في الشرع قتال.

(١) المقصود هنا العقوبة والمأثم، وأصل السبيل: الطريق، ويستعمل لكل ما يتوصل به إلى شيء خيرًا كان أو شرًا. انظر: المفردات: (ص: ٢٢٩)، تفسير الطبري: (١١/ ١)، تفسير البغوي: (٢/ ٣١٩)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٤٦)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ١٨٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٠/ ٢٠٧، ١١/ ١)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٨٠)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٦٨، ٧١)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٤٢، ١٤٦)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٨٢، ٨٨)، أضواء البيان: (٢/ ٤٧٣ - ٤٧٤)، المنافقون في القرآن: (ص: ٣٦٢ - ٣٦٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٨/ ١٤٦).

(٤) انظر: غريب القرآن لليزيدي: (ص: ١٦٥)، تفسير الطبري: (١٠/ ٢٠٨)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٧٦)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٦٨)، تفسير النسفي: (١/ ٦٧٢)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٨٣).

ولهذا السبب استحق أولئك المنافقون عقاب الله سبحانه لهم بالطبع على قلوبهم، والختم عليها، فلا يفهمون مواعظه جل وعلا، بحيث يتحقق لهم الاعتبار والتدبر والاتعاظ، ولا يعلمون علما يميزون به بين ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك ما يترتب على الجهاد من المصالح، وعلى القعود من المفاسد في الدنيا والآخرة.[1]

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[2]

عن قتادة في قوله سبحانه: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: (أي بأعمالهم).[3]

وقال ابن جرير: (ختم الله على قلوبهم بما كسبوا من الذنوب).[4]

وقال النسفي: (ختم عليها لاختيارهم الكفر والنفاق).[5]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٠/ ٢٠٨، ١١/ ١)، تفسير النسفي: (١/ ٦٧٢)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٨٣، ٨٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٨٠ - ٣٨١).

(٢) قال صاحب المنار: (عبر هنا بالعلم، وهناك بالفقه، والمراد واحد، وهو الإدراك والعرفان الصحيح الذي يبعث على العمل بمقتضاه، ولكن المتبادر من العلم تيقّن المعلوم، ومن الفقه تأثير العلم في النفس) (١٠/ ٥٩١) فالفقه أخص من العلم. انظر: المفردات: (ص: ٣٨٥).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: (٦/ ١٨٥٩)، الدر المنثور: (٤/ ٢٦٠).

(٤) تفسير الطبري: (١١/ ١).

(٥) تفسير النسفي: (١/ ٦٧٢).



٦. يقول الله جل شأنه:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

تخبر الآية الكريمة عن حال الكافرين المكذبين للرسل عليهم السلام من بعد نوح عليه السلام، والتي أشارت الآيات السابقة على هذه الآية إلى خبره عليه السلام مع قومه.

كما تخبر الآية عن عقاب الله تعالى لهؤلاء المكذبين المعتدين وأمثالهم بالطبع على قلوبهم ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

والاعتداء تجاوز الحد في اقتراف السيئات والوقوع في الآثام، والمقصود هنا مجاوزة الحد في الكفر بالله جل وعلا، والتكذيب برسله عليهم السلام، وردّ الأدلة والحجج المتضمنة للهدى والحق.[1]

والمعنى ـ كما قال ابن كثير ـ: (أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم).[2]

---

(١) انظر: المفردات: (ص: ٣٢٨)، تفسير ابن عطية: (٣/ ١٣٣- ١٣٤)، تفسير القرطبي: (٨/ ٢٣٣).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٢٦)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ١٣٣)، تفسير القرطبي: (٨/ ٢٣٣)، تفسير السعدي: (٢/ ٣٣٤).

يقول ابن جرير في تفسير الآية الكريمة: (يقول تعالى ذكره: كما طبعنا على قلوب أولئك، فختمنا عليها، فلم يكونوا يقبلون من أنبياء الله نصيحتهم، ولا يستجيبون لدعائهم إياهم إلى ربهم، بما اجترموا من الذنوب، واكتسبوا من الآثام، كذلك نطبع على قلوب من اعتدى على ربه، فتجاوز ما أمر به من توحيده، وخالف ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته، عقوبة لهم على معصيتهم ربهم، من هؤلاء الآخرين من بعدهم).[1]

٧. قال الله تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [النحل: ١٠٨].

سياق الآية الكريمة[2] يتضمن الوعيد الشديد لمن كفر بعد الإيمان، وارتد عن دين الله تعالى، وآثر الضلال على الهدى، فنطق بكلمة الكفر، وتلفظ لسانه بما تقبله من ذلك فؤاده، وانشرح له صدره، وتفتح له قلبه، طائعًا مختارًا.

ومن ذلك الوعيد والجزاء والعقوبة الإلهية ما ورد في هذه الآية من الطبع على القلوب، والختم عليها، وصرفها عن الهدى، فلا تتأمل الحق ولا تدركه، ولا تتدبر الدلائل بحيث تنتفع وتعتبر.[3]

(١) تفسير الطبري: (١١/ ١٤٥)، وانظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٨١٢ – ١٨١٣).

(٢) يقول الله ﷻ في الآيتين السابقتين على هذه الآية: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ .. ﴾ [النحل: ١٠٦].

(٣) انظر: تفسير السمرقندي:(٢/ ٢٩٣)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٢٥)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٢٦).



قال ابن كثير: (أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر، واطمأن به، أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابًا عظيمًا في الدار الآخرة، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئًا ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً، فهم غافلون عما يراد بهم).[1]

ويقول السعدي: (لما اختاروا الكفر على الإيمان، منعهم الله الهداية، فلم يهدهم، لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم، فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، فلا ينفذ منها ما ينفعهم، ويصل إلى قلوبهم، وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة الله، التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها).[2]

٨. يقول الله جل شأنه:

﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٨ – ٥٩].

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٨٧).

(٢) تفسير السعدي: (٣/ ٨٧)، وانظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٨٢ – ١٨٣).

والمقصود بالآيتين المشركون، الذين اختاروا سبيل التكذيب، تعنتًا منهم وعنادًا، مع أن معالم الحق ودلائل التوحيد في القرآن بينة واضحة، والحجة عليهم من الرسول عليه الصلاة والسلام قائمة ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾.

هؤلاء الكافرون الجاحدون يقلبون الحقائق، فيتهمون الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بأنهم أهل باطل ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾.(١)

ولاختيار هؤلاء المكذبين الإصرار على الباطل، والثبات على الضلال، واتهام المؤمنين بالإبطال، عاقبهم الله جل وعلا بالطبع على قلوبهم، والختم عليها، فلا يهتدون ولا يؤمنون.

وكذلك يفعل سبحانه بأمثالهم من الجاهلين بتوحيد ربهم جلّ شأنه، ممن يفتقد العلم الموصل إلى الحق والهدى، ولا يسعى إلى تحصيله وإدراكه، ويصرّ على ما هو متلبسّ به من الباطل ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.(٢)

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢١/ ٥٨)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٣٤٤)، زاد المسير: (٦/ ١٥٨)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٢٢٥)، فتح القدير: (٤/ ٢٣٢).

(٢) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٨٤٦)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٨٨)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٣٣)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ١٨١)، تفسير السعدي: (٤/ ٩٨).



قال النسفي: (أي مثل ذلك الطبع، وهو الختم، يطبع الله على قلوب الجهلة، الذين علم الله منهم اختيار الضلال، حتى يسمّوا المحقين مبطلين، وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة).(١)

وقال الشوكاني: (أي مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الفاقدين للعلم النافع، الذي يهتدون به إلى الحق، وينجون به من الباطل).(٢)

يقول صاحب الظلال: (كذلك بمثل هذه الطريقة، ولمثل هذا السبب، فهؤلاء الذين لا يعلمون مطموسوا القلوب، لا تتفتح بصيرتهم لإدراك آيات الله، متطاولون على أهل العلم والهدى، ومن ثم يستحقون أن يطمس الله على بصيرتهم، وأن يطبع على قلوبهم، لما يعلمه سبحانه عن تلك البصائر وهذه القلوب).(٣)

٩. يقول الله ﷻ:

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

تتضمن الآية الكريمة إعلامًا بشدة مقت الله تعالى وبغضه جل وعلا ـ ومعه عباده المؤمنون ـ للمكذبين المجادلين في آيات الله وحججه سبحانه، الذين يعملون على إبطالها وردها، فيخاصمون الرسل عليهم السلام فيما جاءوا به

---

(١) تفسير النسفي: (٣/ ٢٣)، وانظر: تفسير البيضاوي: (٢/ ٢٢٥).

(٢) فتح القدير: (٤/ ٢٣٢).

(٣) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٧٧٨).

من الدلائل والبينات، ويثيرون حولها الأباطيل والشبهات، تبريرًا للكفر والتكذيب، وأملا في دحض الدين الحق، وإطفاء نوره، وطمس معالمه، دون أن يكون لهم في ذلك حجة أو برهان صحيح.[1]

ومن كانت هذه حاله فإن الله جل شأنه يعاقبه بالطبع على قلبه، فلا يذوق طعم الإيمان، ولا يجد برد الهداية.

قال ابن كثير: (فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفا ولا ينكر منكرا ).[2]

وبمثل هذا الطبع على قلوب المخاصمين في آيات الله بالباطل، يطبع الله جل وعلا على قلوب المتكبرين عن عبادة الله تعالى وتوحيده، المتعاظمين عن اتباع الحق، الباغين على الناس اعتداء وظلمًا ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾.

قال السمعاني: (الطبع على القلب هو الختم عليه حتى لا يدخله الحق).[3]

فيختم سبحانه على قلوب هؤلاء بالضلال، ويحجبها عن الهدى، فلا تقبل الحق، ولا تعقل الرشد، عقوبة من الله تعالى لهم، وجزاء عدلا منه

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٩٤٥)، تفسير البغوي: (٤/ ٩٨)، تفسير النسفي: (٣/ ٢٥٠).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٧٩).

(٣) تفسير السمعاني: (٥/ ٢٠).



سبحانه على ما اختاروه من التجبر والكبرياء.[1]

١٠. يقول الله تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦].

والآية الكريمة في شأن المنافقين[2]، الذين كانوا يحضرون مجالس رسول الله ﷺ، فيتظاهرون بالاستماع لقوله عليه الصلاة والسلام، لكنهم في حقيقة الأمر معرضون غافلون، ليس لهم قصد إلى قبول الحق أو الانقياد للوحي، ثم إذا خرجوا من مجلس رسول الله ﷺ التقوا بأهل العلم من الصحابة ﷺ، فيطرحون تساؤلهم عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾.

والمعنى: ما الذي قاله الآن في الساعة الماضية القريبة؟

يبعثهم إلى هذا التساؤل الاستهزاء برسول الله ﷺ، والتقليل من شأنه، والاستخفاف بكلامه، والإيعاز بأن مقاله ليس بحريّ للمرء أن يلتفت إليه، أو يستشعر من ورائه نفعًا، أو يهتم بفقه المراد منه وفهم المقصود.[3]

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٦٤)، تفسير السمرقندي: (٣/ ١٩٧)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٥٩)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٢٠٤)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٦٥).

(٢) انظر: زاد المسير: (٧/ ١٥٠)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٠٣)، التسهيل: (٤/ ٤٨)، تفسير النسفي: (٣/ ٣٦٨)، المنافقون في القرآن: (ص: ١٩١).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥٠ - ٥١)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ١٠)، معاني القرآن للنحاس: (٦/ ٤٧٥)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٠٢)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٢٥)، تفسير ابن عطية: (٥/ ١١٤ -١١٥)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٥٨)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٧٩)، فتح القدير: (٥/ ٣٧)، في ظلال القرآن: (٦/ ٣٢٩٤).

ولما كان أولئك المنافقون على هذه الصفة من النفاق والخبث، متبعين آرائهم وأهوائهم في الكفر والتكذيب، تاركين ما يجب عليهم من قصد الهدى واتباع الحق، فقد جازاهم الله جل وعلا وعاقبهم بالطبع على قلوبهم، والختم عليها، فلا تؤمن ولا تهتدي.[1]

يقول السعدي: (وهذا في غاية الذم لهم، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير لألقوا إليه أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها، بسبب اتباعهم أهوائهم، التي لا يهوون فيها إلا الباطل).[2]

١١. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

تتضمن الآية الكريمة إعلامًا من الله جل وعلا بأنه طبع على قلوب المنافقين، مجازاة لهم بسبب ما أبطنوه في صدورهم من الكفر والتكذيب، بعدما أقروا بالإسلام ظاهرًا، نطقًا بأفواههم، وتلفظًا بألسنتهم، مخادعة وتضليلًا للمؤمنين، بينما هم في الحقيقة صادون في أنفسهم عن دين الله

(١) انظر: تفسير السمعاني: (٥/ ١٧٥)، تفسير البغوي: (٤/ ١٨١)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٧٧)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٩٦)، تفسير القاسمي: (١٥/ ٤٩).

(٢) تفسير السعدي: (٥/ ٢٩)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥١)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٢٨٦)، تفسير ابن عطية: (٥/ ١١٥)، الفوائد: (ص: ١٦٩).



سبحانه، معرضون عن التصديق برسول الله ﷺ، صادون غيرهم عن الإيمان، يغرّون الناس بحلاوة ألسنتهم، وجميل مظهرهم، فإذا رأوا المؤمنين لبسوا لباس الإسلام، وإذا خلوا بأشباههم في الكفر صرحوا بالكره والعداوة، وخططوا للكيد والمكر بالإسلام وأهله[1] ﴿ذَٰلِكَ[2] بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

قال القرطبي: (أي ختم عليها بالكفر).[3]

وقال السمعاني: (أي ختم على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان وقبول الحق).[4]

وقال ابن جرير: (جعل الله على قلوبهم ختمًا بالكفر عن الإيمان).[5]

وقال ابن كثير: (أي فلا يصل إلى قلوبهم هدى ولا يخلص إليها

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٩٨)، تفسير السمعاني: (٥/ ٤٤١)، تفسير البغوي: (٤/ ٣٤٧)، تفسير القرطبي: (١٨/ ٨١)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٦٨)، أضواء البيان: (٨/ ٣٢٥).

(٢) الإشارة إلى ما تضمنه قوله سبحانه في الآية السابقة: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾. انظر: تفسير الطبري: (٢٨/ ١٠٧)، تفسير النسفي: (٣/ ٥٣٠)، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى ما تضمنته الآيتان السابقتان من وصفهم بالكذب والصدّ وسوء العمل. انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣١٢)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٢٧١).

(٣) تفسير القرطبي: (١٨/ ٨١)، وانظر: تفسير السمرقندي: (٣/ ٤٢٨).

(٤) تفسير السمعاني: (٥/ ٤٤١).

(٥) تفسير الطبري: ٢٨/ ١٠٧)، وانظر: تفسير البغوي: (٤/ ٣٤٧).

خير).[1]

وهذه العقوبة الإلهية بالطبع على قلوبهم، وختمها بالكفر، وحرمانها من الهدى، إنما هي بسبب ما اختاروه من الثبات على الباطل، والإصرار على النفاق، والتزام الكفر بعد الإيمان.[2]

قال النسفي: (ختم عليها حتى لا يدخلها الإيمان جزاء على نفاقهم).[3]

يقول صاحب الأضواء: (في هذه الآية نص على أن الطبع على قلوبهم نتيجة لكفرهم بعد إيمانهم).[4]

وفي قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ بيان لأثر ذلك الطبع على قلوبهم، فهم بسببه لا يعون الحجج، ولا يفهمون البراهين، ولا يميزون بين الحق والباطل، ولا يدركون ما ينفعهم من الهدى والخير والإيمان.[5]

وقد وصفت الآية الكريمة المنافقين بأنهم: ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾، وقريب من ذلك وصف رسول الله ﷺ قلب المنافق بأنه قلب منكوس.

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٦٨)، وانظر: تفسير السعدي: (٥/ ٢٤٤).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣١٢)، أضواء البيان: (٧/ ١١٠).

(٣) تفسير النسفي: (٣/ ٥٣٠)، وانظر: فتح القدير: (٥/ ٢٣٨).

(٤) أضواء البيان: (٨/ ٣٢٤).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٢٨/ ١٠٧)، تفسير القرطبي: (١٨/ ٨١)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٦٨)، أضواء البيان: (٧/ ١١٠).



ففي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [القلوب أربعة] وذكر منها: [قلب منكوس] ثم قال: [وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثم أنكر].[1]

وقد وردت عقوبة الطبع على القلب في السنة الشريفة، وذلك في حديث رسول الله ﷺ: [من ترك ثلاث جمع تهاونًا بها طبع الله على قلبه].[2]

والحديث الشريف مشتمل على الوعيد بالطبع على القلب لمن يتكرر

---

(١) رواه أحمد في المسند: (٣/ ١٧)، قال ابن كثير في تفسيره: (١/ ٥٧) (هذا إسناد جيد حسن)، وانظر: (٣/ ٢٩٣)، وجوّد السيوطي إسناده كذلك في الدر المنثور: (١/ ٢١٥)، ورواه الطبراني كما في مجمع الزوائد: (١/ ٢٣١)، قال الهيثمي: (وفي إسناده ليث بن أبي سُليم) قال العراقي: (مختلف فيه)، المغني: الإحياء: (١/ ١٧٣)، وضعفه الألباني مرفوعًا: إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨) (الهامش)، وصححه من حديث حذيفة ﷺ بنحوه موقوفًا عليه، وحديث حذيفة رواه ابن جرير في تفسيره: (١/ ٤٠٦)، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٢٠٥)، وأبو نعيم في الحلية: (١/ ٢٧٦) وغيرهم. انظر: الدر المنثور: (١/ ٢١٤)، وصححه ابن القيم في إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨).

(٢) رواه أبو داود من حديث أبي الجعد الضمري ﷺ في كتاب الصلاة، باب التشديد في ترك الجمعة: (١/ ٦٣٨)، والترمذي بنحوه وحسنه في كتاب الجمعة، باب: ما جاء في ترك الجمعة بغير عذر: (٢/ ٣٧٣)، والنسائي في كتاب الجمعة، باب: التشديد في التخلف عن الجمعة: (٣/ ٨٨)، وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: فيمن ترك الجمعة من غير عذر: (١/ ٣٥٧)، وأحمد في المسند: (٣/ ٤٢٤ - ٤٢٥)، والبيهقي: السنن الكبرى: (١/ ٥٦٦)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٤١٥) وصححه، ووافقه الذهبي، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بالصحة: فيض القدير: (٦/ ١٠٢)، وصححه الألباني في تخريج أحاديث الطحاوية: (ص: ٥١١)، طبعة المكتب الإسلامي، وانظر: الترغيب والترهيب: (١/ ٥٠٩).

منه ترك صلاة الجمعة، على وجه التهاون والتساهل وعدم المبالاة، دون عذر أو ضرورة.

والمقصود تقرير المنزلة الرفيعة لصلاة الجمعة، والتأكيد على خطورة تركها، والإشارة إلى عظم معصية التساهل والتهاون بها.[1]

(١) انظر: فيض القدير: (٦/ ١٠٢)، شرح السيوطي على النسائي: (٣/ ٨٨)، تحفة الأحوذي: (٢/ ٣٧٥).



# المبحث الثاني عشر

## القلوب المختوم عليها

الختم في اللغة بمعنى: الطبع.

يقال: ختم الشيء، يختمه، ختمًا: طبعه، فهو مختوم، ومختّم، و الختام: الطين الذي يختم به الكتاب و نحوه.

والختم أيضًا: المنع، وحفظ ما في الكتاب بتعليم الطينة. ولذا سُمي ما يختم به الكتاب خاتمًا، لأنه يصونه و يمنع الناظرين عما في بطنه.

و أصل الختم: التغطية. يقال: ختم البذر، أي غطاه.[1]

فالختم والطبع يُفسّر أحدهما الآخر.

قال الزجاج: (معنى ختم في اللغة وطبع معنى واحد، وهو التغطية على الشيء، والاستيثاق من ألا يدخله شيء).[2]

وقال الراغب: (الختم و الطبع يُقال على وجهين، مصدر ختمت وطبعت، وهو تأثير الشيء كنقش الخاتم والطابع، والثاني: الأثر الحاصل عن النقش، ويتجوز بذلك تارة في الاستيثاق من الشيء والمنع منه، اعتبارًا بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب..).[3]

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٣٢٤)، لسان العرب: (٢/ ١١٠١ – ١١٠٢)، ترتيب القاموس: (٢/ ١٥).

(٢) معاني القرآن: (١/ ٨٢)، وانظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٤٠).

(٣) المفردات: (ص: ١٤٩).

وقال ابن منظور: (الختم على القلب: ألا يفهم شيئًا، ولا يخرج منه شيء، كأنه طبع، وفي التنزيل العزيز: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧]، هو كقوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [النحل: ١٠٨] فلا تعقل ولا تعي شيئًا).[1]

ويرى ابن القيم أن الطبع و إن كان يشترك مع الختم في معاني التغطية و الاستيثاق إلا أنه أشد و أقوى أثرًا.

يقول ابن القيم: (الختم و الطبع يشتركان فيما ذكر، و يفترقان في معنى آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجيّة وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق).[2]

**وقد ورد الختم على القلوب في أربع آيات من كتاب الله العزيز:**

١. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٦ - ٧].

هاتان الآيتان الكريمتان في شأن أهل الكفر من المشركين أو المنافقين أو اليهود، الذين اختاروا طريق الكفر، و أصروا عليه، وعلم الله ﷻ بقائهم

(١) لسان العرب: (٢/ ١١٠١)، وانظر: ترتيب القاموس: (٢/ ١٥).

(٢) شفاء العليل: (ص: ٢٠٢).



على الكفر، وموتهم عليه، وعلى ذلك فاللفظ عام يراد به الخصوص.[1]

هؤلاء الكافرون لا يجدي فيهم الإعلام والتخويف، أو الوعظ والتذكير، ويعتدل ويستوي في حقهم الإنذار وتركه، إذ الإيمان منتفٍ عنهم في الحالين.[2]

وعلة ذلك[3] أن الله جل وعلا ختم على قلوبهم، فلا تجد للهداية سبيلًا: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧].

وقد فسر الختم في الآية بالطبع[4].

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: (١/ ٧٩)، معاني القرآن للنحاس: (١/ ٨٧)، تفسير السمعاني: (١/ ٤٦)، تفسير البغوي: (١/ ٤٩)، زاد المسير: (١/ ٢٢)، تفسير القرطبي: (١/ ١٢٩، ١٣٣ - ١٣٤)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٥٠)، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: (ص: ٩).
قال ابن عطية: (١/ ٨٧): (اختلف فيمن نزلت هذه الآية بعد الاتفاق على أنها غير عامة لوجود كفار قد أسلموا بعدها) وبعد أن أورد عددًا من الأقوال اختار منها أنها نزلت (فيمن سبق في علم الله أنه لا يؤمن، أراد الله تعالى أن يعلم أن في الناس من هذه حاله دون أن يُعيّن أحدًا) وذكر أن هذا القول: (هو المعتمد عليه، وكل من عين أحدًا فإنما مثل بمن كشف الغيب بموته على الكفر أنه في ضمن الآية) وانظر: مجموع الفتاوى: (١٦/ ٥٨٣ - ٥٩١).

(٢) انظر تفسير الطبري: (١/ ١١١)، تفسير السمعاني: (١/ ٤٦) تفسير القرطبي: (١/ ١٢٨ - ١٢٩) تفسير البيضاوي: (١/ ٢٢)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٤٥).

(٣) انظر تفسير البغوي: (١/ ٤٩)، تفسير الفخر الرازي: (٢/ ٤٨)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣٠)، تفسير البيضاوي: (١/ ٢٢)، التسهيل: (١/ ٣٧).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١١٢)، تفسير ابن عطية: (١/ ٨٧)، زاد المسير: (١/ ٢٢)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣١).

وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]، والسدي.[2]

**وللمفسرين في توضيح المراد بالختم على القلوب هنا عبارات متقاربة.**

ومن ذلك قول ابن قتيبة: (إنما أراد أنه أقفل عليها وأغلقها فليست تعي خيرًا ولا تسمعه، و أصل هذا أن كل شيء ختمته فقد سددته وربطته).[3]

وقول الواحدي: (أي طبع الله على قلوبهم، واستوثق منها، حتى لا يدخلها الإيمان).[4]

وقول السمعاني: (الطبع والختم بمعنى واحد، وهو الذي يمنع القلب من البصر).[5]

وقول القرطبي: (إنما هو معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به)[6]، مستدلا بقول الله جل وعلا: ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الحجر: ١٢]. ومثلها قوله تبارك وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤١)، الدر المنثور: (١/ ٧٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٤٥).

(٣) تفسير غريب القرآن: (ص: ٤٠)، وانظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٥١)، تفسير البغوي: (١/ ٤٩)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣٠)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٤٦)، تفسير السعدي: (١/ ٣٥).

(٤) تفسير الواحدي: (١/ ٩١).

(٥) تفسير السمعاني: (٤/ ٢٢٣)، وانظر: (١/ ٤٦).

(٦) تفسير القرطبي: (١/ ١٣١).



قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٠].

والسلك في الآيتين الإدخال[1]، والضمير عائد إلى الشرك والتكذيب، كما قال جمع من المفسرين[2]، وهو مروي عن أنس رضي الله عنه، والحسن ، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم[3]، والمراد بالمجرمين مشركو قريش.[4]

يقول ابن كثير: (أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى).[5]

هذا الختم من الله جل شأنه على قلوب هؤلاء الكافرين إنما هو على وجه العقوبة لهم على إصرارهم على الباطل، وإعراضهم عن الحق وعن

(١) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٢١)، المفردات: (ص: ٢٤٥)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٥٣٦)، تفسير القرطبي: (١٠/ ٧)، لسان العرب: (٣/ ٢٠٧٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ٩، ١٩/ ١١٥)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٢١)، معاني القرآن للزجاج: (٣/ ١٧٤)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ١٢)، تفسير السمعاني: (٣/ ١٣١، ٤/ ٦٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٤٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ٩، ١٩/ ١١٥)، تفسير ابن أبي حاتم: (٩/ ٢٨٢١ - ٢٨٢٢)، تفسير الصنعاني: (٢/ ٣٤٥ - ٣٤٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٤٧)، الدر المنثور: (٥/ ٦٧، ٦/ ٣٢٣).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٤٥)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٥٣)، تفسير القرطبي: (١٠/ ٧)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٤٤٨).

(٥) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٤٧)، وانظر: (٣/ ٣٤٨)، تفسير السمرقندي: (٢٠/ ٢٥٢، ٥٦٨)، تفسير الواحدي: (١/ ٥٨٩، ٢/ ٧٩٧)، تفسير البغوي: (٣/ ٤٥)، زاد المسير: (٤/ ٢٨٢)، تفسير النسفي: (٢/ ١٧٩، ٢/ ٥٨٨).

التدبر في دلائله، وانهماكهم في الغواية و المعصية، واستمرارهم في سبل الضلال.

عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ قال: (استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه، فختم الله على قلوبهم).[1]

وعن مجاهد قال: (نبئت أن الذنوب على القلب تحف به من نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم).[2]

يقول القرطبي: (الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم)، (وكان فعل الله ذلك عدلًا فيمن أضله وخذله، إذ لم يمنعه حقًا وجب له فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم، لا ما وجب لهم).[3]

قال ابن القيم: (والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بينه له، وإنما بعد تكرار الدعوة منه سبحانه، والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرار الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها فلا تقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر

(١) تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤١)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٥)، الدر المنثور: (١/ ٧٣).
(٢) تفسير الطبري: (١/ ١١٢)، تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤١)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٥).
(٣) تفسير القرطبي: (١/ ١٣١)، وانظر: شفاء العليل: (ص: ١٩١)، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: (ص: ١٠).



الأول لم يكن معه ختم وطبع، بل كان اختيارًا، فلما تكرر منهم صار طبعًا وسجيّة، فتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ومعلوم أن هذا ليس حكمًا يعمّ جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارا قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم.

فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة).[1]

ويقول ابن كثير: (إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم في الباطل، وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى).[2]

**وأورد بين يدي كلامه عددًا من الآيات الدالة على ذلك.**

ويقول الألوسي: (ثم إن إسناد الختم إليه ﷻ باعتبار الخلق، والذم والتشنيع الذي تشير إليه الآية الكريمة باعتبار كون ذلك مسببًا عما كسبه الكفار من المعاصي).[3]

(١) شفاء العليل: (ص: ١٩٩ – ٢٠٠).
(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ٤٦)، وانظر: معاني القرآن للنحاس: (١/ ٨٧)، تفسير السعدي: (١/ ٣٥)، أضواء البيان: (٦/ ٦٥٢ – ٦٥٣).
(٣) روح المعاني: (١/ ١٣٢)، قال أبو السعود: (فإن خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر، بل بطريق الترتيب على ما اقترفوه من القبائح) (١/ ٣٧).

ولذا فسر ابن جرير الختم في الآية الكريمة ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ بحديث أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: [إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت. فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]].(١)

فقد قال ابن جرير: (والحق في ذلك عندي ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ).(٢)

وبعد أن أورد الحديث بسنده قال: (فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلفتها، وإذا أغلفتها أتاها حينئذ الختم من قِبَل الله ﷻ والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفضّ ذلك عنها ثم حلها، فكذلك

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ويل للمطففين: (٥/ ٤٣٤)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة، واللفظ له، في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب: (٢/ ١٤١٨)، وأحمد في المسند: (٢/ ٢٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان: (٥/ ٤٤٠)، والحاكم في المستدرك: (٢/ ٥٦٢)، وصححه، ووافقه الذهبي. وانظر: الترغيب والترهيب: (٤/ ٩٢)، وحسنه غير واحد من المعاصرين. انظر: تحفة الأحوذي: (٨/ ٣٣٢) (الهامش)، ذم الهوى: (ص: ٧٩) (الهامش).

(٢) تفسير الطبري: (١/ ١١٢).



لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فضه خاتمه وحله رباطه عنها).(١)

(١) تفسير الطبري: (١/ ١١٢ – ١١٣)، وذكر أيضًا أن معنى الختم على القلوب هو نظير معنى الختم على سائر الأوعية والظروف: (١/ ١١٢).

ويُفهم من ذلك أن ابن جرير يرى أن لفظ الختم والإقفال ونحوهما هو على سبيل الحقيقة، ويؤيده حديث: [إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه] وحديث: [فأي قلب أُشْرِبَها نكت فيه نكتة سوداء]، وقد روي عن حذيفة ﷺ ومجاهد أن القلب مثل الكف ينضم وينقبض مع تتابع الكفر والذنوب حتى يطبع عليه ويختم. انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٩)، تفسير ابن أبي حاتم: (١٠/ ٣٤٠٩)، الدر المنثور: (٨/ ٤٤٦ – ٤٤٧)، قال القرطبي: (وفي قول مجاهد هذا، وقوله ﷺ: [إن في الجسد مضغة..] دليل على أن الختم يكون حقيقيًا) كما استدل القرطبي لهذا القول أيضًا بحديث رفع الأمانة وقبضها من القلوب [فيظل أثرها مثل الوكت..] حيث ذكر أن في هذا الحديث: (ما يدل على أن ذلك كله محسوس في القلب يفعل فيه، وكذلك الختم والطبع. والله أعلم) (١/ ١٣٢).

وقد اكتفى ابن كثير: (١/ ٤٥ – ٤٦)، والثعالبي: (١/ ٣١) بهذا القول في تفسير آية الختم في سورة البقرة، تبعًا لابن جرير، واحتمله ابن عطية فقال: (هذا الطبع يحتمل أن يكون حقيقة، ويحتمل أن يكون استعارة) (٥/ ١١٥)، وانظر: (١/ ٨٨)، وقال: (والحقيقة في هذا غير مستحيلة، والتجوز أيضًا فصيح) (٣/ ٥٢٥)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (١/ ٤٨)، التسهيل: (١/ ٣٧).

ونصر ابن القيم القول بالحقيقة وقال: (وهذه الأمور إذا أضيفت إلى محالها كانت بحسب تلك المحال، فنسبة قفل القلب إلى القلب كنسبة قفل الباب إليه، وكذلك الختم والطابع الذي هو عليه بالنسبة إليه كالختم والطبع الذي على الباب والصندوق ونحوهما) شفاء العليل: (ص: ٢٠١).

ويرى عدد من المفسرين أن هذه الأوصاف ليست على حقيقتها، بل هي كناية عن غشيان الضلال في القلب، وعدم نفوذ الحق إليه، من باب استعارة الشيء المحسوس للمعقول، أو تمثيلًا للقلب بالوعاء الذي يختم أو يغطى لمنع الوصول إليه، فهو بمثابة الشيء المختوم عليه، أو المقفل، ختمًا وقفلًا حسيًا، والمستوثق منه استيثاقًا حقيقيًا.

وممن قال بذلك ابن عطية: (٣/ ٦٨)، والبيضاوي: (١/ ٢٢)، وابن جزي: التسهيل: (١/ ٣٧)، وأبو حيان: تفسير البحر المحيط: (١/ ٤٨)، وأبو السعود: (١/ ٣٧)، والألوسي: روح المعاني: (١/ ١٣٢)، والشوكاني: فتح القدير: (١/ ٤١).

ولفظ: ﴿رَانَ﴾ في الآية الكريمة المفسَّرة في الحديث بمعنى غلب وغشي وغطى.[1]

والمصدر الرين، ومثله الران[2]، ولذا سمي الصدأ الذي يعلو الشيء ويغشاه رينًا.[3]

قال الخطابي: (الران والرين لغتان، وهو ما يغشى القلب ويتخلله من ظلمة الذنوب).[4]

ومعنى الآية أن كسب أولئك الكافرين المكذبين من الذنوب غطى قلوبهم وغلب عليها.

عن مجاهد في الآية الكريمة قال: (العبد يعمل بالذنوب فتحيط بالقلب، ثم ترتفع حتى تغشى القلب).[5]

وقال: (انبثت على قلبه الخطايا حتى غمرته).[6]

---

(١) انظر: غريب القرآن لليزيدي: (ص: ٤١٩)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٥١٩)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٢٩٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٦٠)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٧٢٢)، زاد المسير: (٨/ ٢٠٣)، لسان العرب: (٣/ ١٧٩٦، ١٧٩٧)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ١١٥).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٩١)، لسان العرب: (٣/ ١٧٩٧).

(٣) انظر: غريب القرآن لليزيدي: (ص: ٤١٩)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٢٩٩)، المفردات: (ص: ٢١٤)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٧٢٢)، لسان العرب: (٣/ ١٧٩٦).

(٤) غريب الحديث: (٣/ ٧١).

(٥) تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٨).

(٦) تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٩)، وانظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٨٥)، الدر المنثور: (٨/ ٤٤٧).



وعن الحسن قال: (الذنب على الذنب، ثم الذنب على الذنب، حتى يغمر القلب فيموت).[1]

يقول البغوي: (ومعنى الآية: غلب على قلوبهم المعاصي وأحاطت بها).[2]

وقال ابن جرير: (غلب على قلوبهم وغمرها وأحاطت بها الذنوب فغطتها).[3]

وعن ابن عباس ﷺ أنه فسر ﴿رَانَ﴾ في الآية بمعنى طبع.[4]

وعن مجاهد قال: (الران الطابع)[5]، وعنه أيضًا قال: (كانوا يرون أن الرين هو الطبع).[6]

وقال السمرقندي في تفسيره للآية: (﴿بَلْ رَانَ﴾ يعني ختم).[7]

---

(١) الدر المنثور: (٨/ ٤٤٧)، وانظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٨، ٩٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٦٠)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٨٥).

(٢) تفسير البغوي: (٤/ ٤٦٠)، وانظر: تفسير الواحدي: (٢/ ١١٨٣).

(٣) تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٧)، وانظر: تفسير السمعاني: (٦/ ١٨٠).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٩)، تفسير ابن أبي حاتم: (١٠/ ٣٤٠٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٦٠)، الدر المنثور: (٨/ ٤٤٧).

(٥) الدر المنثور: (٨/ ٤٤٧)، وانظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٩).

(٦) شعب الإيمان: (٥/ ٤٤٢)، وانظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٩)، إحياء علوم الدين: (٣/ ١٦)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٦)، الدر المنثور: (٨/ ٤٤٧).

(٧) تفسير السمرقندي: (٣/ ٥٣٥)، وانظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٩١).

ولا تعارض بين المعنيين من حيث اللغة، فإن ألفاظ الرين والطبع والختم متقاربة المعنى، ولذا قال ابن منظور: (وأصل الرين الطبع والتغطية).[1]

ولا من حيث المعنى الشرعي المتعلق بالقلب، فإن الطبع والختم على القلوب نتيجة للران الذي يغشاها.

ومن ثم اعتبر بعض الأئمة أن الطبع والران مرتبتان إحداهما أشد من الأخرى.

عن مجاهد قال: (الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد ذلك كله).[2]

وقال أبو معاذ النحوي[3]: (الرين أن يسود القلب من الذنوب، والطبع أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين، والإقفال أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب).[4]

---

(١) لسان العرب: (٣/ ١٧٩٧)، وانظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٩١).

(٢) تفسير الطبري: (١/ ١١٢)، وانظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٤٥)، شعب الإيمان: (٥/ ٤٤٢)، ذم الهوى: (ص: ٧٩)، النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١١٢).

(٣) هو الفضل بن خالد، أبو معاذ النحوي المروزي، مولى باهلة، روى عن عبد الله بن المبارك، توفي سنة إحدى عشرة ومائتين. انظر: الثقات لابن حبان: (٩/ ٥)، كشف الظنون: (٢/ ١٤٤٩).

(٤) شفاء العليل: (ص: ٢٠٥)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ٦٥، ٣١/ ٩٤)، تفسير القرطبي: (١٩/ ١٧١)، فتح القدير: (٥/ ٤١٦).



يقول ابن القيم: (وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد).[1]

ويظهر من حديث أبي هريرة المفسّر للآية أن الران عبارة عما يغطي القلب ويعلوه من السواد، كأثر عن غمرة الخطايا وغشيان الذنوب.

عن الحسن في معنى الآية قال: (هو الذنب على الذنب حتى يرين على القلب فيسود)[2]، وبنحوه عن قتادة.[3]

**فالران حجاب يحجب القلب عن نور الهدى وضياء الحق.**

عن ابن زيد في معنى الآية قال: (غلب على قلوبهم ذنوبهم، فلا يخلص إليها معها خير).[4]

يقول ابن القيم: (وأما الرين والران فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها).[5]

---

(١) الداء والدواء: (ص: ١٦٧).

(٢) تفسير الصنعاني: (٣/ ٣٥٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٩)، الدر المنثور: (٨/ ٤٤٧)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٨٥)، مدارج السالكين: (٣/ ١٧٣).

(٤) تفسير الطبري: (٣٠/ ١٠٠).

(٥) شفاء العليل: (ص: ٢٠٥)، وانظر: مدارج السالكين: (٣/ ١٧٣).

هذا الحجاب يتسبّب عن كسب الإنسان من سيئات الكفر والمعاصي والفجور.

يقول ابن كثير: (إنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا).[1]

وقال الرازي: (بل أفعالهم الماضية صارت سببًا لحصول الرين في قلوبهم).[2]

وقال ابن عطية: (أوجب أن ما كسبوا من الكفر والطغيان والعتو قد ران على قلوبهم، أي غطى عليها وغلب، فهم مع ذلك لا يبصرون رشدًا، ولا يخلص إلى قلوبهم خير).[3]

ويقول ابن القيم: (أخبر الله ﷻ أن كسب القلوب سبب للران الذي يعلوها)[4]، إذ (أخبر سبحانه أن ذنوبهم التي اكتسبوها أوجبت لهم رينا على قلوبهم، فكان سبب الران منهم، وهو خلق الله فيهم، فهو خالق السبب ومسبَّبه، لكن السبب باختيار العبد، والمسبب خارج عن قدرته واختياره).[5]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٨٥)، وانظر: المسائل في أعمال القلوب: (ص: ١٠٠)، الفوائد: (ص: ٢٠١).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٣١/ ٩٤).

(٣) تفسير ابن عطية: (٥/ ٤٥١)، وانظر: (٥/ ٤٥٢)، المفردات: (ص: ٢١٤)، التسهيل: (٤/ ١٨٥)، أضواء البيان: (٤/ ١٤٥).

(٤) مدارج السالكين: (٢/ ٢٧).

(٥) شفاء العليل: (ص: ٢٠٦)، وانظر: الفوائد: (ص: ١٦٨).



وفي هذا الباب أيضًا حديث حذيفة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا[1]، فأي قلب أُشْرِبَها[2] نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها[3] نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا[4]، فلا تضره فتنة مادامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبَادًّا[5]، كالكوز[6] مُجَخِّيًا[7]، لا يعرف

---

(١) تشبيه لعرض الفتن على القلوب، وظهورها واحدة إثر أخرى، بعرض أعواد الحصير على صانعه وناسجه، كلما انتهى من عود أخذ آخر. انظر: مشارق الأنوار: (١/ ٢٠٥، ٢/ ٧٣)، الديباج على مسلم للسيوطي: (١/ ١٦٤).

(٢) أي حلت منه محل الشراب، والمراد أنه رضيها وقبلها قبولًا تامًا. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٤٥٤)، الديباج على مسلم للسيوطي: (١/ ١٦٤).

(٣) أي ردها ولم يقبلها. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٧٢).

(٤) الصفا: جمع صفاة، وهي الحجر الأملس. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤١)، والمقصود من تشبيه القلب هنا بالصفا بيان قوة يقينه، وسلامته من الفتنة، وأنها لم تلصق به، ولم تؤثر فيه، كما أن الحجر الأملس لا يعلق به شيء، فهو وصف آخر لهذا القلب بعد وصفه بالبياض. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٧٢)، الديباج على مسلم للسيوطي: (١/ ١٦٤).
والقلب الأبيض هو ما (أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردّها، فازداد نوره وإشراقه وقوّته) إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨).

(٥) بضم الميم وتشديد الدال، يقال: اربد لونه، وارباد، إذا تغير ودخله سواد. انظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (٤/ ١٢١)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١٨٣)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٧٣).

(٦) الكوز بضم الكاف: وعاء الماء. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٨٠).

(٧) (المجخي: المائل عن الاستقامة والاعتدال، فشبه القلب الذي لا يعي خيرًا بالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء) النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٤٢)، وانظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (٤/ ١٢٢) فهو وصف ثان بعد وصفه بالسواد، والمراد أنه مقلوب منكوس لا يعلق به خير. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٧٣)، الديباج على مسلم: (١/ ١٦٤).

معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا أما أشرب من هواه).[1]

إذ يقرر الحديث أن اتباع الإنسان لهواه، وافتتانه بالشبهات والشهوات المتتابعة، وتأثره بذلك، وقبوله له، ورضاه به، يثمر أمرين متلازمين: أولهما سواد القلب وظلمته، وثانيهما انحرافه وانتكاسه، بحيث لا يعي الخير، ولا يبصر الحق، ولا يمتعض من المنكر والشر.[2]

قال المنذري[3]: (معنى الحديث أن القلب إذا افتتن، وخرجت منه حرمة المعاصي والمنكرات، خرج منه نور الإيمان، كما يخرج الماء من الكوز إذا مال أو انتكس).[4]

ويقول ابن القيم: (صدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته، كان الصدأ متراكبًا على قلبه، وصدؤه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم، فلم تظهر فيه صور الحقائق كما هي عليه.

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب (بيان أن الإسلام بدأ غريبًا..) (١/ ١٢٨ - ١٢٩).
(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٧٣)، إغاثة اللهفان: (١/ ٤٧ - ٤٨).
(٣) هو عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، زكي الدين، أبو محمد المنذري، الشافعي، الشامي ثم المصري، إمام حجة حافظ، علامة في الحديث وفنونه، من مصنفاته: الترغيب والترهيب، ومختصر سنن أبي داود، توفي سنة ست وخمسين وست مائة.
انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٢٩٧ - ٢٢٩٨)، طبقات الحفاظ للسيوطي: (ص: ٥٠٤ - ٥٠٥).
(٤) الترغيب والترهيب: (٣/ ٢٣١).



فإذا تراكم عليه الصدأ واسودّ وركبه الران فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقًا، ولا ينكر باطلًا، وهذا أعظم عقوبات القلب، و أصل ذلك من الغفلة و اتباع الهوى، فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره).[1]

٢. يقول الله ﷻ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

في الآية الكريمة توبيخ وتبكيت للمشركين المعاندين، واحتجاج عليهم، وإبراز لنوع من الأدلة على وحدانية الله سبحانه، وأنه المستحق وحده للعبادة والتعظيم، وعلى بطلان الشرك واتخاذ الآلهة من دون الله جل وعلا.[2]

والختم على القلب في هذه الآية يتضمن معنى الطبع عليه، بحيث لا ينتفع به صاحبه انتفاعًا دينيًا شرعيًا، فلا يتدبر الدلائل، ولا يعقل الهدى، كما يتضمن معنى التغطية وزوال الفهم، بحيث لا ينتفع به صاحبه انتفاعًا دنيويًا، فلا يدرك ولا يميز، ولا يعرف الأشياء ولا يفقه الأمور.[3]

وكذلك الحال بالنسبة لأخذ السمع والبصر الوارد في الآية.

(١) الوابل الصيّب: (ص: ٨٩).
(٢) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ١٩٦)، تفسير البغوي: (٢/ ٩٧)، تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ٢٢٧)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ١٣١)، تفسير أبي السعود: (٣/ ١٣٤).
(٣) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ١٩٦)، تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ٢٢٧)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٣٣)، تفسير أبي السعود: (٣/ ١٣٤)، فتح القدير: (٢/ ١١٧).

والمعنى أن الله جل شأنه هو القادر على أن يسلب من الإنسان سمعه فيصبح أصمّ، ويذهب بصره فيصبح أعمى، ويختم على قلبه فلا يعقل ولا يميز ولا يهتدي، ومن ثَمّ لا ينتفع بهذه القوى دينًا ولا دنيا، إذ هو تبارك وتعالى المنعم على الإنسان بهذه النعم، وليس هناك من يقدر على وهبها أو انتزاعها أوردّها بعد سلبها سواه سبحانه، ولذا فهو المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له.[1]

قال القاسمي: (وإنما خُصّت هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر لأنها أشرف أعضاء الإنسان، فإذا تعطلت اختل نظام الإنسان، وفسد أمره، وبطلت مصالحه في الدين والدنيا).[2]

٣. يقول الله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤].

تتضمن الآية الكريمة إنكارًا وتوبيخًا وردًا على كفار مكة، الذين اتهموا رسول الله ﷺ باختلاق الكذب فيما جاء به من الوحي عن الله تبارك وتعالى.[3]

**وللمفسرين في لفظ الختم في الآية قولان رئيسان:**

**الأول**: أنه بمعنى الربط على القلب.

(١) انظر: تفسير القرطبي: (٦/ ٢٧٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٣٣).
(٢) تفسير القاسمي: (٦/ ٥٢١)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ٢٢٧).
(٣) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٩٦٥)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٢٢٦)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٨)، التسهيل: (٤/ ٢٠)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٥١٦).



وهو قول الواحدي[1]، والسمرقندي.[2]

وعلى هذا القول فمعنى: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] أي يربط على قلبك ويثبته ويقويه، فتصبر على هذا الاتهام والأذى.[3]

**الثاني**: أن الختم في الآية بمعنى الطبع على القلب، فلا يفقه ولا يعي خيرًا.

عن السدي في تفسير ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال: (يطبع).[4]

وعن قتادة في الآية ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال: (إن يشأ أنساك ما قد آتاك).[5]

واختار هذا القول عدد من المفسرين منهم ابن جرير[6]، والزجاج[7]، وابن كثير[8]، والبقاعي[9]، ورجحه الشوكاني.[10]

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٩٦٥).
(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (٣/ ٢٣٠).
(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٩٩)، تفسير السمعاني: (٥/ ٧٥)، تفسير النسفي: (٣/ ٢٩٣).
(٤) تفسير الطبري: (٢٥/ ٢٧ - ٢٨).
(٥) تفسير الطبري: (٢٥/ ٢٧)، وانظر: تفسير الصنعاني: (٣/ ١٩١)، الدر المنثور: (٧/ ٣٥٠).
(٦) انظر: تفسير الطبري: (٢٥/ ٢٧).
(٧) انظر: معاني القرآن: (٤/ ٣٩٩).
(٨) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ١١٤).
(٩) انظر: نظم الدرر: (٦/ ٦٢٦).
(١٠) انظر: فتح القدير: (٤/ ٥٣٠).

والمعنى: أن الرسول ﷺ لو كان مفتريًا كما يدعي المشركون لطبع الله على قلبه، فلا يبقى معه من الوحي شيء.

والمقصود إبعاد التهمة عن رسول الله ﷺ، وتبرئته منها، والشهادة له عليه الصلاة والسلام بالصدق، وأن ما ادّعوه باطل لا حقيقة له.[1]

يقول ابن كثير في تفسير الآية: (أي لو افتريت عليه كذبًا كما زعم هؤلاء الجاهلون ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله جل جلاله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] أي لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه).[2]

وهذا من ابن كثير تفسير للقرآن بالقرآن.

قال القاسمي: (هذا تفسير بالأشباه والنظائر من الآيات، يؤثره كثير من الأئمة ما وجد إليه سبيلًا، فإن التنزيل يفسر بعضه بعضًا).[3]

ومن ثَمّ فإن هذا القول في معنى الآية هو الأقرب، والعلم عند الله تعالى، ومما يؤيده أيضًا كونه أكثر مناسبة لسياق الآية الكريمة التي أوردت

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٤ - ٣٥)، التسهيل: (٤/ ٢٠)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٣٠ - ٣١)، تفسير السعدي: (٤/ ٤٢٢)، الشفا: (٢/ ٢٦٧).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ١١٤).

(٣) تفسير القاسمي: (١٤/ ٣١٠).



اتهام المشركين لرسول الله ﷺ بالافتراء، إذ يتضمن الرد عليه، بينما تفسير الختم على القلب بالربط عليه غير متضمن لذلك، ولذا قال ابن عطية عن هذا القول في معنى الختم: (هذا تأويل لا يتضمن الرد على مقالتهم).[1]

٤. يقول الله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

تتضمن الآية الكريمة تسلية لرسول الله ﷺ في مواجهته للكافرين الذين اتبعوا أهوائهم، و أطاعوها، فرفضوا الحق، وتركوا الهدى، وأعرضوا عن الإيمان[2] ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من الفاعل أو من المفعول.

وعلى الأول فالمعنى أن الله جل وعلا أضل هذا العابد لهواه على علم سابق منه سبحانه بكفره، واستحقاقه للضلال، وأنه لا يهتدي مهما تنوعت البينات.

وعلى الثاني فالمعنى أن هذا الذي أضله الله تعالى قد وصله العلم، وبلغه الحق، واستبان له الدليل، وقامت عليه الحجة، ومع ذلك استنكف عن الاستجابة جحودًا وعنادًا.

(١) تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٥)، وانظر: نظم الدرر: (٦/ ٦٢٦).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٢٩٤)، تفسير ابن عطية: (٥/ ٨٦)، التسهيل: (٤/ ٣٩)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٥٠).

وكلا المعنيين محتمل.[1]

وتقرر الآية الكريمة أن الله سبحانه ختم على قلبه، أي طبع عليه، وحال بينه وبين الهدى، فلا يعقل الخير، ولا يعتقد الحق، ولا يعي الرشد، ولا يتفكر في الدلائل، ولا يتأثر أو ينتفع بالمواعظ.

هذا الختم من الله جل شأنه عقاب له على ما اكتسب من الإعراض عن الإيمان، وعبادة الهوى من دون الله.[2]

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٌ﴾

يقول ابن جرير في تفسير الآية: (طبع على سمعه أن يسمع مواعظ الله وآي كتابه، فيعتبر بها ويتدبرها ويتفكر فيها، فيعقل ما فيها من النور والبيان والهدى، وطبع أيضًا على قلبه، فلا يعقل به شيئًا ولا يعي به حقًا، وجعل على بصره غشاوة أن يبصر به حجج الله، فيستدل بها على وحدانيته، ويعلم بها أن لا إله غيره).[3]

وبمثل هذا المعنى قال عدد من المفسرين.[4]

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٨٦)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٤٩)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٥٠).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٨٧).

(٣) تفسير الطبري: (٢٥/ ١٥١) (مع اختصار يسير).

(٤) انظر: تفسير السمعاني: (٥/ ١٤١)، تفسير البغوي: (٤/ ١٦٠)، زاد المسير: (٧/ ١٢٧)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١١٢)، تفسير النسفي: (٣/ ٣٤٣)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٥٠)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٧٣).



وفي السنة الشريفة ورد لفظ الختم على القلب في حديث رسول الله ﷺ: [لينتهين أقوام عن ودْعهم[1] الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكوننّ من الغافلين].[2]

والحديث الشريف مشتمل على الوعيد بالختم على القلب لمن يعتاد ترك صلاة الجمعة والتخلف عنها دون عذر أو ضرورة، وبيان أن ذلك من أعظم أسباب الخذلان للعبد ـ والعياذ بالله تعالى ـ.

قال ابن عبد البر: (الختم على القلوب مثل الطبع عليها، وهذا وعيد شديد، لأن من طبع على قلبه وختم عليه لم يعرف معروفًا ولم ينكر منكرًا).[3]

والحديث يتضمن إشارة إلى أن الختم سبيل إلى تمكّن الغفلة، ذلك (أن اعتياد ترك الجمعة يغلب الرّين على القلب، ويزهد النفوس في الطاعات، وذلك يؤديهم إلي الغفلة).[4]

---

(١) (أي تركهم إياها، والتخلف عنها، يقال: ودع الشيء، يدعه، ودعا، إذا تركه) النهاية في غريب الحديث: (٥/ ١٦٦).

(٢) رواه مسلم من حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما في كتاب صلاة الجمعة، باب التغليظ في ترك الجمعة: (١/ ٥٩١).

(٣) الاستذكار: (٢/ ٥٥)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/ ١٥٢).

(٤) فيض القدير: (٥/ ٣٩٧)، وانظر: سبل السلام: (٢/ ٤٥).

# المبحث الثالث عشر

## القلوب المقفلة

أصل القفل يدل على صلابة وشدة في الشيء.

ومن ذلك: قَفِل الشيء، أي يَبِس، والقَفْل: ما يبس من الشجر، وأقفل الباب، وأقفل عليه، إقفالا، فهو مقفل.

والقفل: الحديد الذي يغلق به الباب، سُمِّي بذلك لأن فيه شَدًّا وشِدَّة، والجمع أقفال.[1]

قال الراغب: (وقد جعل ذلك مثلًا لكل مانع للإنسان من تعاطي فعل، فيقال: فلان مقفل عن كذا).[2]

**وقد ورد لفظ الأقفال مضافًا إلى القلوب في قول الله تعالى:**

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

والآية الكريمة في المنافقين[3]، تتضمن توبيخًا لهم على إعراضهم عن القرآن، وعدم تدبرهم له، وتفهمهم لمعانيه، وتفكرهم فيما يتضمنه من دلائل التوحيد، والمواعظ والأحكام، والوعد والوعيد: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

---

(١) انظر: المشوف المعلم: (٢/ ٦٥٣ - ٦٥٤)، مقاييس اللغة: (ص: ٨٦٦)، لسان العرب: (٥/ ٣٧٠٧)، ترتيب القاموس: (٣/ ٦٦٩)، وللقفل أصل آخر يدل على معنى الرجوع من السفر.

(٢) المفردات: (ص: ٤١٠)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٨٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥٧)، تفسير النسفي: (٣/ ٣٧٠)، المنافقون في القرآن: (ص: ١٩١).

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ فيتبين لهم الحق، ويتضح لهم الهدى، فيسلكون طريق الإيمان الصادق، متباعدين عما أقاموا عليه من الكفر والنفاق.[1]

ثم قرّرت الآية أن قلوب أولئك المنافقين مقفلة عن الخير والإيمان والهدى، مغلقة عن فهم كلام الله جل وعلا، وما فيه من الموعظة والتذكير، غير قابلة للتفكر والتدبر، بحيث تعقل الحق وتفهمه ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

و﴿أَمْ﴾ في الآية منقطعة بمعنى: (بل).[2]

قال ابن كثير: (أي بل على قلوب أقفالها فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه).[3]

وقال ابن الجوزي: (والمراد أن القلب يكون كالبيت المقفل لا يصل إليه الهدى).[4]

يقول ابن القيم : ( كأن القلب بمنزلة الباب المرتج ، الذي قد ضرب عليه قفل ، فإنه إن لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ١١٩)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٨٣).

(٢) انظر: تفسير السمعاني: (٥/ ١٨١)، تفسير البغوي: (٤/ ١٨٤)، تفسير ابن عطية: (٥/ ١١)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٨٣).

(٣) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٨٠)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥٧)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٦٣).

(٤) زاد المسير: (٧/ ١٥٤)، وانظر: فتح القدير: (٥/ ٤١).



وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان ولا القرآن).[1]

ومن الملاحظ في الآية تنكير لفظ القلوب، وإضافة الأقفال إليها.

يقول ابن القيم في توجيه ذلك: (تأمل تنكير القلب، وتعريف الأقفال، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء، وقلوب من هم بهذه الصفة، ولو قال: أم على القلوب أقفالها. لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة.[2]

(١) شفاء العليل: (ص: ٢٠٨)، وانظر: نظم الدرر: (٧/ ١٧٠).

وقد نبه ابن القيم إلى أن من الممكن إزالة الختم والإقفال عن القلب بإرادة الله ومشيئته، ورحمته وفضله سبحانه، فيهتدي العبد بعد الضلال، ويرشد بعد الغي.

يقول ابن القيم: (ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع من الطبع والختم والقفل حصول الإيمان، بأن يفك الذي ختم على القلب وطبع عليه وضرب عليه القفل ذلك الختم والطابع والقفل، ويهديه بعد ضلاله، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيه، ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده.. والمقصود أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم والطابع، وفتح ذلك القفل، يفتحه من بيده مفاتيح كل شيء، وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه، وإن كان فك الختم والقفل غير مقدور له، كما أن شرب الدواء مقدور له، وزوال العلة وحصول العافية غير مقدور.. فلو أنه في هذه الحال تعرض وافتقر إلى من بيده هداه، وعلم أنه ليس إليه هدى نفسه، وأنه إن لم يهده الله فهو ضال، وسأل الله أن يقيل قلبه ويقيه شر نفسه وفقه وهداه) شفاء العليل: (ص: ١٩٨ - ١٩٩ مع اختصار).

(٢) وهو قول القرطبي. انظر: تفسير القرطبي: (١٦/ ١٦٣).

ولبعض المفسرين أقوال أخرى في توجيه ذلك. انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٢٨)، تفسير النسفي: (٣/ ٣٧٠)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٨٣)، نظم الدرر: (٧/ ١٧٠)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٩٩).

وفي قوله: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال: أقفال، لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى القلوب علم أن المراد بها ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيرها.. والله أعلم).[1]

وقد أوضح سياق الآيات منشأ تلك الأقفال لقلوب أولئك المنافقين، وسببها الذي استحقت به عقاب الله جل شأنه، وذلك في قول الله سبحانه في الآية التالية لهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

فقد عاندوا الحق بعد ما عرفوه، وتأخروا إلى الكفر بعد ما اتضح لهم طريق الإيمان، ورفضوا الهدى وقد تبينت لهم معالمه، وانكشفت دلائله، وظهرت براهينه وحججه، وعبدوا الشيطان بطاعتهم له فيما زينه وحسنه من الثبات على الكفر والنفاق، واستحباب الدنيا وتقديمها على الآخرة.[2]

---

(١) شفاء العليل: (ص: ٢٠٨)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٢٨)، تفسير النسفي: (٣/ ٣٧٠)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٨٣)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٩٩)، فتح القدير: (٥/ ٤١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥٨)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٨٠)، نظم الدرر: (٧/ ١٧٠ – ١٧١).

## الفصل الثالث:

## القلوب المريضة

## ويشتمل على مبحثين:

**المبحث الأول: المراد بمرض القلب.**

**المبحث الثاني: وصف القلب بالمرض في القرآن الكريم.**

## المبحث الأول

## المراد بمرض القلب

المرض مصدر للفعل مَرِض، يَمْرض، ويراد به السقم الذي يصيب الإنسان، فيخرج به عن حد الصحة والاعتدال، سواء كانت تلك العلة جسمية أو نفسية، حسية أو معنوية، بدنية أو قلبية، وسواء كان الداء ماديًا متعلقا بالجسد، أو روحيًا متعلقًا بالدين.

وأصل المرض في اللغة يدور حول معاني الضعف والفتور والنقصان والفساد والظلمة.

يقال: بدن مريض: أي ضعيف ناقص القوة، وعين مريضة: أي فيها فتور وضعف، وليلة مريضة: أي مظلمة، وشمس مريضة: أي غير صافية، ومرض فلان في حاجتي: أي نقصت حركته.[1]

ومرض القلب بمدلوله الإيماني الشرعي لا يخرج عن هذه الدائرة اللغوية.

ذلك أن قلب العبد حين ينحرف في علمه وإدراكه تصديقًا واعتقادًا، أو في عمله وحركته شهوة وإرادة، فيزيغ عن المسار الصحيح، ويضل عن الصراط المستقيم، الذي ارتضاه الله تعالى له شرعًا ودينًا، حينها يصيب

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩٤٤)، المفردات: (ص: ٤٦٩)، لسان العرب: (٦/ ٤١٨٠ - ٤١٨٢)، ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ٢٢٩)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤٩٢ - ٤٩٣).

القلب فساد وضعف، ونقصان وظلمة، فيعتلّ ويمرض، وينتكس عن عافيته وقوته، ونوره وصحته.

يقول الغزالي: (اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له، حتى لا يصدر منه أصلًا، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار، وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله، وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته).[1]

فإذا اعتل قلب المؤمن، وأسرع إليه الداء، خرج بما يحتويه من سقم ومرض عن دائرة القلب الصحيح السليم، إذ ينقص إيمانه، ويضعف سراج قلبه عن الإضاءة الكاملة والنور التام، لكنه لا ينطفئ بالكلية بحيث يظلم ويرتكس إلى دائرة الكفر أو النفاق الخالص، بل يبقى القلب مترددًا بين الحياة والموت، بحسب تردده بين العلم والجهل، والهدى والضلال، والطاعة والمعصية، والتقوى والفجور.[2]

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٨٣)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٤١)، إغاثة اللهفان: (١/ ١٣٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٩٤ - ٩٥، ٢٨/ ٤٤٨).



## وحينئذ لا يخلو الأمر من ثلاث حالات:

**الأولى**: أن يبقى القلب في هذه الدائرة موصوفًا بالمرض، دون أوبة إلى الصحة والسلامة، أو ارتكاس إلى الموت التام، تؤمل له العافية، ويخشى عليه الهلاك.

**الثانية**: أن يعمل العبد بتوفيق الله تعالى إلى السعي في الأسباب الموجبة لعافية القلب وحياته، وتمام نوره وضيائه، فيعود القلب بالتوبة والإنابة إلى حدّ الصحة والسلامة، بعد زوال ما نأى به عن ذلك الحدّ من الداء والمرض.

**الثالثة**: أن يتمادى العبد في غيه وجهله، ويستكبر عن علاجه ودوائه، فتتمكن منه الشهوات المردية، والشبهات المضلّلة، بحيث تخرجه عن دائرة الإيمان إلى دوائر الكفر الصريح أو النفاق الخالص، فيصبح المرض باستشرائه مميتًا موهنًا للقلب بشكل تام، وحينها يكون القلب المريض مرادفًا للقلب الميت الذي لا أثر فيه لحياة الإيمان ونور الهداية.[1]

يقول ابن القيم في وصف القلب المريض: (قلب له حياة وبه علة، فله مادتان، تمده هذه مرة، وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه، ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات، وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر

(١) انظر: الأربعين في أصول الدين: (ص: ١٥٦).

والعجب، وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة، ما هو مادة هلاكه وعطبه[1]، وهو مُمْتحن بين داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا).[2]

ويقول ابن أبي العز: (علامة مرض القلب عدوله عن الأغذية النافعة الموافقة إلى الأغذية الضارة، وعدوله عن دوائه النافع إلى دوائه الضار.

فها هنا أربعة أشياء: غذاء نافع، ودواء شاف، وغذاء ضار، ودواء مهلك.

فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك، وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن، وكل منهما فيه الغذاء والدواء).[3]

**وفي الحديث الشريف إشارة إلى هذا القلب المريض.**

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصْفَح.

(١) العطب: بفتح العين والطاء: الهلاك. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٧٦٠).

(٢) إغاثة اللهفان: (١/ ٤٥).

(٣) شرح الطحاوية: (ص: ٢٤٥)، وانظر: إغاثة اللهفان: (١/ ١٤٣).



فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البَقْلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرْحة يمدها القيح والدم، فأي المدّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه].[1]

والشاهد في الحديث هنا: (القلب المصفح).

والمراد بصَفْح الشيء جانبه وناحيته.[2]

قال ابن الجوزي: (قلب مُصْفَح: أي ذو وجهين، له صَفْحان).[3]

ووجهاه وجانباه هما المذكوران في الحديث: [إيمان ونفاق] ولذا سمي بالقلب المصفح، لأن الإيمان لم يتمكن فيه بحيث يزهر سراجه بالنور التام، ولم يتجرد الحق فيه، بل هو متردد بين جانبين، متنقل بين ناحيتين، متذبذب

(١) رواه أحمد في المسند: (٣/ ١٧)، قال ابن كثير في تفسيره: (١/ ٥٧) (هذا إسناد جيد حسن)، وانظر: (٣/ ٢٩٣)، وجوّد السيوطي إسناده كذلك في الدر المنثور: (١/ ٢١٥)، ورواه الطبراني كما في مجمع الزوائد: (١/ ٢٣١)، قال الهيثمي: (وفي إسناده ليث بن أبي سُليم) قال العراقي: (مختلف فيه)، المغني: الإحياء: (١/ ١٧٣)، وضعفه الألباني مرفوعًا: إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨) (الهامش)، وصححه من حديث حذيفة ﷺ بنحوه موقوفًا عليه، وحديث حذيفة رواه ابن جرير في تفسيره: (١/ ٤٠٦)، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٢٠٥)، وأبو نعيم في الحلية: (١/ ٢٧٦)، وغيرهم. انظر: الدر المنثور: (١/ ٢١٤)، وصححه ابن القيم في إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨).

(٢) انظر: المشوف المعلم: (١/ ٤٢٩)، مقاييس اللغة: (ص: ٥٤٦).

(٣) غريب الحديث: (١/ ٥٩٢).

بين وجهين: الحق والباطل، وهو في الأول أشبه بالبَقْلة من النبات يمدّها الماء الطيب، وفي الثاني أشبه بالقُرْحة من الجروح يمدها القيح، فإذا غلب الأول كان أقرب إلى الإيمان والهدى والاستقامة، وإذا غلب الثاني كان أقرب إلى الكفر والنفاق، وإذا غمره وغطاه كان كافرًا صريحًا أو منافقًا تام النفاق.[1]

هذا الداء المنافي للصحة يصيب القلب في إحدى دائرتين: دائرة الشبهة أو دائرة الشهوة، وقد تجتمع العلتان، وقد تنفرد إحداهما في القلب دون الأخرى.[2]

يقول ابن القيم: (مرض القلب خروج عن صحته واعتداله، فإن صحته أن يكون عارفًا بالحق، محبًا له مؤثرًا له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه، فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غيّ وشهوة، وقد سمى الله سبحانه كلا منهما مرضًا).[3]

وبعد أن ذكر أن (المرض يدور على أربعة أشياء: فساد وضعف ونقصان وظلمة) قال: (هذا أصله في اللغة، ثم الشك والجهل والحيرة والضلال، وإرادة الغيّ وشهوة الفجور في القلب، تعود إلى هذه الأمور الأربعة).[4]

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان: (١/ ٤٩).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٨٧).

(٣) شفاء العليل: (ص: ٢١٣)، وانظر: القواعد الحسان: (ص: ٩٤).

(٤) شفاء العليل: (ص: ٢١٤).



وذكر أيضًا في موضع آخر أن مرض القلب (هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره للحق وإرادته له، فلا يرى الحق حقًا، أويراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، وتفسد به إرادته له، فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له، وهو الغالب).[1]

## وبهذا الاعتبار يمكن تقسيم مرض القلب إلى قسمين[2]:

**الأول**: مرض الشهوة، حيث يميل القلب إلى محبة المعصية، وشهوة الفاحشة، وإرادة الفجور، وتثور فيه معاني الحسد والكبر والبخل والجبن، ونحو ذلك من الأدواء.

فهو حركة للقلب مضادة للعلم الصحيح، متعارضة متناقضة مع المعلوم قطعًا من الحق والهدى.

فالفساد في هذا القسم من جهة الشهوة المحرمة، يتأسس على تحكيم الهوى، والانقياد له، واتباعه، وتقديمه على مراد الله جل شأنه المتضمّن في نصوص الكتاب والسنة.[3]

---

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٥٧ - ٥٨).

(٢) انظر: الآداب الشرعية: (٣/ ١١١)، شرح الطحاوية: (ص: ٢٤٤)، تفسير السعدي: (١/ ٣٧)، أضواء البيان: (٥/ ٧٣٤ - ٧٣٥)، القواعد الحسان: (ص: ٩٤).

(٣) انظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٩٠).

**الثاني**: مرض الشبهة[1]، فيميل القلب إلى الاعتقادات الباطلة، ويتقبل الشكوك الرديئة، ويصبح محلًا قابلًا لفتنة الشبهة التي يلتبس فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال، والمعروف بالمنكر، وقد يستحكم المرض في القلب، فيعتقد المعروف منكرًا والباطل حقًا، ويثمر ذلك ترددًا وحيرة، وفتنة وريبة، فيستسلم للفهم الفاسد، ويبني علمه على أساس باطل، وحينئذ تفتر إرادته في طلب الحق، فلا يصل إليه، وتعمى بصيرته عن تلمسّه واليقين به، لامتلاء القلب بما ترسّخ فيه من القناعة بضده من الباطل.

وأساس هذا المرض الجهل، وقصور العلم، واتجاه نفسي إلى تقديم الرأي على نصوص الشرع.

وهذا القسم من مرض القلب أخطر من سابقه، إذ يتعلق بعقيدة القلب وأصل إيمانه، بالإضافة إلى أن صاحبه لا يقرّ بباطله، بل يراه الحق الذي لا ريب فيه، بينما مريض الشهوة يعترف غالبًا بضلال معصيته مع غلبة هواه عليه، ولذا يكون أقرب إلى الأوبة من مريض الشبهة.

---

(١) الشبهة: الالتباس. يقال: اشتبه الأمر: إذا اختلط، وشُبّه عليه الأمر: لُبّس عليه، وأمور مشتبهة: مشكلة يشبه بعضها بعضًا، وشُبّه عليه: خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره. انظر: لسان العرب: (٤/ ٢١٩٠)، ترتيب القاموس: (٢/ ٦٧٠).

والمراد: (الشكوك التي توقع في اشتباه الحق بالباطل، فيتولد عنها الحيرة والريبة) مدارج السالكين: (٣/ ٣٨١).



ومن ثَمّ فإن مرض الشبهة كثيرًا ما يردي صاحبه، ويؤثر في دينه وإيمانه، ويورثه ضلالًا عن الهدى، وانحرافًا عن الحق، ويسهّل له الوقوع في براثن البدع المفارقة للسنة، وحبائل الأفكار المشوشة المؤثرة على اليقين، بل قد يؤول هذا المرض بصاحبه إلى كفر أو نفاق مخرج عن الملة، أو ينهزه إلى الثبات والتزام كفره ونفاقه إن كان يعيش ذلك أصلًا.

وتشتد العلة، ويتضاعف الافتتان، حين يقترن المرضان، فيخالط مرض الشبهة اتباع للأهواء النفسية، وقصد للأغراض الشخصية، من كبر أو حسد، أو محبة للظهور، أو شهوة للتعاظم والعلوّ.

يقول ابن القيم: (فتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى).[1]

---

(١) إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٨٧)، وانظر: (٢/ ٨٨٨ - ٨٩٠)، القواعد الحسان: (ص: ٩٤).

## المبحث الثاني
## وصف القلب بالمرض في القرآن الكريم

ورد وصف القلب بالمرض في اثنتي عشرة آية من القرآن الكريم، وحين التأمل في تلك الآيات الكريمة، والرجوع إلى كلام أهل التفسير في معانيها، وفي شأن المقصودين بها، يتبين أن هذا الوصف غالب في القرآن الكريم ـ خصوصا في حال انفراده ـ على طائفة معينة، وهم المنافقون الذين داخل الفساد والظلمة قلوبهم، وغلب عليها الضعف والنقصان والسقم، وذلك فيما يتعلق بعقائدهم وما يتبعها من إرادات وأهواء.

ولعل تخصيص المنافقين بغلبة هذا الوصف، مع أن فساد القلب موجود في الكافرين الخلّص أيضًا، عائد إلى أن المنافقين تميزوا وانفردوا بالوصف الذي به سموا بهذا الاسم، وهو النفاق المبني على إظهار الإسلام في حال كان لهم في ذلك تحقيق مصلحة عاجلة، أو التحرز عن مفسدة متوقعة، بينما لا مانع لديهم من الإفصاح عن كفرهم في المكان والزمان الذي يشعرون فيه بالأمن، ويتمكنون من البوح بمكنون صدورهم، بحيث يتحقق لهم ما يهدفون إليه من المكر بالإسلام والكيد لأهله، كما قال الله سبحانه عنهم: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

فلما كان ظاهرهم بهذه الصورة من السلامة والبراءة والوداعة، كان الوصف بالمرض متجهًا إلى محل الضمائر والسرائر الذي يخفون فيه هذا

الفساد العظيم، وذلك الداء العضال، والعلم عند الله تعالى.

**وفيما يلي عرض لجملة الآيات التي تضمنت وصف القلب بالمرض، وذلك على سبيل الإيجاز والاكتفاء بدائرة هذا الوصف منها:**

١. يقول الله تعالى:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠].

سياق هذه الآية الكريمة في المنافقين، وفيها يخبر الله جل شأنه أن في قلوب هؤلاء المنافقين مرضًا ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾.

عن ابن زيد قال: (هذا مرض في الدين، وليس مرضًا في الأجساد، قال: هم المنافقون).[1]

والمراد بالمرض هنا الشك والنفاق.[2]

عن ابن عباس ﷺ قال: (﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي شك).[3]

وهو مروي عن ابن مسعود ﷺ، وقتادة، وابن زيد، والربيع بن أنس، وأبي العالية، وغيرهم.[4]

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ١٢١)، الدر المنثور: (١/ ٧٦)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١٢١)، غريب القرآن لليزيدي: (ص: ٦٥)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٤١)، معاني القرآن للزجاج: (١/ ٨٦)، تفسير الواحدي: (١/ ٩٢)، تفسير السمعاني: (١/ ٤٨) تفسير البغوي: (١/ ٥٠)، زاد المسير: (١/ ٢٤)، تفسير النسفي: (١/ ١٧).

(٣) تفسير الطبري: (١/ ١٢١)، تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤٣)، الدر المنثور: (١/ ٧٥)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١٢١- ١٢٢)، تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤٣)، الدر المنثور: (١/ ٧٥- ٧٦)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).



وعن ابن عباس ﷺ أيضًا قال: (المرض النفاق).[1]

هذا النفاق والشك والتحيّر والتذبذب بين الإيمان والكفر من هؤلاء المنافقين، يكشف الخلل والفساد والسقم المتأصل في اعتقاد قلوبهم، فيما يتعلق بدين الله جل وعلا، ونبيه ﷺ.[2]

**والظاهر أن العلة في قلوب المنافقين تتمثل في جانبين[3]:**

**أولهما**: وهو الغالب عليهم[4]، الجحود بالحق الذي جاء به رسول الله ﷺ، بعدما تبينت لهم معالمه، وعرفوا صدقه، واستيقنوا أمره، وظهرت لهم البينات الموجبة للإيمان به، والإذعان له.

وهو جحود مبني على كبر أو حسد أو متاع يخشون زواله، أو غير ذلك من دواعي الجحود والإنكار والمخالفة.

**وثانيهما**: شك وريب في الحق مع رسول الله ﷺ، ليس لهم فيه عذر، بسبب تفريطهم في طلب الحق، واستنكافهم عن النظر في دلائله، والتأمل في حججه وبراهينه، وانشغالهم بعقائدهم الباطلة، ومعتقداتهم الزائفة،

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ١٢١)، تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤٣)، الدر المنثور: (١/ ٧٥)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١٢٠- ١٢١)، تفسير ابن عطية: (١/ ٩٢)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣٨).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٩٢).

(٤) انظر: المنافقون في القرآن: (ص: ٤٠)، النفاق آثاره ومفاهيمه: (ص: ١٥).

واستسلامهم لأهوائهم وشهواتهم، وتشبّثهم بتقليد كبرائهم في التمسّك بالضلال دون دليل، والإصرار على الباطل بلا برهان، وعدم جدّيتهم في قصد الهداية، ولذا فهم لا يسمعون سماع المنتفع، ولا يبصرون إبصار المعتبر، ولا يتفكرون تفكر الراغب في الوصول إلى الحق والهدى.

ثم أخبر الله تعالى أنه زادهم فسادًا واعتلالًا في قلوبهم، جزاء لهم على الذنب المتجدّد منهم[1] ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

عن ابن عباس ﷺ قال: (شكًا).[2]

وهو مروي عن ابن مسعود ﷺ، وقتادة، والربيع بن أنس، وأبي العالية.[3]

وعن قتادة قال: (نفاقًا).[4]

وعن عبد الرحمن بن زيد قال: (زادهم رجسًا، وقرأ قول الله ﷻ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] قال: شرًا إلى

(١) انظر: زاد المسير: (١/ ٢٤)، مجموع الفتاوى: (١٤/ ١٥٢)، القواعد الحسان: (ص: ٩٤).

(٢) تفسير الطبري: (١/ ١٢٢)، تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤٤)، الدر المنثور: (١/ ٧٥)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١٢٢ - ١٢٣)، تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤٤)، الدر المنثور: (١/ ٧٦).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤٤).



شرهم، وضلالة إلى ضلالتهم).[1]

قال ابن كثير: (وهذا الذي قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن، وهو الجزاء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]).[2]

وهذا تفسير للقرآن بالقرآن قال به جمع من المفسرين.[3]

والمقصود أن أولئك المنافقين كلما نزلت آية من كلام الله سبحانه، تتضمن أمرًا أو خبرًا أو موعظة، شكّوا وارتابوا وكذّبوا، فيزيدهم الله تعالى بذلك مرضا في قلوبهم ، يضاف إلى ما سبق فيها من شك وتكذيب بما نزل من آيات الله جل شأنه.

قال البغوي: (لأن الآيات كانت تنزل تترى، آيه بعد آية، كلما كفروا بآية ازدادوا كفرًا ونفاقًا، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾).[4]

(١) تفسير الطبري: (١/ ١٢٢ - ١٢٣)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١٢٢)، معاني القرآن للزجاج: (١/ ٨٦)، تفسير السمرقندي: (١/ ٥٣)، تفسير الواحدي: (١/ ٩٢)، تفسير السمعاني: (١/ ٤٨)، تفسير البغوي: (١/ ٥٠)، تفسير ابن عطية: (١/ ٩٢)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٥٩)، القواعد الحسان: (ص: ٩٤).

(٤) تفسير البغوي: (١/ ٥٠).

ويقول ابن عطية: (وهذه الزيادة بما ينزل من الوحي، ويظهر من البراهين، فهي على هؤلاء المنافقين عمى، وكلما كذبوا زاد المرض).[1]

٢. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ [المائدة: ٥٢].

والمقصود بهذه الآية الكريمة المنافقون[2]، والمرض في قلوبهم هو النفاق[3]، ومن آثاره ومظاهره ما ذكرته الآية من حال المنافقين في مسارعتهم ومبادرتهم إلى مودة اليهود والنصارى، وموالاتهم ومعاونتهم، وممالأتهم على المؤمنين.[4]

٣. يقول الله سبحانه:

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٩].

تذكر الآية الكريمة مقالة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، والتي

(١) تفسير ابن عطية: (١/ ٩٢)، وانظر: النفاق آثاره ومفاهيمه: (١٢ – ١٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ٢٧٨ – ٢٧٩)، معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٣٢١)، تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ١٦)، زاد المسير: (٢/ ٢٨٩).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ١٨١)، معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٣٢١)، تفسير البغوي: (٢/ ٤٤)، تفسير النسفي: (١/ ٤١٨).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ٢٧٩)، تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ١٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٦٨).



قالوها يوم بدر ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾، في إشارة إلى المسلمين الذين كانوا في ضعف وقلة، والمعنى أنهم اغتروا بدينهم وخدعوا، فظنوا أنهم به لا يُغْلبون، وأنهم سينتصرون على جيش أقوى عتادًا وأكثر عددًا، ومن ثم تكلفوا ما لا طاقة لهم به ولا حيلة، وأوردوا أنفسهم موارد الهلاك، وفي ذلك تقليل من شأن المؤمنين، واستخفاف بعقولهم وأسلوب تفكيرهم.[1]

## وفي المراد بالذين في قلوبهم مرض في الآية احتمالان[2]:

**الأول**: أن الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والعطف للتفسير أو التأكيد أو تعدد الأوصاف.[3]

ورجح ذلك القرطبي.[4]

**الثاني**: أن الذين في قلوبهم مرض في هذه الآية ليسوا منافقين، بل هم من المسلمين، والمراد بهم من ضعف يقينهم، ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم، ولم تثبت في الإسلام أقدامهم، فتأثروا بنوع من الشبهة، وداخلهم شيء من الريب والشك، مما لا يصل إلى حد النفاق المباين للإيمان، فنهزهم ذلك إلى مشاركة المنافقين، وموافقتهم في ذلك القول.

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ٥٣٩)، تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١٧٦ – ١٧٧)، تفسير أبي السعود: (٤/ ٢٦)، تفسير المنار: (١٠/ ٣١)، تفسير السعدي: (٢/ ٢٠٨ – ٢٠٩).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري: (٢/ ٢١٧)، تفسير القاسمي: (٨/ ٧٥).

(٣) انظر: روح المعاني: (١٠/ ١٦)، تفسير القاسمي: (٨/ ٧٥).

(٤) انظر: تفسير القرطبي: (٨/ ١٩).

وبهذا قال جمع من أهل التفسير كالواحدي، والسمعاني، وابن عطية، والرازي، وغيرهم.[1]

وهو الأقرب في تفسير: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ في الآية الكريمة، والعلم عند الله تعالى.

قال ابن عطية: (النفاق أخص من مرض القلب، لأن مرض القلب مطلق على الكافر وعلى من اعترضته شبهة وعلى من بينهما).[2]

ويقول صاحب المنار: (المنافقون هم الذين يظهرون الإسلام ويسرون الكفر، والذين في قلوبهم مرض هم ضعاف الإيمان، تثور بهم الشكوك والشبهات تارة فتزلزل اعتقادهم، وتسكن تارة فيكونون كسائر المسلمين).[3]

٤. يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم

(١) انظر: تفسير الواحدي: (١/ ٤٤٤)، تفسير السمعاني: (٢/ ٢٧١)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥٣٩)، تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١٧٦)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٥٠٥ - ٥٠٦)، تفسير أبي السعود: (٤/ ٢٦)، روح المعاني: (١٠/ ١٦)، تفسير المنار: (١٠/ ٣٠)، تفسير السعدي: (٢/ ٢٠٨)، تفسير ابن عاشور: (١٠/ ٣٨).
ويرى البقاعي في نظم الدرر: (٣/ ٢٢٨) أن ذلك يشمل من لم يرسخ الإيمان في قلبه، كما يشمل اليهود المصرحين بالكفر.

(٢) تفسير ابن عطية: (٢/ ٥٣٩)، وانظر: النفاق وآثاره ومفاهيمه: (ص: ١٢ - ١٣).

(٣) تفسير المنار: (١٠/ ٣٠).



مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

نزلت الآيتان الكريمتان في شأن المنافقين كما قال جمهور المفسرين[1]، والضمير في قوله سبحانه: ﴿فَمِنْهُم﴾ عائد إليهم.

وقد تضمنت الآية الأولى قول المنافقين بعضهم لبعض: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾، والإشارة إلى السورة من القرآن الكريم، وغرضهم الإنكار لأن تكون السورة سببًا في زيادة الإيمان، بالإضافة إلى الاستخفاف بالسورة، والاستهزاء بالقرآن، والتهكّم بالمؤمنين.[2]

كما تضمنت الآية الثانية السبب في عدم استفادتهم أو تأثرهم بما يتنزل من سور القرآن، وذلك هو المرض في قلوبهم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾. والذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والمراد بالمرض هنا النفاق.[3]

(١) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٢)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٩٨)، زاد المسير: (٣/ ٣٥٢)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٨٩)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٠٢).

(٢) انظر: تفسير السمعاني: (٢/ ٣٦١)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٣٠٩ - ٣١٠)، التسهيل: (٢/ ٨٨)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ١١٥)، تفسير النسفي: (١/ ٦٩٠)، تفسير ابن عاشور: (١١/ ٦٥).

(٣) انظر: معاني القرآن للفراء: (١/ ٤٥٥)، تفسير الطبري: (١١/ ٧٣)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧٦)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٩٩)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٨٧)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٤٠)، روح المعاني: (١١/ ٥١).

ولهذه العلة في قلوبهم كان نزول السورة من القرآن سببًا في زيادة كفرهم ونفاقهم بدلًا من نماء الهدى في قلوبهم.[1]

ذلك أنهم كلما نزلت سورة أنكروها وارتابوا وكفروا بها، فيستمر الكفر والنفاق في قلوبهم ازديادًا، بانضمام اللاحق منه إلى السابق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾.

قال الزجاج: (أي زادتهم كفرا إلى كفرهم، لأنهم كلما كفروا بسورة ازداد كفرهم).[2]

٥. يقول الله تعالى:

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣].

يرى بعض المفسرين أن المراد بالذين في قلوبهم مرض في الآية الكريمة عامة الكفار، سواء كانوا مشركين معلنين للكفر، أو منافقين مسّرين به.[3]

لكن عامة المفسرين على أن المراد بهم هنا أهل النفاق، الذين يتلقفون

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٠٣).

(٢) معاني القرآن: (٢/ ٤٧٦)، وانظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٣)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ١٩٢)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٤٦٨)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٨٧)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٤٠)، روح المعاني: ١١/ ٥١).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٩)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٨)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨٢)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٣٠).



الشبهات وينشرونها.[1]

والمراد بإلقاء الشيطان ما يقذفه من الوساوس والأقاويل، وما يثيره من الشبه والأباطيل، يعارض بها الحق في شأن القرآن الكريم، بغرض صدّ الناس عن قبوله واستيقانه والإيمان به.[2]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٩١)، تفسير الواحدي: (٢/ ٧٣٨)، تفسير الزمخشري: (٣/ ١٦٧)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٩٤)، تفسير الفخر الرازي: (٢٣/ ٥٥)، زاد المسير: (٥/ ٣٠٣)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٩٣)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٩)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٣٠)، نظم الدرر: (٥/ ١٦٥)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١٤)، فتح القدير: (٣/ ٤٦٨)، روح المعاني: (١٧/ ١٧٤)، تفسير القاسمي: (١٢/ ٣٧).

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨١)، القواعد الحسان: (ص: ١٥٦)، أضواء البيان: (٥/ ٧٣٢)، وقد أورد بعض المفسرين عند هذه الآية وسابقتها رواية الغرانيق، والمشتملة على أن الرسول ﷺ سها في قراءته لسورة النجم، فأضاف بعد قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠]: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى. قالوا: وذلك هو المراد بإلقاء الشيطان في قراءته عليه الصلاة والسلام.

وكل ذلك يتعارض مع عصمته ﷺ، وقد ردّه جمع من أهل العلم، وبينوا بطلانه، ولذا قال ابن عطية في تفسيره: (٤/ ١٢٩): (بل يقتضي مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقى ولا يعينون هذا السبب ولا غيره).

ووجّه بعضهم تلك الرواية على فرض التسليم بصحتها بأن القائل لتلك العبارات هو الشيطان، نطق بها محاكيًا صوت رسول الله ﷺ، فظن بعض السامعين أنها من كلام رسول الله عليه الصلاة والسلام.

انظر: أحكام القرآن لابن العربي: (٣/ ١٢٩٩ - ١٣٠٣)، الشفا: (٢/ ٤٧٤ - ٤٧٥، ٤٧٧ - ٤٨١)، زاد المسير: (٥/ ٣٠٢)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٤ - ٥٧)، تفسير الفخر الرازي: (٢٣/ ٥٠ - ٥١)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨١ - ٣٨٢)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٨)، تفسير الثعالبي: (٣/ ٨٤)، فتح القدير: (٣/ ٤٦٨)، تفسير القاسمي: (١٢/ ٣٨ - ٥٧)، أضواء البيان: (٥/ ٧٢٨ - ٧٣٢)، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: (ص: ٢٠٨ - ٢١٢).

ومن حكمة الله جل وعلا أن جعل هذا الإلقاء الشيطاني فتنة لمن في قلبه مرض.

والفتنة هنا بمعنى الضلالة.[1]

والمقصود أن هذه الوساوس والأباطيل الشيطانية تورث شبهة لدى هؤلاء، وذلك بسبب ضعف قلوبهم بالمرض الذي أعلّها وأسقمها، فتصبح موردًا ملائمًا، ومحلًا قابلًا لإلقاء الشيطان وكيده، ومن ثم يكون هذا الإلقاء سببًا في ضلالهم واستمرارهم في سبل الكفر والنفاق والتكذيب.[2]

قال صاحب الأضواء: (ومعنى كونه فتنة لهم أنه سبب لتماديهم في الضلال والكفر).[3]

٦. يقول الله تعالى:

﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٥٠].

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٧٣٨)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٨)، فتح القدير: (٣/ ٤٦٨).
وقد فسرها جمع من المفسرين بالاختبار والابتلاء. انظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٩١)، تفسير الزمخشري: (٣/ ١٦٧)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٤٢٧)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٩)، زاد المسير: (٥/ ٣٠٣)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨٢)، نظم الدرر: (٥/ ١٦٥)، والقولان غير متعارضين، والعلم عند الله تعالى، إذ الضلالة نتيجة للابتلاء في حق الذين في قلوبهم مرض.
قال ابن الأثير: (وقد كثر استعمالها ـ أي الفتنة ـ فيما أخرجه الاختبار للمكروه) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤١١)، وانظر: أضواء البيان: (٥/ ٧٣٤).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٩٥)، القواعد الحسان: (ص: ٩٥).
(٣) أضواء البيان: (٥/ ٧٣٣).



سياق الآية الكريمة في المنافقين[1]، يكشف نوعا من خبثهم، فهم يعلنون الإيمان والطاعة لله تعالى ورسوله ﷺ، وهم في حقيقة الأمر معرضون عن ذلك، ومن مظاهر هذا الإعراض رفضهم الدعوة للتحاكم إلى رسول الله ﷺ في حال كان الحق عليهم، بينما هم يسرعون إليه عليه الصلاة والسلام، طائعين خاضعين، منقادين لحكمه، في حال كان الحق ثابتًا لهم على غيرهم.

وقد اشتملت هذه الآية على بيان العلة المانعة من قبولهم الحق، والتحاكم إلى الشرع، وهي المرض الملازم لقلوبهم، المتأصل فيها ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾.

والمراد بالمرض النفاق[2]، وصفتهم به الآية، وأثبتته لهم بصورة الاستفهام على وجه الذم والتوبيخ.[3]

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ١٥٦)، تفسير الواحدي: (٢/ ٧٦٧)، التسهيل: (٣/ ٧٠)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٩٨).
يقول الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ [النور: ٤٧ - ٤٩].
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٦٢٣)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٥٢٠)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٢٥٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ٢١)، تفسير النسفي: (٢/ ٥١٧)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٤٦٧)، فتح القدير: (٤/ ٤٦).
(٣) انظر: تفسير السمعاني: (٣/ ٥٤٢)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٩١)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٨٧).

قال ابن الجوزي: (هذا استفهام ذم وتوبيخ، والمعنى: إنهم كذلك، وإنما ذكره بلفظ الاستفهام ليكون أبلغ في ذمهم).[1]

٧. يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢].

تذكر الآية الكريمة قول المنافقين والذين في قلوبهم مرض، والمتضمن وصف وعد الله تعالى ورسوله ﷺ للمؤمنين بالنصر والغلبة وإعلاء الدين بأنه وعد باطل لا حقيقة له.[2]

وكان ذلك القول منهم يوم الأحزاب، حين حوصر المسلمون في المدينة من قبل جيوش المشركين، فعظم عليهم الكرب، وضاق الحال، واشتد الرعب والخوف، وتهيأت الفرصة للمنافقين للمزيد من التشكيك والتخذيل.[3]

وقد عطفت الآية الكريمة الذين في قلوبهم مرض على المنافقين، فبرز للمفسرين في هذا العطف قولان[4]:

(١) زاد المسير: (٥/ ٣٧٠)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٣٥٢)، تفسير القرطبي: (١٢/ ١٩٣)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٤٦٧).

(٢) انظر: تفسير البيضاوي: (٢/ ٢٤١)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢١٧).

(٣) انظر الروايات بهذا الشأن في تفسير الطبري: (٢١/ ١٣٣ - ١٣٤)، تفسير الصنعاني: (٣/ ١١٣ - ١١٤)، الدر المنثور: (٦/ ٥٧٧).

(٤) انظر: تفسير النسفي: (٣/ ٥٥).



**الأول**: أن العطف للصفات، فالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والمرض الشك والنفاق.[1]

**الثاني**: أن العطف لتغاير الذات، فالذين في قلوبهم مرض غير المنافقين، والمرض في قلوبهم ضعف في الإيمان، واضطراب في الاعتقاد، وتزعزع في اليقين، لا يبلغ حد النفاق المنافي للإيمان بالكلية.[2]

ولذا تأثر هؤلاء بشبهات المنافقين، واستجابوا لإرجافهم وتشكيكهم، فشاركوهم مقولتهم، ووافقوهم في عبارتهم.

وهذا القول هو الأقرب في بيان المراد بالذين في قلوبهم مرض في هذه الآية، والعلم عند الله تعالى.

٨. يقول الله تعالى:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

تتضمن الآية الكريمة نهي المؤمنات عن تليين القول، وترقيق الكلام، حين مخاطبة الرجال، وذلك حتى لا يطمع مريض القلب بظنه موافقة المرأة له.[3]

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٨٦٠)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٩٧).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٥١٦)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٥٤١)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢١٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٧٣)، نظم الدرر: (٦/ ٨٢)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٩٤)، روح المعاني: (٢١/ ١٥٨).

(٣) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٥٠)، تفسير البغوي: (٣/ ٥٢٧)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٤٥)، تفسير القرطبي: (١٤/ ١١٥).

**وفي المراد بمرض القلب هنا قولان[1]:**

**الأول**: النفاق.[2]

وهذا القول مروي عن قتادة، والسدي.[3]

**الثاني**: إرادة الفجور والفسق وشهوة الزنا.

وهذا القول مروي عن ابن عباس ﷺ، وعكرمة، وغيرهما[4]، وبه قال جمهور المفسرين[5]، وهو الأقرب في تفسير المرض هنا، وسياق الآية الكريمة يشهد له.

ولذا قال ابن عطية بعد أن رجح هذا القول: (وليس للنفاق مدخل في

---

(١) انظر: معاني القرآن للنحاس: (٥/ ٣٤٥)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢٣٠).

(٢) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٨٦٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٣)، تفسير الصنعاني: (٣/ ١١٦).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٣)، تفسير الصنعاني: (٣/ ١١٦)، الدر المنثور: (٦/ ٥٩٩).

(٥) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٥٠)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٥٦)، تفسير البغوي: (٣/ ٥٢٧)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٤٥)، زاد المسير: (٦/ ١٩٦)، تفسير الفخر الرازي: (٢٥/ ٢٠٨)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٢٤٥)، تفسير النسفي: (٣/ ٦٤)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٨٢)، تفسير أبي السعود: (٧/ ١٠٢)، روح المعاني: (٢٢/ ٥)، تفسير السعدي: (٤/ ١٥٠)، الآداب الشرعية: (٣/ ١١١).

قال ابن تيمية: (هو مرض الشهوة، فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه، فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٩٥)، وانظر: (٢٨/ ٤٤٨)، القواعد الحسان: (ص: ٩٥).



هذه الآية).[1]

وتابعه القرطبي في ذلك.[2]

ويمكن الجمع بين القولين باعتبار أن مريض القلب بالنفاق ليست لديه ضوابط يتقيد بها، أو حدود يلتزمها، في التعامل مع الشهوات المحرمة.

ولذا اتجه بعض المفسرين إلى تفسير الآية بما يعمّ القولين.

يقول ابن جرير في تفسير الآية: (فيطمع الذي في قلبه ضعف، فهو لضعف إيمانه في قلبه، إما شاك في الإسلام منافق، فهو لذلك من أمره يستخف بحدود الله، وإما متهاون بإتيان الفواحش).[3]

٩. يقول الله تعالى:

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

تتضمن الآية الكريمة تهديدا للمنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين بتسليط الرسول ﷺ عليهم[4] إن لم يتوقفوا عن أنواع الفساد الذي يفعلونه، ويقومون ببثه بين المؤمنين في دولة الإسلام بالمدينة.

---

(١) تفسير ابن عطية: (٤/ ٣٨٣).

(٢) تفسير القرطبي: (١٤/ ١١٥)، وانظر: التسهيل: (٣/ ١٣٧).

(٣) تفسير الطبري: (٢٢/ ٣)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٥٢٧)، زاد المسير: (٦/ ١٩٦)، فتح القدير: (٤/ ٢٧٧)، تفسير ابن عاشور: (٢٢/ ٩).

(٤) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٣٥٢)، معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٢٣٦).

**وللمفسرين في المراد بالمرض في هذه الآية أقوال:**

**الأول**: المراد بالمرض النفاق والشك في الدين.

وعلى هذا فالمنافقون هم الذين في قلوبهم مرض، عُبِّر عنهم باللفظين.

وهذا القول مروي عن محمد بن كعب القرظي[1]، وغيره.[2]

**الثاني**: المراد بالمرض ضعف الإيمان.

فالذين في قلوبهم مرض في هذه الآية هم ضعفاء الاعتقاد، الذين لم يثبت الإيمان ولم يتمكن في قلوبهم، ومن ثم فهم صنف آخر غير المنافقين.[3]

**الثالث**: المراد بالمرض إرادة الفجور وحب الزنا.

وهذا القول مروي عن عدد من التابعين كعكرمة، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم، على اختلاف في الألفاظ بينهم[4]، وبه قال جمهور المفسرين.[5]

---

(١) هو محمد بن كعب بن سليم، أبو حمزة القرظي المدني، من حلفاء الأوس، تابعي ثقة، صالح ورع، من أئمة التفسير، وأوعية العلم، توفي سنة سبع عشرة ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٢/ ١٣٢ - ١٣٤)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٦٤٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٤/ ١٥٨)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢٥١)، الدر المنثور: (٦/ ٦٦٢)، روح المعاني: (٢٢/ ٩٠).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٧٠)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٢٥٢)، التسهيل: (٣/ ١٤٤)، تفسير أبي السعود: (٧/ ١١٥)، روح المعاني: (٢٢/ ٩٠).

(٤) انظر: تفسير الصنعاني: (٣/ ١٢٣ - ١٢٤)، تفسير الطبري: (٢٢/ ٤٧)، تفسير ابن أبي حاتم: (١٠/ ٣١٥٦)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٥١٩)، الدر المنثور: (٦/ ٦٦٢ - ٦٦٣).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٤٧)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٦٩)، تفسير الواحدي: (٢/ ٨٧٤)، تفسير السمعاني: (٤/ ٣٠٧)، تفسير البغوي: (٣/ ٥٤٤)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٣٩٩)، زاد المسير: (٦/ ٢١٦)، تفسير النسفي: (٣/ ٨٠)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٥١٩).



وهذا القول هو الأقرب في تفسير المرض هنا[1]، وسياق الآية الكريمة يؤيده، إذ تشتمل الآية السابقة[2] على دعوة النساء إلى الحجاب، حماية لهن من أذية الفساق.

قال الزمخشري في تفسير الآية: (والمعنى لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون[3] عما يؤلفون من

---

(١) ومع اتفاق القائلين بهذا القول على أن المرض هنا مرض شهوة، فقد اختلفوا في عطف الذين في قلوبهم مرض على المنافقين في الآية.

فمنهم من قال بأن العطف لتغاير الصفات، والموصوف واحد، فالذين في قلوبهم مرض من أهل الزنا والفجور يشملهم لفظ المنافقين في الآية، ويدخلون في جملتهم، لكن الآية نصت عليهم إشعارا بخطرهم، وتنبيها على بعض أعمالهم الخبيثة انظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٤٧)، تفسير الفخر الرازي: (٢٥/ ٢٣١)، تفسير القرطبي: (١٤/ ١٥٧)، الدر المنثور: (٦/ ٦٦٢).

ومنهم من قال بأن العطف للتغاير بالذات، فالفسقة أهل الفواحش هم صنف آخر غير المنافقين. انظر: تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢٥٠)، روح المعاني: (٢٢/ ٩٠).

والقولان محتملان كما قال ابن عطية: (٤/ ٣٩٩)، غير أن الثاني أظهر، والعلم عند الله تعالى، ولا يمنع القول به من كون المنافقين أو بعضهم متصفًا بمرض القلوب المتعلق بالفاحشة والفجور.

(٢) هي قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

(٣) المراد بالإرجاف إشاعة الكذب والباطل، من قدوم العدو، أو هزيمة المسلمين، ونحو ذلك مما يسوء، والغرض إضعاف معنويات المؤمنين، وكسر قلوبهم، وإدخال الحزن والغم إلى نفوسهم. انظر: تفسير القرطبي: (١٤/ ١٥٨)، المفردات: (ص: ١٩٦).

أخبار السوء، لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوؤهم).[1]

ويمكن الجمع بين هذا القول وسابقه، وذلك باعتبار أن إرادة الفاحشة أثر يتبع نقص الإيمان وضعف الاعتقاد.[2]

١٠. يقول الله تعالى:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

والآية الكريمة في شأن المنافقين[3]، تبين أنهم كانوا إذا أنزلت سورة من القرآن، بينة المعنى، واضحة الدلالة[4]، مشتملة على فرض الجهاد والأمر به، يصيبهم من ذلك هلع ورعب يظهر في نظرات أعينهم ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

والذين في قلوبهم مرض هنا هم المنافقون، والمرض النفاق كما ذكر

(١) تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٧٠)، وانظر: تفسير النسفي: (٣/ ٨٠)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢٥٠ - ٢٥١).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: (٧/ ١١٥)، روح المعاني: (٢٢/ ٩٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥٤)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٠٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ٦٢)، التسهيل: (٤/ ٤٨ - ٤٩).

(٤) انظر: تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٠٣).



عامة المفسرين.[1]

والمعنى أنهم متصفون بالجبن وكراهية الجهاد، ولذلك يحدقون ويشخصون بأبصارهم كما يفعل من يتغشاه الموت.[2]

قال ابن الجوزي في تفسير الآية: (أي يشخصون نحوك بأبصارهم ينظرون نظرًا شديدًا كما ينظر الشاخص ببصره عند الموت، لأنهم يكرهون القتال، ويخافون إن قعدوا أن يتبين نفاقهم).[3]

١١. يقول الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩].

والمقصود في الآية الكريمة المنافقون، وما في قلوبهم من المرض هو النفاق.[4]

والأضغان جمع ضَغَن، وهو ـ كما قال الراغب ـ (الحقد الشديد).[5]

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥٤)، معاني القرآن للنحاس: (٦/ ٤٧٩)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٢٨٧)، تفسير السمعاني: (٥/ ١٨٠)، تفسير ابن عطية: (٥/ ١١٧)، زاد المسير: (٧/ ١٥٢)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٦)، تفسير النسفي: (٣/ ٣٦٩)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٩٨)، روح المعاني: (٢٦/ ٦٧)، أضواء البيان: (٧/ ٤٢٧).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ١٨٣)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٦١).

(٣) زاد المسير: (٧/ ١٥٢)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٥/ ١٢)، تفسير السمعاني: (٥/ ١٨٠).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٦٠ - ٦١)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٠٤)، تفسير البغوي: (٤/ ١٨٥)، زاد المسير: (٧/ ١٥٥)، تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ٦٩)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٦٦)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٨٠).

(٥) المفردات: (ص: ٣٠٠).

وذلك أثر للعلة والفساد في معتقد القلوب، تمثل في حقدهم على الإسلام، وإضمارهم الشر للمؤمنين.

فالآية تتضمن التوبيخ لهذه الفئة ، والتهديد بكشف أمرها ، وإظهار خبثها ومكرها، وإبراز كيدها وعداوتها.[1]

١٢. يقول الله تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر: ٣١].

تبين الآية الكريمة ـ ضمن ما اشتملت عليه ـ أن إخبار الآية السابقة[2] بعدد خزنة النار كان سبب فتنة للذين في قلوبهم مرض والكافرين ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾.

**وفي المراد بالذين في قلوبهم مرض في هذه الآية أقوال، أبرزها مايلي:**

**الأول**: أن الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والمرض النفاق، وعطف عليهم الكافرون، وهم المشركون المصرحون بالتكذيب.

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ١٢٠)، تفسير القرطبي: (٦/ ١٦٦)، تفسير أبي السعود: (٨/ ١٠٠ - ١٠١).

(٢) هي قول الله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٣٠].



وهذا القول مروي عن قتادة[1]، وبه قال جمع من المفسرين[2]، ونسبه ابن الجوزي وغيره إلى أكثرهم.[3]

وعارض بعضهم هذا القول بأن السورة مكية، ولم يظهر النفاق إلا في المدينة بعد الهجرة.[4]

وأجاب القائلون به بأن ذلك يدخل ضمن دائرة الإعجاز القرآني في الإخبار بما سيكون، وبذلك يزول الاعتراض.

يقول الرازي مؤيدًا لقول أكثر المفسرين، و مجيبًا على الاعتراض المذكور (والجواب: قول المفسرين حق، وذلك لأنه كان في معلوم الله تعالى أن النفاق سيحدث، فأخبر عما سيكون، وعلى هذا تصير هذه الآية معجزة، لأنه إخبار عن غيب سيقع، وقد وقع على وفق الخبر، فيكون معجزًا).[5]

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٩/ ١٦١)، الدر المنثور: (٨/ ٣٣٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٩/ ١٦١)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٤٩٤)، تفسير البغوي: (٤/ ٤١٧)، تفسير الفخر الرازي: (٣٠/ ٢٠٧)، تفسير القرطبي: (١٩/ ٥٣ - ٥٤)، تفسير النسفي: (٣/ ٦١٧)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٤٤)، نظم الدرر: (٨/ ٢٣٢).

(٣) انظر: زاد المسير: (٨/ ١٢٧)، تفسير الفخر الرازي: (٣٠/ ٢٠٧)، تفسير القرطبي: (١٩/ ٥٤)، الروض الريان: (٢/ ٥٣٥ - ٥٣٦).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٩٦)، زاد المسير: (٨/ ١٢٧)، تفسير الفخر الرازي: (٣٠/ ٢٠٧)، تفسير ابن عاشور: (٢٩/ ٣١٧).

(٥) تفسير الفخر الرازي: (٣٠/ ٢٠٧)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٥٤)، التسهيل: (٤/ ١٦٢)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٥٤٤)، تفسير النسفي: (٣/ ٦١٧)، تفسير أبي السعود: (٩/ ٦٠)، روح المعاني: (٢٩/ ١٦٠)، الروض الريان: (٢/ ٥٣٦).

وقال البقاعي: (نزول هذه السورة قبل وجود المنافقين علم من أعلام النبوة).[1]

وعلى هذا يكون المعنى ـ كما قال القرطبي ـ: (﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي في صدورهم شك ونفاق، من منافقي أهل المدينة، الذين ينجمون[2] في مستقبل الزمان بعد الهجرة).[3]

**الثاني**: أن المراد بالمرض هنا الاضطراب وضعف الإيمان[4]، وعلى ذلك فالذين في قلوبهم مرض هم فئة من المسلمين، اعتلّت قلوبهم تأثرًا بالشبهات التي يثيرها أهل الكفر، فشاركوهم مقالتهم.

**الثالث**: أن الذين في قلوبهم مرض هم الكافرون، والمراد بالمرض الشك والارتياب، وذلك باعتبار أن ذلك مما يتصف به كفار مكة إجمالًا.

وجوّز هذا القول بعض المفسرين.[5]

---

(١) نظم الدرر: (٨/ ٢٣٢).

(٢) أي يظهرون. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩٧٨).

(٣) تفسير القرطبي: (١٩/ ٥٣ - ٥٤)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٥٤)، تفسير النسفي: (٣/ ٦١٧). وقد أورد القرطبي قولا بأن المراد بالكافرين اليهود والنصارى، وهو توسيع لدائرة الإخبار بما سيكون في الآية. انظر: تفسير القرطبي: (١٩/ ٥٤).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٩٦)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٣٧٦)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ٩٥).

(٥) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٥٤)، تفسير الفخر الرازي: (٣٠/ ٢٠٧)، تفسير القرطبي: (١٩/ ٥٤)، فتح القدير: (٥/ ٣٤١)، الروض الريان: (٢/ ٥٣٦).



وبناء على هذا القول يكون عطف الكافرين للتفسير والبيان، أو يكون المراد بالكافرين الجازمين بالتكذيب، في مقابل المرتابين المترددّين.[1]

أمّا ما تضمنته الآية من قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ فالإشارة فيه إلى قول الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ إخبارا عن عدد خزنة النار من الملائكة عليهم السلام.

والمعنى: ما الذي أراده الله تعالى بهذا الحديث.[2]

ومقصدهم من هذا الاستفهام الإنكار والنفي، والاستبعاد لأن يكون ذلك الخبر من عند الله جل وعلا أصلًا.[3]

وبذلك كان هذا المثل ابتلاءً واختبارًا من الله جل شأنه للعباد، يزداد به أهل الإيمان إيمانًا وثباتًا ويقينًا، ويواجهه من خبثت قلوبهم بالإنكار والاستبعاد، ويستغلونه للمكر والاتهام وإثارة الشبهات، فيفتتنون بذلك، ويزدادون به كفرًا وضلالا.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: (٢/ ٥٤٤)، تفسير ابن عاشور: (٢٩/ ٣١٧).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٢١٧)، زاد المسير: (٨/ ١٢٧)، تفسير القرطبي: (١٩/ ٥٤).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٩٦)، التسهيل: (٤/ ١٦٢)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٣٧٦-٣٧٧)، تفسير النسفي: (٣/ ٦١٧)، روح المعاني: (٢٩/ ١٦٠).

# الخاتمة

## (وتتضمن ملخصًا لأهم نتائج البحث)

- العبودية غاية الحياة، كما تفيده الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، واللام فيها للإرادة الدينية الشرعية، فالعبودية هي مراد الله تعالى من عباده، ومحل محبته ورضاه سبحانه.
- يختلف الرسل عليهم السلام في الشرائع، لكنهم يتفقون في دعوة الناس إلى تحقيق هذه الغاية الشريفة: إفراد الله تعالى بالعبادة.
- شرف الإنسان في تحقيق معاني العبودية لله جل وعلا، وكلما ارتقى العبد في هذا المقام زاد شرفه، وعلت مرتبته، ولذا وصف الله تعالى به أكمل خلقه رسولنا ﷺ في أشرف أحواله.
- الكائنات كلها تسبح الله تعالى وتعظمه، بما في ذلك الحيوانات والجمادات، بإدراك يهيئها الله سبحانه لها، وبكيفية يعلمها الله جل وعلا.
- الناس كلهم عبيد لله اضطرارًا، مشيئته فيهم نافذة، لا يملكون من الأمر شيئًا دون إرادته جل شأنه، وهم يلجأون إليه عند الشدائد والنكبات، لكن المؤمنين يختارون عبوديته سبحانه، فينالون ثوابها، ويحوزون شرفها.
- العبد مأمور بأن يسخر أعضاءه كلها لعبودية ربه تبارك وتعالى: قلبه، ولسانه، وسائر جوارحه.



- لا يلج العمل دائرة العبودية، ولا ينال الاعتبار الشرعي، إلا إذا توفرت فيه صحة الاعتقاد، وصحة النية، وصحة الوسيلة.
- القلب لطيفة روحية لها بالعضو الجسدي تعلّق وارتباط، فمعنى القلب شرعًا يشمل ما يلتئم الوجهين الحسّي والمعنوي.
- للقلب خطورته وأهميته البالغة، إذ بانتفاء عبوديته لا يبقى لعمل الجوارح أثر وثمرة، بينما يمكن للقلب أن يستقلّ بعبادة مجرّدة عن عمل الجوارح.
- للقلب قول أو تصديق، وعمل أو حركة، ولكل منهما ركائز وأركان. فأركان القول: الاعتقاد والتصديق الجازم بالله تبارك وتعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وأركان العمل: المحبة، والخوف، والرجاء.

- بين أركان عبودية القلب العملية ترابط وتلازم وثيق، والغلو في ركن على حساب بقية الأركان يفضي إلى خلل مؤثر في دائرة العبودية.
- يتفاوت الناس في عبودية القلب، سواء كان ذلك في دائرة تصديق القلب واعتقاده، أو في دائرة حركته وفعله.
- عبودية القلب تستلزم وتقتضي عبودية الجوارح، فلا يمكن أن يكون الملزوم قويًا ثابتًا، دون أن يظهر ذلك في لازمه ومقتضاه.

- يؤثر في نماء حياة القلب مجموعة عوامل، منها: العلم، والاستقامة، والذكر، والتوبة، والارتباط بالقرآن، واللجوء إلى الله تعالى بالدعاء، بالإضافة إلى تخلية النفس من وساوس الشيطان بإغلاق منافذه، والاستعاذة بالله من كيده.
- لعبودية القلب ثمرات ينالها المؤمن آجلة في الآخرة، وعاجلة في الدنيا:

ففي الآجل مغفرة وثواب، ونجاة من النار، وفوز بالجنة.

وفي العاجل إقبال على البر، وتباعد عن الإثم، وثناء ومحبة، وطمأنينة وسرور، ورعاية وتأييد، واهتداء وتسديد، وحفظ من تسلّط الشياطين.

- تضمن القرآن الكريم أوصافًا للقلوب في حال صحتها وموتها.

فمن أوصاف الصحة: السلامة، والوجل، والإخبات، واللين، والإنابة، والاطمئنان.

ومن أوصاف الموت: القسوة، والتكبر، والإنكار، والارتياب، والاشمئزاز، واللهو، والزيغ.

فيعاقبها الله جل وعلا بمثل الختم، والطبع، والإكنان.

- وصف القلب بالمرض في القرآن الكريم غلب على أهل النفاق، لكنه أطلق أيضًا على من ضعف إيمانه، فاستولت عليه شبهة، أو انحرفت به شهوة.

وصلى الله وسلم على نبينا وسيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.



# المراجع


* الإبداع في مضار الابتداع

علي محفوظ، ط ٧، دار الاعتصام، القاهرة.

* إبراز المعاني من حرز الأماني

عبد الرحمن بن إسماعيل، أبو شامة المقدسي، تحقيق إبراهيم عوض، مكتبة مصطفى، القاهرة.

* الإتقان في علوم القرآن

عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل، ١٤٠٧هـ، المكتبة العصرية، بيروت.

* أحكام القرآن

أبو بكر محمد بن عبد الله، ابن العربي، تحقيق علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت.

* إحياء علوم الدين

محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي، ضبط محمد بلطة، ١٤٢٣هـ، المكتبة العصرية، بيروت.

* اختلاف المفسرين

د. سعود الفنيسان، ط١، دار إشبيليا، الرياض.

* الأخلاق الإسلامية وأسسها

عبد الرحمن حبنكة الميداني، ط١، دارالقلم، دمشق.

* الآداب الشرعية

محمد بن مفلح، أبو عبد الله المقدسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* أدب الدنيا والدين

علي بن محمد، أبو الحسن الماوردي، تعليق محمد راجح، ط١، دار اقرأ، بيروت.

* الأدب المفرد

محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله البخاري، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، ط١، دار الصديق، الجبيل.

* الأربعين في أصول الدين

أبوحامد الغزالي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل

محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، المكتبة الإسلامية، بيروت.

* أسباب النزول

علي بن أحمد، أبو الحسن الواحدي، تحقيق أيمن شعبان، دار الحديث، القاهرة.

* الاستذكار

يوسف بن عبد الله، أبو عمر بن عبد البر، تحقيق سالم عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.



* الاستقامة

أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط١، دارابن حزم، بيروت.

* الاستيعاب في معرفة الأصحاب

أبو عمر بن عبد البر، تحقيق علي البجاوي، ١٤١٢هـ، دار الجيل، بيروت.

*الإصابة في تمييز الصحابة

أحمد بن علي، ابن حجرالعسقلاني، تحقيق عادل عبد الموجود، ط١، دارالكتب، بيروت.

* أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن

محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.

* الاعتصام

إبراهيم بن موسى، أبو إسحاق الشاطبي، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

* الاعتقاد على مذهب السلف

أحمد بن الحسين، أبو بكر البيهقي، تصحيح أحمد مرسي، حديث أكاديمي، فيصل اباد.

* اعتقاد أهل السنة

هبة الله بن الحسن، أبو القاسم اللالكائي، تحقيق أحمد حمدان، ١٤٠٢هـ، دار طيبة، الرياض.

* الأعلام

خير الدين الزركلي، دارالعلم، بيروت.

* أعلام السنة المنشورة

حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق شميم السلفي، مكتبة الأقصى، الدوحة.

* إعلام الموقعين عن رب العالمين

محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عبد الحميد، ط٢، دار الفكر، بيروت.

* إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان

ابن القيم، تحقيق علي الحلبي، ط١، دارابن الجوزي، الدمام.

* اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم

ابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي، ط٢، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة.

* اقتضاء العلم العمل

أحمد بن علي، الخطيب البغدادي، تحقيق الألباني، ط٤، المكتب الإسلامي، بيروت.

* إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات

أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري، ١٣٨٩هـ، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة.



* الإنسان في ضوء القرآن الكريم

د. عبد الرحمن المطرودي، ١٤١٠هـ.

* آيات الله في النفس والروح والجسد

ماهر أحمد الصوفي، دار الرضوان.

* الإيمان

ابن تيمية، ط٣، المكتبة الإسلامية، دمشق.

* الإيمان

محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، تحقيق د.علي الفقيهي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* بدائع الفوائد

ابن القيم، تخريج أحمد شعبان، ط١، مكتبة الصفا، القاهرة.

* البداية والنهاية

إسماعيل بن كثير، أبو الفداء الدمشقي، تحقيق علي شيري، ط١، دار إحياء التراث، بيروت.

* البرهان في علوم القرآن

محمد بن عبد الله، بدرالدين الزركشي، تحقيق محمد أبوالفضل، ط٢، دارالمعرفة، بيروت.

* بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز

محمد بن يعقوب، مجد الدين الفيروزابادي، تحقيق محمد النجار، المكتبة العلمية، بيروت.

* بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني
أحمد بن عبد الرحمن البنا، دار إحياء التراث، بيروت.
* بلوغ المرام من أدلة الأحكام
ابن حجر، تحقيق رضوان محمد، دار إحياء التراث، بيروت.
* تاريخ دمشق
علي بن الحسن بن هبة الله، تحقيق عمر العمري، ١٩٩٥م، دارالفكر، بيروت.
* تاريخ الفرق الإسلامية
علي مصطفى الغرابي، ط٢، مكتبة صبيح، القاهرة.
* تأويل مختلف الحديث
عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق محمد النجار، ١٣٩٣هـ، دار الجيل، بيروت.
* التبيان في أقسام القرآن
ابن القيم، تصحيح طه شاهين، ١٤٠٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
* تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي
محمد عبد الرحمن المباركفوري، تخريج عصام الصبابطي، ط١، دار الحديث، القاهرة.



* تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين
محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت.
* التحفة العراقية في الأعمال القلبية
ابن تيمية، تحقيق د. يحيى الهنيدي، ط١، مكتبة الرشد، الرياض.
* التحفة القليبية في حل الألفاظ القرآنية (معجم الألفاظ القرآنية ومعانيها).
موسى بن محمد القليبي المصري، تحقيق د. محمد داود، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة.
* التخويف من النار
عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي، ابن رجب الحنبلي، ط١، دار البيان، دمشق.
* تدريب الراوي شرح تقريب النواوي
جلال الدين السيوطي، تحقيق د. عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، بيروت.
* التدمرية
ابن تيمية، تحقيق محمد السعوي، ط١، شركة العبيكان، الرياض.
* التذكار في أفضل الأذكار
محمد بن أحمد، أبوعبدالله القرطبي، المكتبة العلمية، بيروت.

* ترتيب القاموس المحيط للفيروزابادي

الطاهر بن أحمد الزاوي، ط٣، دار الفكر، بيروت.

* ترجمان شعب الإيمان

عمر بن رسلان، سراج الدين البلقيني، تحقيق د. سعود الدعجان، ط١، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

* الترغيب والترهيب

عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تعليق مصطفى عمارة، ط٣، مكتبة مصطفى البابي، القاهرة.

* تسلية أهل المصائب

محمد بن محمد المنبجي الحنبلي، تحقيق بشيرعيون، ط٤، دار البيان، دمشق.

* التسهيل لعلوم التنزيل

محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت.

* التعاريف

محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق د. محمد رضوان، ط١، دار الفكر، بيروت.

* التعريفات

علي بن محمد الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت.



* تعظيم قدر الصلاة

محمد بن نصر المروزي، تحقيق د.عبد الرحمن الفريوائي، ط١، مكتبة الدار، المدينة المنورة.

* تفسير البحر المحيط

محمد بن يوسف، أبو حيان الأندلسي، ط٢، دار الفكر، بيروت.

* تفسير البغوي: معالم التنزيل

الحسين بن مسعود، أبو محمد البغوي، تحقيق خالد العك، ط٢، دار المعرفة، بيروت.

* تفسير البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل

عبد الله بن عمر، ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* تفسير الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن

عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

* تفسير ابن أبي حاتم

عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، تحقيق أسعد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.

* تفسير الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

محمود بن عمر، جارالله الزمخشري، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دارإحياء التراث، بيروت.

* تفسير السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان
عبد الرحمن بن ناصر السعدي، طبعة ١٤٠٨هـ، دار المدني، جدة.
* تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم
محمد بن محمد، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث، بيروت.
* تفسير السمرقندي: بحر العلوم
نصر بن محمد، أبو الليث السمرقندي، تحقيق د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.
* تفسير السمعاني: تفسير القرآن العزيز
منصور بن محمد، أبو المظفر السمعاني، تحقيق ياسر بن إبراهيم ، دار الوطن، الرياض.
* تفسير الصنعاني
عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق د. مصطفى مسلم، ط١، مكتبة الرشد، الرياض.
* تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن
محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري، ط٢، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة.
* تفسير ابن عاشور: التحرير والتنوير
محمد الطاهر، ابن عاشور، ١٩٨٤م، الدار التونسية، تونس.



* تفسير ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز
عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام محمد، ط١، دارالكتب، بيروت.
* تفسير غريب القرآن
ابن قتيبة، تحقيق أحمد صقر، ١٣٩٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
* تفسير الفخر الرازي: التفسير الكبير، مفاتيح الغيب
محمد بن عمر، فخرالدين الرازي، المطبعة البهية المصرية، القاهرة.
* تفسير القاسمي: محاسن التأويل
محمد جمال الدين القاسمي، اعتنى به محمد فؤاد عبد الباقي، ط٢، دار الفكر، بيروت.
* تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن
أبو عبد الله القرطبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
* التفسير القيم لابن القيم
جمع محمد الندوي، تحقيق محمد الفقي، دارالعلوم الحديثة، بيروت.
* تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم
أبو الفداء ابن كثير، ١٤٠١هـ، دار المعرفة، بيروت.
* تفسير المعوذتين
ابن القيم، ط٦، المطبعة السلفية، القاهرة.

* تفسير المنار: تفسير القرآن الحكيم
محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت.
* تفسير النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل
عبد الله بن أحمد، أبو البركات النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت.
* تفسير الواحدي: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز
علي بن أحمد، أبو الحسن الواحدي، تحقيق صفوان داودي، ط١، دار القلم، دمشق.
* التفسير والمفسرون
د. محمد حسين الذهبي، ط٢، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
* تقريب التهذيب
ابن حجر، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة، بيروت.
* تلبيس إبليس
عبد الرحمن بن علي، أبو الفرج البغدادي، ابن الجوزي، تحقيق أيمن شعبان، ١٤٢٤هـ، دار الحديث، القاهرة.
* التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد
أبو عمر بن عبد البر، تحقيق مصطفى العلوي، ١٣٨٧هـ، وزارة الأوقاف، المغرب.
* تنبيه الغافلين
أبو الليث السمرقندي، تحقيق عبد العزيز الوكيل، ط١، دار الشروق، بيروت.



* تهذيب الآثار
أبو جعفر الطبري، تحقيق د. ناصر الرشيد، ١٤٠٤هـ، مطابع الصفا، مكة المكرمة.
* تهذيب الأسماء واللغات
يحيى بن شرف، أبو زكريا النووي، تحقيق علي معوض، ط١، دار النفائس، بيروت.
* تهذيب التهذيب
ابن حجر، ط١، دار الفكر، بيروت.
* تهذيب سنن أبي داود
ابن القيم، تحقيق أحمد شاكر، دار المعرفة، بيروت.
* التهذيب الموضوعي لحلية الأولياء
محمد عبد الله الهبدان، ط١، دار طيبة، الرياض.
* التواضع والخمول
عبد الله بن محمد بن أبي بكر القرشي، ابن أبي الدنيا، تحقيق محمد عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
* التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ
محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق د.عبد العزيز الشهوان، ط٥، مكتبة الرشد، الرياض.
* تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد
سليمان بن عبد الله آل الشيخ، ط٦، المكتب الإسلامي، بيروت.

* الثقات

محمد بن حبان، أبو حاتم البستي، تحقيق شرف الدين أحمد، ط١، دار الفكر، بيروت.

* الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير

جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت.

* جامع العلوم والحكم

ابن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط٧، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* حاشية السندي على سنن النسائي

نورالدين بن عبد الهادي، أبو الحسن السندي، ط٢، دارسحنون، تونس.

* حجة القراءات

عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، أبو زرعة، تحقيق سعيد الأفغاني، ط٥، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* حدائق الحقائق

محمد بن أبي بكرالرازي ، تعليق إبراهيم شمس الدين ، ط١ ، دارالكتب العلمية ، بيروت .

* الحديقة الأنيقة في شرح العروة الوثيقة

محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي، ط٢، دار الحاوي، اليمن.



* حلية الأولياء

أحمد بن عبد الله، أبو نعيم الأصبهاني، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت.

* خلق الإنسان

سعيد بن هبة الله بن الحسين، تعليق د. يحيى مراد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)

ابن القيم، تحقيق عامر ياسين، ط١، دار ابن خزيمة، الرياض.

* الدراية في تخريج أحاديث الهداية

ابن حجر، تحقيق عبد الله المدني، دار المعرفة، بيروت.

* الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة

ابن حجر، تحقيق محمد جاد الحق، ط٢، مطبعة المدني، القاهرة.

* الدر المنثور في التفسير بالمأثور

جلال الدين السيوطي، ١٩٩٣م، دار الفكر، بيروت.

* دستور الأخلاق في القرآن

د. محمد عبد الله دراز، تحقيق د.عبد الصبور شاهين، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب

محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.

* دلائل النبوة

أبو بكر البيهقي، تحقيق د.عبد المعطي قلعجي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* الديباج على مسلم

جلال الدين السيوطي، تحقيق أبوإسحاق الأثري، ١٤١٦هـ دار ابن عفان، الخبر.

* ذم الهوى

أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق عصام الحرستاني، ط١، دار الجيل، بيروت.

* الرسالة القشيرية

عبد الكريم بن هوازن، أبو القاسم القشيري، تحقيق هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

* روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن

محمد علي الصابوني، ط٣، مكتبة الغزالي، دمشق.

* الروح

ابن القيم، تحقيق محمد العطار، ط١، دار الفكر، بيروت.

* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

السيد محمود الألوسي، شهاب الدين البغدادي، ١٤٠٣ هـ دار الفكر، بيروت.



* الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية

عبد الرحمن بن عبد الله، أبو القاسم السهيلي، تعليق طه عبد الرءوف، دار الفكر، بيروت.

* الروض الريان في أسئلة القرآن

الحسين بن سليمان بن ريان، تحقيق عبد الحليم السلفي، ط١، مكتبة العلوم، المدينة المنورة.

* روضة المحبين ونزهة المشتاقين

ابن القيم، تخريج عبد السلام علوش، ط١، مكتبة الرشد، الرياض.

* رياضة النفس

محمد بن علي، الشهير بالحكيم الترمذي، تعليق إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* زاد المسير في علم التفسير

أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق د.محمد زغلول، ط١، دار الفكر، بيروت.

* الزهد

أحمد بن حنبل الشيباني، تخريج محمد بن عيادي، ط١، مكتبة الصفا، القاهرة.

* الزهد والرقائق

عبد الله بن المبارك المروزي، ط١، دار ابن حزم، بيروت.

* سبل السلام

محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق محمد الخولي، ط٤، دار إحياء التراث، بيروت.

* سراج القارئ المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهي (شرح منظومة حرز الأماني للشاطبي)

علي بن عثمان، أبو القاسم العذري البغدادي، ط٣، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة.

* سلسة الأحاديث الصحيحة

الألباني، إعداد مشهور آل سلمان، ط١، مكتبة المعارف، الرياض.

* السنة

عمر بن أبي عاصم، أبو بكر الشيباني، تحقيق الألباني، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت.

* سنن الترمذي

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق أحمد شاكر، ط٢، دار سحنون، تونس.

* سنن الدارمي

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، اعتنى به د. بدرالدين جتين، دار سحنون، تونس.



* سنن أبي داود

سليمان بن الأشعث السجستاني، اعتنى به د. بدرالدين جتين، ط٢، دارسحنون، تونس.

* السنن الكبرى

أبوبكر البيهقي، تحقيق محمد عطا، ١٤١٤هـ، دار الباز، مكة المكرمة.

* سنن ابن ماجة

محمد بن يزيد القزويني، أبو عبد الله ابن ماجة، تحقيق محمد عبد الباقي، دار الكتب، بيروت.

* سنن النسائي

أحمد بن شعيب الخراساني، اعتنى به بدرالدين جتين، ط٢، دارسحنون، تونس.

* سير أعلام النبلاء

محمد بن أحمد، شمس الدين الذهبي، ترتيب حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، عمان.

* السيرة النبوية

عبد الله بن هشام، أبومحمد الحميري، تحقيق مصطفى السقا، ط٢، دار الخير، بيروت.

* السيرة النبوية الصحيحة

د.أكرم العمري، ط٤، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

* السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية

د. مهدي رزق الله، ط١، مركز الملك فيصل للبحوث، الرياض.

* شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال

العز بن عبد السلام السلمي، اعتنى به حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، عمان.

* شذرات الذهب في أخبار من ذهب

عبد الحي بن العماد، أبو الفلاح الحنبلي، مكتبة القدسي، القاهرة.

* شرح الأربعين النووية

محمد بن علي، ابن دقيق العيد، مؤسسة دار العلوم، بيروت.

*شرح الأربعين النووية

النووي، دار المجتمع، جدة.

* شرح حديث(إنما الأعمال بالنيات)

ابن تيمية، تحقيق عبد الله بن حجاج، ١٤٠١هـ مكتبة السلام، القاهرة.

* شرح الزرقاني على الموطأ

محمد بن عبد الباقي الزرقاني، ط١، دارالكتب العلمية، بيروت.

* شرح سنن ابن ماجة

جلال الدين السيوطي، تحقيق عبد الفتاح أبوغدة، ط٢، مكتبة المطبوعات، حلب.



* شرح السيوطي لسنن النسائي

جلال الدين السيوطي، ط٢، دار سحنون، تونس.

* شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور

جلال الدين السيوطي، تعليق محمد الحمصي، ط٣، مؤسسة الإيمان، بيروت.

* شرح العقيدة الطحاوية

علي بن علي، ابن أبي العز الحنفي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط١، دار البيان، دمشق.

* شرح الكوكب المنير

محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي، ابن النجار، تحقيق د. محمد الزحيلي، ١٤٠٠هـ دار الفكر، دمشق.

* شرح لمعة الاعتقاد

محمد بن عثيمين، تحقيق أشرف عبد المقصود، ط٢، مكتبة الإمام البخاري، الإسماعيلية.

* شرح النووي على صحيح مسلم

النووي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* شعب الإيمان

أبو بكر البيهقي، تحقيق محمد بسيوني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* الشفا بتعريف حقوق المصطفى

القاضي عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق عبد السلام البكاري ط١، دارالفكر، بيروت.

* شفاء العليل

ابن القيم، تحقيق د.السيد محمد سيد، ١٤٢٥هـ، دار الحديث، القاهرة.

* الصحاح

إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عطار، ط٤، دار العلم، بيروت.

* صحيح البخاري

أبوعبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، اعتنى به د.مصطفى البغا، ط٣، دار ابن كثير، دمشق.

* صحيح ابن حبان

محمد بن حبان، أبو حاتم البستي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* صحيح ابن خزيمة

أبو بكربن خزيمة، تحقيق محمد الأعظمي، ١٣٩٠هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

*صحيح القصص النبوي

عمر سليمان الأشقر، ط ١٤١٩هـ، دار النفائس، عمان.



* صحيح مسلم

مسلم بن الحجاج القشيري، اعتنى به محمد عبد الباقي، ط٢، دار سحنون، تونس.

* صفة الصفوة

أبوالفرج ابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري، ط٣، دار المعرفة، بيروت.

* صيانة صحيح مسلم

عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، أبوعمرو ابن الصلاح، تحقيق موفق عبد القادر، ط٢، دار الغرب، بيروت.

* الضوء اللامع لأهل القرن التاسع

محمد بن عبد الرحمن ، شمس الدين السخاوي، ١٣٥٣هـ، مكتبة القدسي، القاهرة.

* طب القلوب (ابن القيم)

جمع وتنسيق د.عجيل النشمي، ط٢، دار الدعوة، الكويت.

*طبقات الحفاظ

جلال الدين السيوطي، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت.

* طبقات الصوفية

محمد بن الحسين، أبوعبد الرحمن السلمي، تحقيق نورشربية، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة.

* الطبقات الكبرى

محمد بن سعد، أبوعبد الله البصري، دار صادر، بيروت.

* طبقات المفسرين

أحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق سليمان الخزي، ط١، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

* طبقات المفسرين

جلال الدين السيوطي، تحقيق علي محمد عمر، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة.

* طريق الهجرتين وباب السعادتين

ابن القيم، تحقيق سيد عمران، ١٤٢٦هـ، دار الحديث، القاهرة.

* طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب

ضياء الدين عبد العزيز بن أحمد الديريني، ط٢، دار القمر، القاهرة.

* العبادة في الإسلام

يوسف القرضاوي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* العبودية

ابن تيمية، تحقيق علي عبد الحميد، ط٤، دار المغني.

* عجائب القرآن

فخر الدين الرازي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.



* عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين

ابن القيم، تصحيح زكريا يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت.

* العقل

الحارث بن أسد، أبوعبدالله المحاسبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* العقيدة الإسلامية وأسسها

عبد الرحمن بن حسن الميداني، ط٥، دار القلم، دمشق.

* العقيدة في الله

د. عمرسليمان الأشقر، ط٥، مكتبة الفلاح، الكويت.

* علماء نجد خلال ستة قرون

عبدالله بن عبد الرحمن البسام، ط١، مكتبة النهضة، مكة المكرمة.

* عمدة القاري

محمود بن أحمد، بدرالدين العيني، دار إحياء التراث، بيروت.

* عمل اليوم والليلة

ابن السني، أحمد بن محمد الدينوري الشافعي، تحقيق كوثر البرني، دار القبلة، بيروت.

* عمل اليوم والليلة

النسائي، تحقيق د. فاروق حمادة، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* عون المعبود شرح سنن أبي داوود

محمد شمس الحق العظيم ابادي، تخريج عصام الصبابطي، ١٤٢٢هـ، دار الحديث، القاهرة.

* غريب الحديث

حمد بن محمد، أبو سليمان الخطابي، تحقيق عبد الكريم العزباوي، ١٤٠٢هـ، دار الفكر، دمشق.

* غريب الحديث

القاسم بن سلام، أبو عبيد الهروي، تحقيق د.محمد خان، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت.

* غريب الحديث

ابن قتيبة، تحقيق د.عبد الله الجبوري، ط٣، مطبعة العاني، بغداد.

* غريب القرآن

محمد بن عزيز، أبو بكر السجستاني، تحقيق محمد أديب، ١٤١٦هـ دار قتيبة.

* غريب القرآن وتفسيره

عبد الله بن يحيى، أبوعبد الرحمن اليزيدي، تحقيق محمد الحاج، ط١، عالم الكتب، بيروت.

* الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة

عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت.



* الغنية لطالبي طريق الحق

عبد القادر بن موسى الجيلاني الحسني، دار الألباب، دمشق.

* الفائق في غريب الحديث

الزمخشري، تحقيق علي البجاوي، ط٢، دار المعرفة، بيروت.

* فتاوى الإمام النووي (المسائل المنثورة)

النووي، ترتيب علاء الدين بن العطار، تحقيق محمد الحجار، ط٣، دار السلام.

* فتح الباري بشرح صحيح البخاري

ابن حجر، ضبط طه عبدالرءوف، ١٣٩٨هـ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

* الفتح الرباني

عبد القادر الجيلاني، تحقيق محمد البواب، ١٤٠٢هـ، دار الألباب، بيروت.

* الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني

أحمد بن عبد الرحمن البنا، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن

أبو يحيى زكريا الأنصاري، تحقيق محمد علي الصابوني، ط١، المكتبة العصرية، بيروت.

* فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير
محمد بن علي الشوكاني، دار الأرقم، بيروت.
* فتح المجيد شرح كتاب التوحيد
عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت.
* فتوح الغيب
عبد القادر الجيلاني، بشرح ابن تيمية، تخريج محمد بحري، ط٢، دار القادري، دمشق.
* الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت.
* الفروق في اللغة
الحسن بن عبد الله، أبو هلال العسكري، ط٤، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
* فضائل الصحابة
أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق وصي الله عباس، ط١، دار العلم، بيروت.
* الفوائد
ابن القيم، تحقيق د.ماهر عبد الرزاق، ط١، دار اليقين، المنصورة.
* الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة
الشوكاني، تحقيق عبد الرحمن المعلمي، ١٣٩٨هـ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة.



* فيض القدير شرح الجامع الصغير
المناوي، دار المعرفة، بيروت.
* القصيدة النونية
ابن القيم، بشرح د. محمد هراس، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
* القلب في القرآن وأثره في سلوك الإنسان
د. سيد محمد الشنقيطي، ١٤١٣هـ، دار عالم الكتب، الرياض.
* القواعد الحسان لتفسير القرآن
السعدي، ط٣، مكتبة الرشد، الرياض.
* قوت القلوب في معاملة المحبوب
محمد بن علي الحارثي، أبو طالب المكي، مراجعة سعيد نسيب، ط٢، دار صادر، بيروت.
* كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس
إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق أحمد القلاس، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت.
* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون
مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الحنفي، الحاج خليفة، ١٤١٣هـ دار الكتب، بيروت.

* الكليات

أيوب بن موسى، أبوالبقاء الكفوي، تحقيق د.عدنان درويش، ط٢، دار الكتاب، القاهرة.

* الكواشف الجلية عن معاني الواسطية

عبد العزيز محمد السلمان، ط١١، مطابع المجد، الرياض.

* اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة

بدر الدين الزركشي، تحقيق د. محمد الصباغ، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت.

* لباب النقول في أسباب النزول

جلال الدين السيوطي، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت.

* لسان العرب

أبو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور، تحقيق عبد الله علي، دار المعارف.

* لوامع الأنوار البهية

محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي، ط٢، مؤسسة الخافقين، دمشق.

* مباحث في علوم القرآن

مناع القطان، ط٣٥، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* مجمع الزوائد ومنبع الفوائد

علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق عبد الله الدرويش، ١٤١٢هـ، دار الفكر، بيروت.



* مجموع الفتاوى

ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، مكتبة المعارف، الرباط.

* المجيد في إعجاز القرآن المجيد

عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني، ابن خطيب زملكان، تحقيق د. شعبان صلاح، ط٢، دار غريب، القاهرة.

* مختصر سنن أبي داود

أبو محمد المنذري، تحقيق أحمد شاكر، دار المعرفة، بيروت.

* المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد

علي بن محمد البعلي، ابن اللحام، تحقيق د.محمد مظهر، ١٤٠٠هـ، دار الفكر، دمشق.

* مدارج السالكين في شرح منازل السائرين

ابن القيم، تحقيق الداني آل زهوي، ط١، المكتبة العصرية، بيروت.

* المسائل في أعمال القلوب والجوارح

الحارث المحاسبي، تعليق خليل عمران، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* المسائل في الزهد

الحارث المحاسبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* المستدرك على الصحيحين

محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عطا، ط١، دار الكتب، بيروت.

* المسند

أحمد بن حنبل، ط٢، دار سحنون، تونس.

* مسند الشهاب

محمد بن سلامة القضاعي، تحقيق حمدي السلفي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* مشارق الأنوار

القاضي عياض، المكتبة العتيقة.

* مشاهير علماء نجد

عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، ط١، دار اليمامة، الرياض.

* مشكاة المصابيح

محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق الألباني، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت.

* المشوف المعلم في ترتيب الإصلاح على حروف المعجم

عبدالله بن الحسين، أبوالبقاء العكبري، تحقيق ياسين السواس، ١٤٠٣هـ، دار الفكر، دمشق، مركز البحث العلمي (جامعة أم القرى).

* مصائب الإنسان من مكائد الشيطان

إبراهيم بن محمد بن مفلح، أبوإسحاق المقدسي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* مصباح الأنوار

د. محمد الصادق بوعلاق، ٢٠٠٤م، مكتبة الهلال، بيروت.



* مصباح الزجاجة

أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكناني، تحقيق محمد الكشناوي، ط٢، دار المعرفة، بيروت.

* مصنف عبد الرزاق

أبوبكر الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت.

* معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول

حافظ بن أحمد الحكمي، تخريج أشرف بن يوسف، ١٤٢٤هـ دار ابن الهيثم، القاهرة.

* معالم السنن

أبو سليمان الخطابي، تحقيق أحمد شاكر، دار المعرفة، بيروت.

* معاني القرآن

أحمد بن محمد المرادي، أبوجعفر النحاس، تحقيق محمد علي الصابوني، ط١، مركز إحياء التراث بجامعة أم القرى، مكة المكرمة.

* معاني القرآن

يحيى بن زياد، أبوزكريا الفراء، ط٢، عالم الكتب، بيروت.

* معاني القرآن وإعرابه

إبراهيم بن السري، أبوإسحاق الزجاج، تحقيق د.عبدالجليل شلبي، ط١، عالم الكتب، بيروت.

* المعجم الكبير

سليمان بن أحمد، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي السلفي، ط٢، مكتبة العلوم، الموصل.

* المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

أبو الفضل، زين الدين العراقي، ١٤٢٣هـ، المكتبة العصرية، بيروت.

* المغني في ضبط أسماء الرجال

محمد طاهر بن علي الهندي، ١٣٩٩هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

* مفتاح دار السعادة

ابن القيم، تحقيق محمد عيسى، ط١، دار الغد الجديد، المنصورة.

* المفردات في غريب القرآن

الحسين بن محمد، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد عيتاني، ط١، دار المعرفة، بيروت.

* المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة

محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق محمد الخشت، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت.



* المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية

أبو القاسم علي المقدسي، تحقيق محيي الدين مستو، ط١، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

* مقاييس اللغة

أبو الحسين أحمد بن فارس، اعتنى به د.محمد عوض، ط١، دار إحياء التراث، بيروت.

* مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب

أبوحامد الغزالي، تخريج بهيج غزاوي، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت.

* الملل والنحل

محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق محمد كيلاني، ١٤٠٠هـ، دار المعرفة، بيروت.

* المنافقون في القرآن الكريم

عبد العزيز الحميدي، ط١، دار المجتمع، جدة.

* مناقب الإمام أحمد بن حنبل

أبوالفرج ابن الجوزي، تحقيق د.عبد الله التركي، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة.

* منهاج العابدين

أبو حامد الغزالي، دار الجيل، بيروت.

* الموافقات في أصول الشريعة

أبو إسحاق الشاطبي، اعتنى به إبراهيم رمضان، ط٦، دار المعرفة، بيروت.

* المواهب اللدنية بالمنح المحمدية

أحمد بن محمد القسطلاني، تعليق عماد البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

* نزهة الألباب في الألقاب

ابن حجر، تحقيق عبدالعزيز السريري، مكتبة الرشد، الرياض.

* النشر في القراءات العشر

أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي، ابن الجزري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

إبراهيم بن عمر، أبوالحسن البقاعي، تخريج عبد الرزاق المهدي، ط٢، دار الكتب، بيروت.

* النفاق آثاره ومفاهيمه

عبد الرحمن الدوسري، ط١، مكتبة دار الأرقم، الكويت.

* نقد المنقول

ابن القيم، تحقيق حسن سويدان، ط١، دارالقادري، بيروت.



* النهاية في غريب الحديث والأثر

المبارك بن محمد الجزري، ابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي، دار الفكر، بيروت.

* نوادر الأصول في أحاديث الرسول

الحكيم الترمذي، تحقيق عبد الرحمن عميرة، ١٩٩٢م، دارالجيل، بيروت.

* نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار

الشوكاني، ط٢، دار الفكر، بيروت.

* هدي الساري مقدمة فتح الباري

ابن حجر، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

* الوابل الصيب

ابن القيم، تحقيق إياد القيسي، ط٣، مكتبة الرشد، الرياض.

* الوافي في شرح الأربعين النووية

د. مصطفى البغا، ط٢، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

* وسائل الإدراك في القرآن الكريم

د. محمد الشرقاوي، ط١، عالم الكتب، الرياض.

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان

أحمد بن محمد بن أبي بكر، ابن خلكان، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

المحتويات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدمة | ٧ |
| التمهيد: المراد بالعبودية في اللغة والشرع | ١٥ |
| **الباب الأول: العبودية** | ٢٢ |
| **الفصل الأول: معالم في مقام العبودية لله تعالى** | ٢٣ |
| المبحث الأول: العبودية غاية الحياة | ٢٧ |
| المبحث الثاني: العبودية منهج الرسل عليهم السلام | ٣٧ |
| القسم الأول: النصوص العامة | ٣٧ |
| القسم الثاني: النصوص الخاصة | ٤١ |
| المبحث الثالث: شرف مقام العبودية | ٤٩ |
| المسألة الأولى: الرسل عليهم السلام | ٥٠ |
| المسألة الثانية: المؤمنون | ٦٢ |
| **الفصل الثاني: أقسام العبودية** | ٦٩ |
| المبحث الأول: أقسام العبودية باعتبار الكائنات | ٧١ |
| المطلب الأول: المكلفون العقلاء | ٧٣ |
| المسألة الأولى: الإنس والجن | ٧٣ |
| المسألة الثانية: الملائكة عليهم السلام | ٧٦ |





| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المطلب الثاني: غير العقلاء | ٨٦ |
| المسألة الأولى: بعض الآيات الواردة في عبودية غير العقلاء تنصيصًا | ٨٧ |
| المسألة الثانية: المراد من تسبيح غير العقلاء | ٩٣ |
| المبحث الثاني: أقسام العبودية باعتبار العموم والخصوص | ١٠٣ |
| المسألة الأولى: العبودية العامة | ١٠٣ |
| المسألة الثانية: العبودية الخاصة | ١١٦ |
| المبحث الثالث: أقسام العبودية باعتبار أعضاء الإنسان | ١١٩ |
| المسألة الأولى: عبودية القلب | ١٢٣ |
| المسألة الثانية: عبودية اللسان | ١٢٩ |
| المسألة الثالثة: عبودية الجوارح | ١٣٥ |
| **الفصل الثالث: ضوابط العبودية** | ١٣٧ |
| المبحث الأول: توحيد الله تعالى والإيمان به | ١٣٩ |
| المبحث الثاني: إخلاص النية | ١٤٥ |
| المبحث الثالث: التزام الشرع | ١٥٧ |
| **الباب الثاني: عبودية القلب** | ١٨٢ |
| **الفصل الأول: التعريف بالقلب وأهميته** | ١٨٣ |
| المبحث الأول: التعريف بالقلب | ١٨٧ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| المراد بالقلب لغة وشرعا | ١٨٧ |
| محل القلب، سبب التسمية | ١٩٢ |
| الفؤاد وعلاقته بالقلب | ١٩٤ |
| الصدر وعلاقته بالقلب | ١٩٨ |
| العقل وعلاقته بالقلب | ١٩٩ |
| المبحث الثاني: لفظ القلب في القرآن الكريم | ٢١٥ |
| لفظ الفؤاد ولفظ الصدر في القرآن الكريم | ٢٢٩ |
| المبحث الثالث: أهمية القلب ومكانته | ٢٣٩ |
| المسألة الأولى: القلب هو الأساس والباعث | ٢٣٩ |
| المسألة الثانية: إيمان القلب وإخلاصه أصل في قبول العمل الصالح | ٢٤٦ |
| المسألة الثالثة: عمل القلب هو الميزان لتفاضل عبادة الظاهر | ٢٥٠ |
| المسألة الرابعة: إخلاص القلب يجعل المباح طاعة وقربة | ٢٥٦ |
| المسألة الخامسة: عبودية القلب طاعة مستقلة | ٢٥٨ |
| المسألة السادسة: القلب هو الأصل في المدح أو الذم | ٢٦٨ |
| المسألة السابعة: القلب منبع الإيمان | ٢٧٠ |
| المسألة الثامنة: القلب محل التقوى | ٢٧٣ |
| المسألة التاسعة: القلب موطن الهداية | ٢٧٥ |





| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| المسألة العاشرة: القلب موضع الكفر والنفاق | ٢٧٧ |
| المسألة الحادية عشرة: القلب مركز الفقه والعقل والانتفاع بالعلم | ٢٧٨ |
| المسألة الثانية عشرة: القلب محل الارتياح والسعة | ٢٧٩ |
| المسألة الثالثة عشرة: القلب مستقر الحب والميل والهوى | ٢٨١ |
| **الفصل الثاني: أركان عبودية القلب وتفاوت الناس فيها** | ٢٨٤ |
| المبحث الأول: عبودية القلب بين الإيجاب والسلب | ٢٨٧ |
| المبحث الثاني: أركان عبودية القلب | ٢٩٩ |
| أركان علم القلب وتصديقه | ٣٠١ |
| أركان عمل القلب | ٣٠٤ |
| المسألة الأولى: المحبة | ٣١٠ |
| المسألة الثانية: الخوف والرجاء | ٣١٥ |
| المبحث الثالث: منازل الناس في عبودية القلب | ٣٣١ |
| المسألة الأولى | ٣٣٣ |
| المسألة الثانية | ٣٣٥ |
| المسألة الثالثة | ٣٣٧ |
| المسألة الرابعة | ٣٤٠ |
| المسألة الخامسة | ٣٤٢ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المسألة السادسة | ٣٤٤ |
| المسألة السابعة | ٣٤٦ |
| المسألة الثامنة | ٣٦٨ |
| **الفصل الثالث: لوازم عبودية القلب وثمراتها والمؤثرات فيها** | ٣٧٣ |
| المبحث الأول: لوازم عبودية القلب ومقتضياتها | ٣٧٥ |
| المسألة الأولى | ٣٧٨ |
| المسألة الثانية | ٣٨٠ |
| المسألة الثالثة | ٣٨٢ |
| المسألة الرابعة | ٣٨٦ |
| المسألة الخامسة | ٣٩٠ |
| المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في حياة القلب | ٣٩٣ |
| المسألة الأولى: العلم | ٣٩٤ |
| المسألة الثانية: الاستقامة على الطاعة | ٤٠٥ |
| المسألة الثالثة: الذكر والاستغفار والتوبة | ٤٢٤ |
| المسألة الرابعة: التعلق بالقرآن الكريم | ٤٣٣ |
| المسألة الخامسة: الالتجاء إلى الله تعالى والتضرع إليه بالدعاء | ٤٤٠ |
| المسألة السادسة: إغلاق منافذ الشيطان والاستعاذة بالله منه | ٤٤٥ |





| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المبحث الثالث: ثمرات عبودية القلب | ٤٥٩ |
| المطلب الأول: الثمرات الأخروية | ٤٥٩ |
| المسألة الأولى: النجاة من النار وأهوال القيامة | ٤٥٩ |
| المسألة الثانية: الفوز بالجنة ونعيم الآخرة | ٤٦٨ |
| المسألة الثالثة: عظم الثواب واستمراره | ٤٧٦ |
| المطلب الثاني: الثمرات الدنيوية | ٤٨٩ |
| المسألة الأولى: العصمة من إغواء الشيطان وتسلطه | ٤٨٩ |
| المسألة الثانية: التباعد عن الآثام والإقبال على الطاعات | ٤٩٢ |
| المسألة الثالثة: الرعاية والكفاية والتأييد | ٤٩٦ |
| المسألة الرابعة: محبة الله تعالى وثناؤه | ٥٠٢ |
| المسألة الخامسة: الإمامة والقيادة | ٥٠٥ |
| المسألة السادسة: السرور والطمأنينة | ٥٠٧ |
| المسألة السابعة: الاهتداء والانتفاع بالمواعظ | ٥١٥ |
| **الباب الثالث: أنواع القلوب وأوصافها في القرآن الكريم** | ٥٢٥ |
| **الفصل الأول: القلوب الصحيحة** | ٥٢٦ |
| المبحث الأول: القلوب السليمة | ٥٢٩ |
| المبحث الثاني: القلوب المطمئنة | ٥٣٩ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المبحث الثالث: القلوب الوجلة | ٥٦١ |
| المبحث الرابع: القلوب المخبتة | ٥٧١ |
| المبحث الخامس: القلوب المنيبة | ٥٨١ |
| المبحث السادس: القلوب اللينة | ٥٨٥ |
| المبحث السابع: القلوب المربوط عليها | ٥٩٩ |
| **الفصل الثاني: القلوب الميتة** | ٦٠٧ |
| المبحث الأول: القلوب اللاهية | ٦٠٩ |
| المبحث الثاني: القلوب القاسية | ٦١٥ |
| المبحث الثالث: القلوب المتكبرة | ٦٣٣ |
| المبحث الرابع: القلوب المشمئزة | ٦٤١ |
| المبحث الخامس: القلوب المرتابة | ٦٤٥ |
| المبحث السادس: القلوب المنكرة | ٦٥٧ |
| المبحث السابع: القلوب الزائغة | ٦٦١ |
| المبحث الثامن: القلوب الغافلة | ٦٧٧ |
| المبحث التاسع: القلوب العمي | ٦٨٣ |
| المبحث العاشر: القلوب المكنونة | ٦٨٧ |
| المبحث الحادي عشر: القلوب المطبوع عليها | ٦٩٩ |





| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المبحث الثاني عشر: القلوب المختوم عليها | ٧٢١ |
| المبحث الثالث عشر: القلوب المقفلة | ٧٤٥ |
| **الفصل الثالث: القلوب المريضة** | ٧٤٩ |
| المبحث الأول: المراد بمرض القلب | ٧٥١ |
| أقسام مرض القلب | ٧٥٧ |
| المبحث الثاني: وصف القلب بالمرض في القرآن الكريم | ٧٦١ |
| الخاتمة | ٧٨٦ |
| المراجع | ٧٨٩ |
| المحتويات | ٨٢٦ |